شروح

التحفة المرسلة في الوحدة والتوحيد

للشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله الدمشقي
المتوفى ٦٩٩هـ

١. كشف الحجب المسبلة على فرائد التحفة المرسلة
[illegible]

٢. شرح الرسلانية
[illegible]

٣. فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان
[illegible]

٤. نهاية البيان في شرح رسالة أرسلان
[illegible]

٥. التعليقات الكمالية على الرسالة الأرسلانية
[illegible]

باعتناء وتعليق
الشيخ أحمد فريد المزيدي





شروح التحفة المرسلة في الوحدة والتوحيد

للشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله الدمشقي
المتوفى ٦٩٩هـ

١- كشف الحجب المسبلة على فرائد التحفة المرسلة
للشيخ أبي الخير السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠هـ

٢- فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان
لشيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦هـ

٣- شرح الرسلانية
للشيخ علوان علي بن عطية الحموي المتوفى سنة ٩٣٦هـ

٤- نهاية البيان في شرح رسالة أرسلان
للشيخ علي بن صدقة الدمشقي المتوفى سنة ٩٧٥هـ

٥- التعليقات الكمالية على الرسالة الأرسلانية
للشيخ مصطفى كمال شريف (كان حياً قبل سنة ١٣٠٤هـ)

باعتناء وتعليق
الشيخ أحمد فريد المزيدي



Šurūḥ
AL-TUḤFA AL-MURSALA
fī AL-WAḤDA WAT-TAWḤĪD

شروح التحفة المرسلة
في الوحدة والتوحيد

Author : *Al-Sheikh Arslan ben Ya'qoub Ad-Dimashqi (D.699H.)*

المؤلف : الشيخ أرسلان بن يعقوب الدمشقي (ت 699 هـ)

Editor : *Al-Sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi*

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Classification : Monotheism

التصنيف : توحيد

Year : *1434 H. - 2013 A.D*

سنة الطباعة : ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

Pages: *160*

عدد الصفحات : ١٦٠

Size : *17 × 24 cm*

القياس : ٢٤ × ١٧ cm

Printed in : *Lebanon*

بلد الطباعة : لبنان

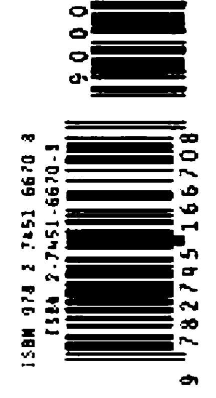
Edition : *First edition*

الطبعة : الأولى

ISBN : *978-2-7451-6670-8*



Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout Street,
Katerji Building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel : +961 76 944 855-P.O.Box: 11- 374 Riyad Al-Soloh
E-mail: books.publisher@hotmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الماتن
[صاحب التحفة]

هو الشيخ أرسلان بن يعقوب بن عبد الله بن عبد الرحمن الجعبري الأصل الدمشقي الدار الشيخ النشار الزاهد القدوة - قدس سره -.

يقال له: (الشيخ رسلان) تخفيفًا. وكذا سماه سيدنا الشعراني.

من أكابر مشايخ الشام، المجمع على جلالتهم، ومن جلّة أهل التصريف.

له أحوال معروفة، ومكاشفات مشهورة.

منها: ما حكاه شيخ الإسلام تقي الدين السبكي أنه حضر سماعًا فيه رسلان، فأنشد القوم، فصار الشيخ يثب في الهواء ويدور فيه، ثم ينزل، فعل ذلك مرارًا، ثم لما استقر بالأرض، استند إلى شجرة يابسة، فاخضر ورقها للوقت، وأثمرت.

وكان يقول: لا تأكل النار لحمًا دخل زاويتي، فدخل رجل للصلاة بها ومعه لحم نيء، فطبخه فلم ينضج.

ومن كلامه: قلب العارف لوح منقوش بأسرار الموجودات، فهو يدرك حقائق تلك السطور، ولا تتحرك ذرة حتى يعلمه الله بها.

وقال: الحدة مأوى كل شر، والغضب يحوج إلى ذل الاعتذار.

وقال: مكارم الأخلاق: العفو عند المقدرة، والتواضع عند الرفعة، والعطاء بغير مَنّ.

وقال: سبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس عليها ممن فوقها، فتحدث السطوة والانتقام.

وصحب شيخه أبا عامر المؤدب. وهو مقبور أعني الشيخ أرسلان في باب توما في التربة المعروفة به في القبر الأوسط؛ وصحب شيخه أبا عامر ياسين، وهو

صحب الشيخ علي بن غُليم، وهو صحب الشيخ أبا سعيد أحمد بن عيسى الخراز، وهو صحب السري السقطي.

قال شمس الدين الجزري: قال الشيخ داود: كان الشيخ أحمد بن الرفاعي قد دار النخيل الذي له، وعيّن واحدة وقال لأصحابه: إذا استوت هذه أهديناها إلى الشيخ رسلان، فمر بها بعد مدة فوجد أكثر ما عليها قد راح، فسألهم؟ فقالوا: لم يطلع إليها أحد، لكن في كل يوم يجيء إليها بازي أشهب يأكل منها ولا يقرب غيرها، ثم يطير فقال لهم: البازي الذي يجيء إليها هو الشيخ رسلان، فلذلك يقال له: الباز الأشهب.

قال المناوي: مات بدمشق، ودفن بها قبل السبعمائة.

وقال الصفدي: توفي الشيخ رسلان سنة ستين وخمسمائة تقريبًا.

وقال الذهبي والزركلي: توفي سنة ٦٩٩ هـ وهو الصواب، والله أعلم.

وقال البغدادي: ٥٤٠.

وانظر: الوافي بالوفيات (١٤٥/٣)، ديوان الإسلام (٣/١)، الكواكب الدرية (٥٠٦)، بتحقيقنا، هدية العارفين (١٩٣/١)، الأعلام للزركلي (٢٨٨/١)



كشف الحجب المسبلة على فرائد التحفة المرسلة

تأليف

الشيخ أبي الخير السويدي

المتوفى ١٢٠٠ هـ

باعتنائه وتعليقه

الشيخ أحمد فريد المزيدي

ترجمة مصنف الحجب المسبلة

هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشافعي البغدادي الشهير بالسويدي الشيخ الإمام العالم العلامة الفقيه المفنن أبو الخير زين الدين.

ولد ببغداد سنة أربع وثلاثين ومائة وألف وأخذ عن والده وعن فصيح الدين الهندي وياسين الهيتي وبرع وفضل.

وله حاشية على شرح الحضرمية وحاشية على شرح القطر للعصامي وله شعر ونثر وكانت وفاته في عشري ربيع الثاني سنة مائتين وألف. ١٢٠٠هـ.

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١/٣٧٧).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المصنف

الحمد لمن عيَّن الأعيان بفيضه، وقدَّرها إلى أوقات وأزمان في سمائه وأرضه، ولطف بها، وهو اللطيف الخبير، يرشُّ نور التجلي عليها، فهو على ظلمة عدمها منير، وأظهرها إلى الشهادة، وأبرزها من مكان العدم بالإرادة، فأوجد منها ما كان ممكن الوجود، واهبًا لكل منها ما قبل استعداده بمحض الكرم والجود، فأظهر منها آدم، واستخلفه على أسمائه:

فــإن أبــي وولــده وعرضــي لعــرض محمــد مــنكم فــداء

وسميته: «كشف الحجب المسبلة على فرائد التحفة المرسلة»، فالله أسأل أن يروي به قومًا عطاشًا، ويزيد قلوبهم به انتعاشًا، وقد أهديت ثوابه لشرف المصطفى؛ ليتحد مع أصله، ويكون حالهما حال الهدي الوارد إلى محله، فأسأله بمن جعله المظهر الأتم للعالم، وصيره الأب الأكبر للناس وآدم أن يقبل منِّي ما أهديت، وأن ينعشه بقبوله، ولا يجعله برده كالميت صلى الله تعالى عليه وعلى إخوانه المرسلين وآل كلٍّ أجمعين آمين.

المنعوتة بالعالم، وجعله مرآة ذلك الشبح المُسوَّى، وختم به على خزانة العالم بما قدر وسوى، فهو الإنسان الحادث الأزلي، والنَّشْءُ الدائم الأبدي، والكلمة الفائضة الجامعة، والحكمة البالغة البارعة، فتم العالم بوجوده من العدم، وإبرازه إياه ذو الأزلية والقدم، والصلاة والسلام على النور الذاتي الذي أشرقت به الظُّلم، المبعوث بالرسالة إلى خير الأمم، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصاره وأحزابه، وعلينا وعلى كافة المسلمين صلاة وسلامًا دائمين مدى الأحقاب والسنين.

أما بعد... فيقول راجِي لطف ربه السرمدي أبو الخير عبد الرحمن الشهير بالسويدي ابن الشيخ عبد الله بن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين العباسي البغدادي: لما رأيت من ران على قلوبهم الرياء، وحجبهم عن ربهم حبهم البيضاء والصفراء، تخلقوا بأخلاق السادة الزهاد، فنصبوا نفوسهم للهداية والإرشاد، ثم ما كفاهم ما صنعوا حتى خاضوا في علم الحقائق، فزندقوا بما فهموا الخلائق، ولم يزالوا يقررون في الحلول، ولم يفرقوا بين الوجود والحدوث بأمر معقول، بل ادعوا أن الله تعالى حَلَّ في أجسامهم، ويقررون ذلك بكلامهم حتى أني في بدايتي اطَّلعت عليهم، فوليت منهم فرارًا، وهربت منهم إنكارًا، إلا أنهم يلقون إلى الطالب أن هذا علم الحقيقة، وأنه مخالف للشريعة في الحقيقة، ويذكرون له قضية الحلاج، وما رآه من العلاج، ويحملون عبارات القوم على محامل رديّة، ويبنون عليها عقائد حلوليّة، فلذلك إذا قرأ عليهم أحد قرروا له حقيقة خفيّة، فكأن دين القوم المجوسية أو النصرانية.

فلو أدركت تلك السادات للمتهم على نظمهم هذه الكلمات، ولاسيما التحفة المرسلة، فكم طاشت بها أوهامهم، وذلت بها إلى الحضيض أقدامهم، فالتمس مني بعض الطلبة أن أَشْرحُهَا، وأُبيّنُ مغازي القوم وأوضحها، فأجبته إلى سؤاله؛ شفقة على حال أمثاله، فدونته شرحًا كشف الحجاب عن وجود خرائدها، ورفع النقاب عن ثنايا كنوز فرائدها، قد حل من مبانيها كل مقفل، وبين من فضائلها ما أشكل، وسوَّغ لواعظ الشرع أن يتلوها على رؤوس المنابر، وجوَّز لطلاب العلم أن تكتبها بالمسجد لا بسواد المحابر، وصان عرض كتب الشيخ ابن العربي وغيره من السادة الأتقياء، وأنشد حاله للطاعن فيها.

بسم الله الرحمن الرحيم

صدر كلامه بالبسملة؛ امتثالاً لخبر مصدر الحقائق، ومعدن الطرائق سِرُّ سِرِّ الأكوان، وعينُ عينِ الإنسان «كل أمر ذي بالٍ لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»[1].

(الحمد) أي: كل حمد، وهو إظهار الصفات الكمالية والقولية والفعلية والاعتقادية ثابت ومستحق.

(لله) بواسطة وغيرها، إذ الكل راجع إليه، والاسم الشريف مستغنٍ عن التوضيح، وقول بعضهم: اسم للذات الواجب الوجود لذاته بيان للوضع لا تعريف، إذ تعريف المعرفة لا يرتكبه عامل؛ لكونه أعرف المعارف.

(رب العالمين) أي: مالكهم، وهم العقلاء من جن، وإنس، وملائكة، وأضاف الرب إليهم؛ إظهارًا لحكم الرب على المربوبين، فإن الرب إليهم يشتمل حكمه على جميع الموجودات، وإن لم يكن لها حقيقة في الحقيقة، فإن قيل فعلى هذا كان الأولى أن يقول: رب العالم؛ ليكون دالًا على ما أراد بالمطابقة، قلنا: قال ذلك موافقة لنظم القرآن، فإنه علمنا الحمد بهذه الكيفية، فلعل فيه حكمة أخرى غير ما ذكرنا، أو تقول: غير العالمين يدخل في حكمهم بالقياس الجلي الأولوي، وحمده هذا حمدانية لا حمد هوية، إذ هي يستهلك فيها حقيقتا الحامد والمحمود، وتبقى واحدًا منفردًا بريئًا عن الثنوية عاريًا بإطلاقه عن التمييز، فلا يطلق الحمد على غيره، إذ لا شريك له يكون مستعليًا عليه، فلا يجب الحمد إلا لنفسه، ثم لتعلم -

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/٦١٠: رقم ١٨٩٤)، والإمام أحمد (٣٩٤٦)، والبيهقي (٣/٢٠٨، رقم ٥٥٥٩)، والدارقطني (١/٢٢٩)، والديلمي (٣/٢٤٦، رقم ٤٧٢٦). من حديث أبي هريرة. والطبراني (١٩/٧٢، رقم ١٤١)، من حديث عبد الله بن كعب عن أبيه، بلفظ: «أقطع»، وزاد الديلمي «وأبتر». وعبد الرزاق في «المصنف» (١٠٤٥٥)، عن رجل من الأنصار، بلفظ: «أبتر».

وأبو داود (٤٨٤٠)، بلفظ: «أجذم». قال الحافظ في «التلخيص الحبير» (٤/٢٧٠): وَاخْتُلِفَ فِي وَصْلِهِ وَإِرْسَالِهِ، فَرَجَّحَ النَّسَائِيُّ وَالدَّارَقُطْنِيُّ الْإِرْسَالَ... وَلَهُ أَلْفَاظٌ أُخَرُ أَوْرَدَهَا الْحَافِظُ عَبْدُ الْقَادِرِ الرُّهَاوِيُّ فِي أَوَّلِ الْأَرْبَعِينَ الْبُلْدَانِيَّةِ لَهُ.

أرشدك الله - أن في قوله: «الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ»، إشارة إلى مراتب الألوهية الثلاث اللاتي ذكرها، ففي اسمه الشريف إشارة إلى حضرة الأحدية[1]، وفي الرب إشارة إلى حضرة الوحدة، والحقيقة المحمدية، وفي العالمين إشارة إلى المرتبة الواحدية، والمرتبة الإنسانية، فجعل براعة الاستهلال في الغامض من المقال.

(والعاقبة) آخر الأمر (للمتخلي) بطرح السوى (عن الكونين) الدنيوي والأخروي المتحلي بحلى الذات والعين، وإنما أتى بصيغة «التفعل» الدالة على التكلف إشارة إلى أنه لا يحصل إلا بذلك، إذ منشأه الفناء، ففناء الفناء، وهو لا يحصل إلا غُبّ المجاهدة، وإنما لم يقل: والعاقبة للمتقين؛ اقتباسًا واقتداءً؛ لأن المتقي اسم فاعل، وهو من جعل الباطن وقاية الظاهر أو بالعكس، وكلّ من هذين القسمين لم يحصل العاقبة التامة لوقوفه مع من اتقى به، فيكون المتخلي أعلى رتبة منه لمروره على ما هو فيه، وتعديه طوره، وإن كان المتقي يفيد هذا المعنى باعتبار الأول، إلا أن هذا أصرح منه في الدلالة، إذ الحقيقة أدل من المجاز، كما لا يخفى أو نقول: المراد بالمتخلي عن الكونين هو المتقي بتقدير الصفة أي: الكامل،

---

(١) قال الشيخ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]: اعلم أن لفظة الأحدية جاءت ثابتة الإطلاق على من سواه تعالى كما في هذه الآية، وإن كان المفهوم منه بالنظر إلى تفسير المعاني على طريق أهل الله أنه لا يعبد من حيث أحديته، إذ الأحدية تنافي وجود العابد، فكأنه يقول لا يعبد إلا الرب من حيث ربوبيته، فإن الرب وجدك فتعلق به وتذلل له، ولا تشرك الأحدية مع الربوبية في العبادة،فتتذلل لها كما تتذلل للربوبية، فإن الأحدية لا تعرفك ولا تقبلك فتكون تعبد في غير معبود، وتطمع في غير مطمع، وتعمل في غير معمل، وتلك عبادة الجاهل فتفنى عباده العابدين من التعلق بالأحدية، فإن الأحدية لا تثبت إلا لله مطلقًا، وأما ما سوى الله فلا أحدية له مطلقًا، فهذا هو المفهوم من هذه الآية عندنا من حيث طريقتنا في تفسير القرآن.

وقال: وإذا قد علمت هذا؛ علمت المراد بقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص:١] أي: لا يشارك في هذه الصفة، وأما الواحد فإنا نظرنا في القرآن هل أطلقه على غيره، كما أطلق الأحدية؛ فلم أجده، وما أنا منه على يقين، فإن كان لم يطلقه فهو أخص من الأحدية، ويكون اسمًا للذات علمًا لا يكون صفة كالأحدية، فإن الصفة محل الاشتراك؛ ولهذا أطلقت الأحدية على كل ما سوى الله في القرآن، وأطال في ذلك. [مختصر الفتوحات للشعراني] بتحقيقنا.

والمتقي الكامل هو المتخلي بلا ريب، فتسميته حينئذ مُتَّقٍ باعتبار ما كان عليه، فيكون حينئذ عدوله عن ذلك إلى هذا براعة استهلال أو إشارة بنطقه به على لسان الحقيقة غب نطقه بما قبله على لسان الشريعة إلا أن العارف لا يكون عارفًا حتى يتعدى طور الشريعة، إذ هي قبل الحقيقة، فيكون منه رحمة الله أمر معنوي للسالك بملازمة الشريعة في بدايته، إذ شريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة، فهما متلازمان، فمن سلك بمحض الحقيقة أو بمجرد الشريعة كان كطالب سرابًا بقيعة.

(والصلاة والسلام) من رب القدم **(على المظهر الأتم)** الذي لا فوقه مظهر، ولا تحته مظهر، وهو اسم مكان أي: مكان ظهوره قدرة الله وصفاته في جميع مخلوقاته، بل هو مظهر الكونين بأسرهما، كما سينكشف عن عينك الغطاء عند شرح المرتبة المحمدية، بل نعجل لك رفع الحجاب، ونكشف لك عن غوامض هذا السر النقاب، فنقول: إنما كان خيرة الخلق، وحبيب الحق مظهر كل وجود وسر وانبساط الوجود؛ لأنه ﷺ لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه وتقدير رزقه أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية في الحضرة الأحدية، ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها على صورة حكمه كما سبق في سابق إرادته وعلمه، ثم أَعلمه بنبوته، وبشره برسالته، هذا وآدم لم يكن إلا كما قال: «بين الروح والجسد»[1]، ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، فظهر بالملأ الأعلى، وهو بالمنظر الأجلى، فكان لهم الأحلى، فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس. وإلى هذا الكلام المفخم أشار ﷺ بالمظهر الأتم.

(محمد) وعلى **(آله)** وهم أتباعه **(وصحبه أجمعين)**.

تنبيه: التحقيق عند أصل الرسوم من أصحاب الشافعية - نفع الله برشدهم

---

(١) حديث عبد الله بن شقيق: أخرجه ابن سعد (٥٩/٧)، وابن أبي شيبة (٣٢٩/٧، رقم ٣٦٥٥٣)، وابن قانع (٣٤٧/١). حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني (٩٢/١٢، رقم ١٢٥٧١).
حديث ميسرة الفجر: أخرجه ابن سعد (٦٠/٧)، والطبراني (٣٥٣/٢٠، رقم ٨٣٣)، والحاكم (٦٦٥/٢، رقم ٤٢٠٩)، وقال: صحيح الإسناد. وفي الحديث أن النبي ﷺ سئل متى كنت نبيا؟... فذكره.

البرية - أن «الآل» يطلق بالاشتراك اللفظي على معنيين أحدهما: الأتباع، وثانيهما: أقاربه المؤمنون والمؤمنات، فخصوه في مقام الزكاة بالثاني، وفي مقام الدعاء بالأول تخصيصًا لكل بما يناسب، فعلى هذا يكون قوله: وصحبه الذين هو اسم جمع لصاحبه، وهو من رأى النبي ﷺ، أو النبي رآه، ومات على الإسلام بناء على مذهب غير الشافعية من القائلين بعدم اندراج الصحب في مفهوم الأول، أو بناء على ما اشتهر عنهم، أو دفعًا لما عسى أن يتوهم من اعتقاد الرافضة المحتجبين عن الإدراك بالحجج الأحبة والغامضة، أو أنه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ ﴾ [القدر: ٤]، ولا يكون إلا لنكتة، وهي هنا مزيتهم على غيرهم بما تحلوا به من العلوم الدينية، وما نافوا به فضيلة النسب.

(وبعد) هي كلمة عربية تستعمل للرسوم للانتقال من أسلوب إلى آخر، أول من نطق بها من العرب «قس بن ساعدة»، تتضمن معنى الشرط؛ ولذلك وقع في حيزها فاء الجزاء في قوله: (فيقول العبد) بلسان أنيته ووقوفه في مقام الفرق؛ ولذا وصف نفسه بـ(المذنب)، إذ قد قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

(المحتاج) أي: المفتقر (إلى شفاعة النبي ﷺ) في الدنيا والآخرة، ووصفه بالنبي ﷺ، ولم يصفه بالرسول على أن النبوة أشرف من الرسالة، وهو خلاف ما حققه ابن حجر من علماء الرسوم لنا أن الرسالة متعلقة بالخلق، والنبوة متعلقة بالحق، وشتان ما بين المتعلق بالخالق، والمتعلق بالمخلوق.

ولنا: ما رواه البخاري في صحيحه من أن النبي ﷺ قال: **«يا فلان إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك إلى أن قال: آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت»**. قال: فرددتها على النبي ﷺ فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت. قلت: ورسولك، قال: **«لا ونبيك الذي أرسلت»**[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٩٠/٤، رقم ١٨٥٨٤)، والبخاري (٩٧/١، رقم ٢٤٤)، ومسلم (٢٠٨١/٤، رقم ٢٧١٠)، وأبو داود (٣١١/٤، رقم ٥٠٤٦)، والترمذي (٤٦٨/٥، رقم ٣٣٩٤)، وقال: حديث حسن. والنسائي في الكبرى (١٩٥/٦، رقم ١٠٦١٨)، وابن خزيمة (١٠٨/١، رقم =

(محمد بن الشيخ فضل الله) الهندي، والشيخ لغة من استبانت منه السن، وفي العرف العارف: المرشد (هذه) وما بعدها مقول القول، والإشارة بها إلى معقول مطلقًا تقدمت الديباجة على المقصود أو تأخرت (نبذة) أي: قل من كثر، وقطرة من أبحر من بعض (الكلمات) جمع: كلمة بفتح الكاف وكسر اللام على الأفصح فيهما الكائنة في (علم الحقائق) أي: فيها جمع حقيقة، وهي كما قال سيدي ابن العربي: سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل فيك لا أنت: ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود:٥٦]، انتهى.

(جمعتها) من الجمع بمعنى: الضم، فهو أعم من التركيب الأعم من التأليف (بـ) استعانة أو ملابسة (محض) أي: خالص (فضل الله) تعالى (وكرمه) عليّ حيث أظهر فيّ قوة علمية أقدرني بها على الجمع من غير استمداد من سفر ولا حفظ من ذكر.

(وجعلت) أي: صيرت (ثوابها) أي: جزاءها حيث كانت لوجهه تعالى لم أرد بها غيره، فاستحقت الجزاء هبة مني (لروح رسول الله ﷺ) وهدية مني إليه، أما الروح فلم تعرف ما هي لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، وأما ما سيأتي من تعريف المصنف للأرواح بأنها أشياء كونية..إلخ. فهو على مذهب الحكماء، وفرقة من الصوفية على أن الجمع ممكن بأن التعريف لها كان بخواصها لا بذاتياتها، فلا يلزم منه كشف الحقيقة بما هي عليه (وسميتها) أي: النبذة (بالتحفة) هي الطرفة جمعها: تحف، وقد أتحفته تحفة، وقيل: أصل التاء «واو» (المرسلة إلى النبي ﷺ) باعتبار إرسال ثوابها، إذ هو المقصود منها (وأسأل الله تعالى) وأتوسل إليه (أن يبلغ) ويوصل (ثوابها عليه الصلاة والسلام) من الملك العليم العلام: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾، موجود ذهنًا وخارجًا ﴿ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٩] لا يعجزه شيء عن شيء (وبالإجابة) وقبول دعاء عبده.

---

٢١٦)، وابن ماجه (١٢٧٥/٢، رقم ٣٨٧٦).

(جدير) أي: حقيق لوعده بها في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠]، وخلف الوعد عليه محال، إذ قد ورد مطل الغني ظلم.

اعلموا يا (إخواني أسعدكم الله) بجلاء الحجب الكثيفة عن مرآة خواطركم اللطيفة (وإياي) الأولى تقديم نفسه لقوله ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بأخيك»[1]، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي ﴾ [الأعراف:١٥١] اللهم إلا أن يقال: هو من باب ساقي القوم، وآخرهم شربًا (أن) الإنسان مشارك لسائر الأجسام في الحصول في الحيز والفضاء، وللنباتات في الاغتذاء والنشوء والنماء، وللحيوانات العجم في حياته بأنفاسه، وحركته بإرادته وإحساسه، وإنما يتميز بما أعطي من القوة النطقية، وما يتبعها من العقل والعلوم الضرورية، وأهليته للنظر والاستدلال، وعلمه بما أمكن واستحال، فإذًا كماله باكتساب المجهولات وتعقل المعقولات، ولما كان علم التوحيد هو أشرف العلوم قدرًا، وأجلها فخرًا، إذ شرف العلوم لشرف الموضوعات، كما أن تمايزها بها لا يغيرها من الجهات كان طلبه هو الأولى، إذ لا علم أفضل من العلم بالله وأعلى، وأنه كما قال سيدي عبد الكريم الجيلي لكثرة اتساعه وعظم شياعه:لا يكاد المرء يبلغ من تداركه مقصودًا، ولو كان بجميع الإمدادات ممدودًا، وأن القوم المشار إليهم بهذا العلم رضوان الله تعالى عليهم إنما أخذوا منه طرفًا، وأبقوا منه طرفًا على قدر القابلية، وقبول الفيض من الحضرة العلية الأحدية.

وقد قال سيدي الجنيد - رحمة الله تعالى عليه -: لو علمت أن تحت أديم السماء علمًا أشرف من علمنا هذا لرُحْتُ إليه.

وقال سيدي السيد أحمد الرفاعي - رحمة الله تعالى عليه - لتلامذته: تعلموا هذا العلم، فإن جذبات الحق في زماننا.

قلت: ولما كان مشحونًا بعبارات يعسر فهمها، ويدق على غير المستفيض علمها، ولاسيما وحدة الوجود، فكم زلَّت بها أقدام، وكم بقي قوم منها بين أحجام وأقدام، وكم أنكر على أهل الله بها أهل الرسوم لما شاع عندهم عنها خلاف

---

(١) أخرجه مسلم (٦٩٢/٢، رقم ٩٩٧)، والنسائي (٦٩/٥، رقم ٢٥٤٦)، والشافعي (٣٢٧/١)، وأبو عوانة (٤٩٠/٣، رقم ٥٨٠٥)، والبيهقي (١٧٨/٤، رقم ٧٥٤٤).

المنطوق والمفهوم اقتضى أن نبرز ما في الصدر إلى السطر، ونطلعك على هذا الأمر، ونطبق هذه المسألة على قواعد الشرع، ونلحق الأصل بالفرع؛ لتكون مما يأتي على خبرة، إذ ما كل مرة تكسر الجرة[1].

---

(١) قال الشيخ محيي الدين في الباب الثاني في «الفتوحات المكية»: إن الحق تعالى موجود بذاته لذاته لا مطلق الوجود، غير مقيد بغيره، ولا معلول من شيء، ولا علة لشيء، بل هو خالق المعلولات والعلل، والملك القدوس الذي لم يزل، وإن العالم موجود بالله لا بنفسه ولا لنفسه، مقيد الوجود بوجود الحق في ذاته، فلا يصح وجود العالم ألبتة إلا بوجود الحق... إلخ.

وقال في الباب السادس: الحق تعالى هو الموصوف بالوجود المطلق؛ لأنه سبحانه ليس معلولاً لشيء، ولا علة، بل هو موجود بذاته، انتهى.

الموجود بذاته متعين بذاته؛ لأن المتعين بأمر زائد على ذاته محتاج في تعين ذاته إلى ذلك الأمر، فلا يكون موجودًا بذاته؛ لأن الموجود بذاته غني بالذات عن العالمين، ومن ثبت له الغنى الذاتي لا يكون معلولاً لشيء، ولا علة موجبة بالذات لشيء.

أما الأول فظاهر، وأما الثاني فلأن العلة تقتضي الارتباط الذاتي بين العلة والمعلول؛ لأن العلة بالذات مقتضية للمعلول، وبين الغنى الذاتي عن العالمين والارتباط الذاتي بشيء منها منافات لكن الحق تعالى غني بالذات عن العالمين بالنص المتواتر، فلا يكون علة مقتضية بالذات لشيء من العالم بل هو فاعل مختار يراعي فيما خلق وأمر تفضلاً ورحمةً لا وجوبًا؛ فاتضح أن الله تعالى مطلق الوجود غير مقيد بغيره.

وقال الشيخ في الباب الحادي والأربعين وثلاثمائة: إن الله تعالى مطلق الوجود، ولم يكن له تقييد مانع من تقييد بل له التقييدات كلها، فهو مطلق التقييد لا يحكم عليه تقييد دون تقييد، فافهم معنى نسبة الإطلاق إليه تعالى، انتهى.

وإنما لم يكن له تقييد مانع من تقييد؛ لأنه تعالى متعين بذاته، والتعين الذاتي أوسع التعينات.

وقال تلميذه المحقق الشيخ صدر الدين محمد بن الحق القونوي قدس سره في «النصوص»: اعلم أن الحق من حيث إطلاقه الذاتي لا يصح أن يحكم عليه بحكم، أو يعرف بوصف، أو يضاف إليه نسبة ما؛ لأن كل ذلك يقضي بالتعيين والتقييد، ولا ريب في أن نعقل كل متعين يقضي بسبق اللاتعين عليه، وكل ما ذكرنا ينافي الإطلاق، بل تصور إطلاق الحق يشترط فيه أن يتعقل بمعنى أنه وصف سلبي لا بمعنى أنه إطلاق ضده التقييد، بل هو إطلاق عن الوحدة والكثرة المعلومتين، وعن الحصر أيضًا في الإطلاق والتقييد، وفي الجمع بين كل ذلك والتنزيه عنه فيصح في حقه كل ذلك حال تنزهه عن الجميع... إلخ.

يعني: أن الحق تعالى إذا لوحظ من حيث إطلاقه الذاتي بمعنى الوصف السلبي أي: إذا لوحظ في حيث إنه لا يتقيد لشيء فهو تعالى على تقدير اتصافه بهذا العنوان السلبي لا يصح

أن يحكم عليه بشيء؛ لأن الحكم عليه فرع تصوره بوجه ما، وهو نوع في التعين ولا تعين على تقدير الاتصاف بالعنوان المذكور في نفس الأمر لا حين الملاحظة.

ثم قال: وإذا وضح هذا علم أن نسبة الوحدة إلى الحق تعالى، ونحو ذلك إنما يصح باعتبار التعين، وأول التعينات المتعلقة النسبة العلمية الذاتية؛ لكن باعتبار تميزها عن الذات الامتياز النسبي لا الحقيقي... إلخ. وذلك لأن العلم إضافة عنده وعند الشيخ والإضافة لا وجود لها في الخارج فهي متميزة عن الذات الامتياز الاعتباري لا الحقيقي.

ثم قال: غيب هوية الحق إشارة إلى إطلاقه باعتبار اللاتعين، ووحدته الحقيقية الماهية جميع الاعتبارات والأسماء والصفات والنسب والإضافات عبارة عن التعقل الحق، وإدراكه لها من حيث تعينه، وهذا التعين والتعقل والإدراك التعيين، وإن كان يلي الإطلاق المشار إليه، فإنه بالنسبة إلى تعين الحق في تعقل كل متعقل، وفي كل تجلٍّ تعين مطلق، وإنه أوسع التعينات، وهو التجلي الذاتي... إلخ. وإنما كان تعينًا مطلقًا بالنسبة إلى ما ذكره لأنه تعالى متعين بذاته لا بأمر زائد على ذاته وتعيناته في تعقل كل متعقل، وفي كل تجلٍّ تعينات خاصة تتفاوت مراتبها بتفاوت مراتب إدراك المتعقلين واستعدادات المجالي، والتعين الذاتي لا مانع له من مجامعته للجميع؛ لكونه أوسع التعينات، وإنما المانع من جهة التعين الزائد الخاص لكن الله تعالى واسع حكيم بالنص فيكون متعينًا بذاته، فمن سعة يجامع الجميع، ومن حكمته يختلف مراتب تجلياته وتعيناته باختلاف استعداد المظاهر، ومع كونه تعالى واسعًا أطلق عليه في الحديث الصحيح اسم الشخص، ولا منافاة بين سعته وتشخصه؛ لأن تشخصه بذاته وهو أوسع العينات المجامع لجمعيها والتعين المنافي للسعة هو التعين الزائد وهو منتفٍ، ولهذا قال الشيخ: ولم يكن له تقييد مانع من تقييد، وسبحان الله الحكيم الحميد!.

وقال الشيخ محيي الدين - قدس سره - في الباب الثاني والأربعين ومائة: المسمى بـ(الله) أو بـ(هو) من لا تقيده الأكوان، ومن له الوجود التام، انتهى.

والإطلاق الحقيقي مصحح لتجلِّ الحق تعالى في المظاهر مع بقاء التنزيه؛ لأن الإطلاق ذاتي له وما بالذات لا يزول، ومنه يظهر إجراء المتشابهات على ظواهرها مع التنزيه بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] كما هو مذهب السلف الصالح، والقول الأخير للشيخ أبي حسن الأشعري المذكور في كتابه «الإبانة» الذي هو آخر مصنفاته والمعتمد من بينها، فإن الشيخ الأشعري قال: إن الوجود عين الذات، فإذا قال صح ذلك بإجراء المتشابهات على ظواهرها مع التنزيه بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ فقد قال بأنه تعالى هو الوجود المطلق بالإطلاق الحقيقي إذ التجلي في الظاهر كما هو مقتضى إجراء المتشابهات على ظاهرها مع التنزيه لا يتم إلا بأن يكون الوجود الذي هو عين الذات وجودًا مطلقًا بالإطلاق الحقيقي، وهو الوجود الخاص بالواجب الوجود لذاته القائم بذاته المتعين بذاته الجامع لكل كمال المنزه عن كل نقص غير أن الشيخ الأشعري ﷺ لم يسمه المطلق، ولا نزاع في إطلاق

فنقول وبالله المستعان وعليه التكلان: افترق أهل العلم في الوجود زمرًا، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، فذهب أهل الباطن إلى أنه واحد، وأنه نفس الماهية في الواجب زائد عليها في الممكن، فاعلم أن مغزاهم بقولهم: بوحدة الوجود من الوجود ما صار به الوجود موجودًا إلا الوجود الذي هو مفروض مقدر للممكن من جنسه، وإذا كان مرادهم هذا لم يختلف فيه اثنان في أنه عين وجود الله تعالى؛ إذ القائلون بتعدده يقولون بحدوث الوجود في الممكن، فإذا سُئِلوا عمن أحدثه، قالوا: وجود الله تعالى فالعالم كله من جهة نفسه معدوم بعدمه الأصلي، وأما من جهة

=

اللفظ بعد صحة المعنى، فإن المراد بالوجود المطلق بالإطلاق الحقيقي هو الوجود الخاص الواجب الوجود لذاته المتصف بجميع صفات الإله المتجلي فيما شاء من المظاهر بمقتضى إجراء المتشابهات على ظواهرها مع بقاء التنزيه، وهذا بعينه هو مذهب الشيخ الأشعري في كتابه «الإبانة» وهو آخر مصنفاته الذي عليه التعويل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وبالله التوفيق.

الثاني: الوجود المبسوط على الماهيات المتعين بحسبها وهو الذي بانضمامه إلى الماهيات يترتب عليها آثارها المختصة بها موجود في الخارج وإلا لم يوجد شيء من الممكنات إلا على تقدير كونه معدومًا في الخارج لا يحصل للماهية بضمه وصف لم يكن عليه قبل الضم؛ لأن الوجود المعدوم كالماهية في كونه محتاجًا إلى وجود موجود يتحقق به في الخارج، وما هو كذلك لا يترتب على الماهية بضمه إليها آثارها المختصة بها؛ لأنه ما زادها إلا افتقار فلو كانت توجد بحصول صفة الافتقار لها لكانت توجد قبل ضمه إليها لتحقق افتقارها الذاتي واللازم باطل بالضرورة فلا بد أن يكون الوجود المفاض على الماهيات موجود في الخارج بوجود هو نفسه دفعًا للتسلسل؛ وهذا الوجود المفاض هو النور المفاض في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]. وفي قوله ﷺ في صحيح البخاري: «**اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن**» فالحصص المضمومة إلى الماهيات إنما هي حصص الوجود المفاض الذي هو النور المضاف لا المجرد عن الماهيات الغني عن العالمين، وسبحان الله الملك الحق المبين.

وهذا الوجود المفاض هو المعبر عنه بالعماء في حديث أبي زر بن العقيلي ﷺ قال الشيخ قدس سره في مقدمة الفتوحات مسألة بحر العماء برزخ بين الحق والخلق في هذا البحر اتصف الممكن بعالم وقادر وجميع الأسماء الإلهية التي بأيدينا واتصف الحق بالتعجب والتبشبش والضحك والفرح والمعية وأكثر النعوت الكونية، فرد ما له وخذ ما لك، فله النزول ولنا المعراج. [مطلع الجود للكوراني].

وجوده تعالى، فهو لا وجود له من جهة نفسه أصلاً، فلا يكون ذاته عين وجوده تعالى الذي هو عين ذاته، فالممكنات بوجودها الحادث الزائد على ذواتها موجودة بوجوده تعالى، ولولا وجوده لم يكن شيءٌ موجودًا، فذات الوجود الممكن، وصورته غير الوجود القديم، وصورته ووجودهما واحد هو وجود القديم بالذات، فالقديم موجود بوجود هو عين ذاته لما سيأتي، والحادث موجود بوجود هو عين ذات القديم، فالقديم ليس عين الحادث، ولا الحادث عين القديم، بل كل واحد منهما مباين للآخر في الذات والصفات، وإن اجتمعا في الظهور بوجود واحد، وإذا علمت هذا فاعلم أن الوجود الحق من حيث هو، هو لا بشرط شيء غير مقيد بالإطلاق والتقييد، ولا هو كلي ولا جزئي ولا عام ولا خاص، ولا واحد بالواحدة الزائدة على ذاته، ولا كثير، بل تلزمه هذه الأشياء بحسب مراتبه المنبه عليها بقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥]، فيصير مطلقًا ومقيدًا، وكليًا وجزئيًا، وعامًا وخاصًا وواحدًا وكثيرًا من غير حصول التغيير في ذاته وحقيقته.

واعلم أيضًا أنه ليس بجوهر ولا عرض ولا تحقيق شيء في العقل، ولا في الخارج إلا به، فهو المحيط بجميعها بذاته وقوام الأشياء به؛ إذ لو لم يكن شيئًا مذكورًا، بل هو عينها، إذ هو الذي يتجلى في مراتبه، ويظهر بصورها وحقائقها في العلم والعين، فيسمى بالماهية والأعيان الثابتة، ولا واسطة بينه وبين العدم، كما لا واسطة بين المعدوم والموجود مطلقًا، والماهية والحقيقية واسطة بين وجودها الخاص وعدمها، والمطلقة الاعتبارية لا وجود لها في نفس الأمر، ولا ضد له، بل هو الذي يظهر بصورة الضدين وغيرهما، ويلزم منه الجمع بين النقيضين، وهو أظهر من كل شيء تحققًا وإنّيةً، وأخفى كل شيء حقيقةً وماهيةً حتى قيل على الأول: إنه بديهي، وعلى الثاني: كان أعلم شيء به أعلم الخلق في دعائه بقوله: ما عرفناك حق معرفتك، وهو لا يقبل الانقسام والتجزؤ خارجًا وعقلاً؛ لبساطته، فلا جنس له ولا فصل، فلا يحد، وهو لم يقبل الاشتداد ولا الضعف في ذاته؛ لأنهما لا يتصوران إلا في الحال القار وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو الواجب لذاته، وهو نور محض، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وإذا تبين لكم المرام، فنرجع إلى المقصود بعون الملك المعبود، فنقول:

اعلموا - أرشدنا الله وإياكم - أن (الحق سبحانه وتعالى هو الوجود) المطلق

كما تقدم في المقدمة (وأن ذلك) الوجود الذي هو عين ذاته تعالى (ليس له شكل) كأشكالنا (ولا حد) يحيط به (ولا حصر) يضبطه، قال تعالى: ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء:١٢٦]، وليس له ماهية غير هذا الوجود المطلق المحض؛ إذ لو كان له ماهية غيره للزم في ذاته تعالى التركيب منه ماهية خاصة به، ووجود عام له ولغيره، والتركيب برهان الحدوث، وهو عليه محال، وللزم أيضًا مشابهته تعالى للحوادث وهو محال؛ إذ مشابهة الحادث حادث، وللزم أيضًا التركيب منه وجود وعدم، إذ الجزء الذي هو غير الوجود لا يكون إلا العدم، فيلزم اجتماع النقيضين في ذاته وهو محال، وللزم أيضًا افتقار جزء الذات إلى الآخر المفتقر إليه متقدم في الوجود على المفتقر، وقد ثبتا معًا، فيلزم الخلف وهو محال.

(ومع هذا) أي: مع كونه وجودًا محضًا ليس له شكل ولا حد (ظهر) أي: انكشف علينا بنا (بالشكل والحد) أي: كل شكل وكل حد فعلمنا بنا أنه الواحد الباقي، وأنّا عَدَمٌ فانٍ، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ ﴾ [فصلت:٥٣].

فنحن مرآة منه حيث أنا مظاهر أحديته وصفاته، وهو مرآتنا منه، حيث أنّا إذا تفكرنا فيه علمنا أنفسنا، وذلك أن الله تعالى لما شاء منه حيث أسمائه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها.

قال الشيخ ابن العربي: وإن شئت قلت: أن يرى عينه في كون جامع بمصر الأمر؛ لكونه متصفًا بالوجود، ويظهر به سره إليه، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤيته في أمر آخر يكون كالمرآة، فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه ما لم يكن يظهر له قبل وجود هذا المحل ولا تجليه له، وقد كان الحق تعالى أوجد العالم كله وجود شبحٍ مُسوًّى لا روح فيه، فكان كمرآة غير مجلوة، ومنه شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلًا إلا ولا بد أن يقبل روحًا إلهيًا عبر عنه بالنفخ فيه، وما هو إلا حصول الاستعداد منه تلك الصورة المسواة لقبول الفيض الإلهي الذي هو التجلي الدائم، الذي لم يزل ولا يزال، وما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس، فالأمر كله منه ابتداؤه وإليه انتهاؤه، فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة، وروح تلك الصورة.

(ولم يتغير) الوجود الحق بعد تجليه وانكشافه (عما) أي: الذي (كان عليه) في الأزل (منه عدم الشكل وعدم الحد) إذ كل شكل ومحدود، بل كل شكل وحد تقديره وتصويره، والمصور إذا ظهر وعرف بتلك الصورة لا يكون متغيرًا عما كان عليه قبل ظهوره، بل صورته قبل التصوير صورته بعده (بل الآن) في الحالة الراهنة (هو كما كان) عليه إذ كان الله ولا شيء معه، ويكون ولا شيء معه.

(و) اعلموا (أن الوجود) الحق (واحد) لا تعدد له في ذاته، ولا تركيب لما مر، وإنما التعدد في مصوراته ومقدراته الذهنية والخارجية، ولكن (الإلباس) أي: مظاهره التي انكشف لنا بها يعني: صور المخلوقات (مختلفة) باختلاف أجناسها (ومتعددة) بتعدد أنواعها، ووجودها الذي صارت به موجودة واحدة (و) اعلموا أيضًا (أن ذلك الوجود) الخاص الذي هو الحق هو (حقيقة جميع الموجودات) المعبر عنها بهو هو، إذ كلها كما تقدم موجودة بوجوده تعالى لا بأنفسها، ولا بشيء خارج عنها غيره.

(وباطنها) منه حيث إنه المنظور إليها في الاستدلال أولاً، ثم منها إليه على طريقة الانتقال منه الدليل إلى المدلول، وإما منه حيث إنها ماهيات وحقائق وأشخاص، فليست هي الوجود، بل هي مقدراته ومصوراته، وليس الوجود باطنها منه حيث اشتمالها عليه اشتمال الظرف على المظروف، كما قد يتوهم، وما فسرنا به الباطن هو مغزى قول الشيخ الأكبر في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء:١]، أي: اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعلوا ما بطن منكم، وهو ربكم وقاية لكم؛ إذ الأمر هو حمد وذم، فكونوا وقايته في الذم، واجعلوه وقايتكم في الحمد تكونوا أدباء عالمين، انتهى[1].

---

(١) قال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: ذكر المتكلمون على وحدة الوجود أن هاهنا وحدات ثلاثًا:

الأولى منها: وحدة كل موجود على انفراده: ومعناها أن كل فرد من أفراد الموجودات الظاهرة والباطنة من حيث هو له من الله تعالى وجه خاص يلقي إليه منه ما يشاء لا يشاركه فيه أحد وله منه أيضًا وجهة معينة وصفة مخصوصة لا تكون لغيره بها يتميز عن غيره من سائر المخلوقات وهذه الوجهة هي حقيقته المختصة به وصفته المخصوصة.

قال في «الفتوحات» في الفصل الخامس عشر من الباب الثامن والتسعين ومائة ما نصه: =

وأما الله تعالى فهو مع كل شيء فلا يتقدمه شيء ولا يتأخر عنه شيء وليس هذا الحكم لغير الله تعالى ولهذا له إلى كل موجود وجه خاص لأنه سبب كل موجود وكل موجود لا يصح أن يكون اثنين، انتهى.

يشير إلى هذه الوحدة وإن شئت زيادة بيان لها فقل: إنه ما من عين مخلوقة إلا ولها من الله خاصية وعلامة تميزها عن غيرها من كل ما خلقه الله من الأعين من ابتداء الوجود إلى انتهائه كما أن لها منه مادة مخصوصة لا يشاركها فيها عين أخرى، وإن قلنا: إن هذه العين مثل هذه كزيد مثلا مثل عمرو أو هذه الحبة من البر أو غيره مثل هذه فما هي مثلية حقيقية إذ كل واحد منهما لا بدّ له من مميز يدرك ذلك من خالطه المخالطة الخاصة أو تأمله كذلك أو فتح الله عين بصيرته وذلك المميز هو وجهه المختص به وهو حقيقته الخاصة وصفته المخصوصة فهذه هي وحدة كل موجود.

الثانية: وحدة جميع الموجودات الكونية من حيث جملتها: وهي وحدته ﷺ ومعناها أن العالم كله من أوله إلى ما لا نهاية له منه شيء واحد بالذات أعني نورانيته واحدة وحقيقة متحدة متضمنة لجميع الحقائق وهي نورانيته ﷺ وحقيقته المفاضة من الذات العلية فيضانا متحدا بالفيض الأقدس أولاً في العلم ثم بالفيض المقدس ثانيا في العين والخارج وما لها من التفاصيل والوجوه والقيود والاعتبارات والخيالات العارضة لا يعددها ولا يكثرها كالذات الواحدة الإنسانية فإنها حقيقة واحدة لا يكثرها ويعددها ما لها من الأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة وإن كانت متعددة، وهذا معنى ما بلغنا عن بعضهم من أنه كان يقرر وحدة الوجود فيه ﷺ وكان بعض أشياخنا ممن جمع بين الظاهر والباطن يومئ إليها فيقول: إذا رأى إنسانا مقبلاً عليه أي إنسان كان مرحبا بالنور المحمدي حتى صار يلقب بهذا اللقب فيقال له: النور المحمدي وكان يشير بذلك إلى أن الأكوان كلها إنما هي مظاهره ﷺ وأنواره المتحدة بالذات، وإن تعددت بالاعتبارات، وأن وجوده إنما هو بوجوده ﷺ وإمداده المستمد من الحضرة العلية التي هي حضرة الأحدية. وفي «الجامع» لأبي عبد الله محمد بن المشري نقلاً عن شيخه أبي العباس التيجاني قال: الحقيقة المحمدية هي الكون بأسره فلو رفع الحجاب لم تر إلا الحقيقة المحمدية بارزة وحدها عليها أفضل الصلاة والسلام انتهى. يريد أنها سارية فيه كسريان الماء في العود الأخضر بحيث لو زال هذا السريان لصار عدما محضا في الحال قبل المآل ولو زالت هذه المظاهر التي هي الحاجبة عنها لم تر إلا هي بارزة وحدها وإلى هذه الوحدة يشير في «الفتوحات» عقب ما مر عنه في الوحدة قبلها بقوله: وهو واحد فما صدر عنه إلا واحد فإنه في أحدية كل واحد وإن وجدت الكثرة فبالنظر إلى أحدية الزمان الذي هو الظرف، فإن وجود الحق في هذه الكثرة في أحدية كل واحد فما ظهر عنه إلا واحد، فهذا معنى لا يصدر عن الواحد إلا واحد ولو صدر عنه جميع العالم لم يصدر عنه إلا واحد فهو مع كل واحد من حيث أحديته، وهذا لا يدركه إلا

أهل الله، وتقوله الحكماء على غير هذا الوجه وهو مما أخطأت فيه، انتهى منه بلفظه.

وقد ذهب الأشاعرة والمتكلمون إلى جواز استناد آثار متعددة لمؤثر واحد بسيط لأنهم قائلون بأن جميع الممكنات المتكثرة كثرة لا تحصى مستندة بلا واسطة إلى الله تعالى مع كونه منزها عن التركيب والحكماء منعوا هذا أعني جواز استناد الآثار المتعددة إلى المؤثر البسيط الواحد الحقيقي من جميع الجهات، وقالوا إنه لا يجوز أن يستند إليه إلا أثر واحد، وقالوا في معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن الحق تعالى ما خلق إلا واحدًا وهو العقل الأول، والعقل الأول أوجد الفلك الأول بمادته وصورته ونفسه الناطقة المدبرة له وأوجد العقل الثاني ثم العقل الثاني أوجد فلكه ومادته وصورته ونفس والعقل الثالث، وهكذا إلى العقل العاشر، ثم خلق العقل العاشر العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة بأنواعها الكثيرة ونفوسها وقواها، وغير ذلك إلى ما شاء الله. هذا ما قالوا، وحمل الأكثرون كلامهم هذا على الظاهر من إثبات فاعل ومؤثر غير الله تعالى عما لا يليق به وحقق المحقق الدواني في بعض رسائله أن تحقيق مذهبهم أنه لا فاعل في الوجود إلا الله تعالى وبين ذلك بالبيان الشافي فلينظر.

وأهل الله تعالى يقولون معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن وجوده تعالى في أحدية كل واحد وأنه مع كل واحد من حيث أحديته كما قاله الشيخ الأكبر، أو أنه ما صدر عن الحق تعالى إلا واحد وهو الوجود المفاض من الذات العلية فيضانا متحدا والعقل الأول وغيره من سائر الموجودات سواء في هذا الوجود المفاض كما قاله غيره.

وقال العارف الجامي في «الدرة الفاخرة الملقبة بحط رحلك» في ترجمة القول في صدور الكثرة عن الوحدة: الظاهر أن الحق ما ذهب إليه الحكماء من امتناع صدور الكثرة عن الواحد الحقيقي ولذا وافقهم الصوفية المحققون في ذلك لكن خالفوهم في كون المبدأ الأول كذلك فإنهم يثبتون له تعالى صفات ونسبا تغايره عقلاً لا خارجا كما سبق فيُجَوِّزُون أن يصدر عنه باعتبار كونه مبدءا للعالم كثرة من حيث كثرة صفاته واعتباراته وأما من حيث وحدته الذاتية فلا يصدر عنه إلا أمر واحد من تلك الصفات والاعتبارات أي وهو نسبة العموم والانبساط للوجود المفاض المعبر عنه بالعما قال وبواسطته يلحقه سائر الاعتبارات وبواسطة كثرة الاعتبارات كثرة وجودية حقيقية انتهى منه بلفظه.

وقال صدر الدين القونوي في رسالة «مفتاح الغيب» في ترجمة فصل شريف يشتمل على علم غزير خفي لطيف ما نصه: الوجود في حق الحق عين ذاته وفي من عداه أمر زائد على حقيقته وحقيقة كل موجود عبارة عن نسبة تعينه في علم ربه أزلا وتسمى باصطلاح المحققين من أهل الله عينًا ثابتة.

وفي اصطلاح غيرهم ماهية والمعدوم الممكن والشيء الثابت ونحو ذلك والحق سبحانه من حيث وحدة وجوده لم يصدر عنه إلا واحد لاستحالة إظهار الواحد غير الواحد وإيجاده

من كونه واحدًا أكثر من واحد لكن ذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على أعيان الممكنات ما وجد منها وما لم يوجد معا سبق العلم بوجوده وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود عند الحكيم المسمي بالعقل الأول وبين سائر الموجودات وليس كما يذكره أهل النظر من الفلاسفة بأنه ما ثم عند المحققين إلا الحق والعالم، والعالم ليس بشيء زائد على حقائق معلومة لله تعالى أولاً كما أشرنا إليه من قبل متصفة بالوجود ثانيا فالحقائق من حيث معلوميتها وعدميتها لا توصف بالجعل عند المحققين من أهل الكشف والنظر أيضًا إذ المجعول هو الموجود فما لا وجود له لا يكون مجعولاً، ولو كان كذلك لكان للعلم القديم في في تغير معلوماته فيه أزلا أثر مع أنها غير خارجة عن العالم بها فإنها معدومة لا نفسها لا ثبوت لها إلا في نفس العالم بها فلو قيل بجعلها لزم أما مساواتها للعالم بها في الوجود أو أن يكون العالم بها محلا لقبول الأثر من نفسه في نفسه وظرفا لغيره أيضًا وكل ذلك باطل لأنه قادح في صرافة وحدته سبحانه أزلا وقاض بأن الوجود المفاض عرض لأشياء موجودة لا معدومة، وكل ذلك محال من حيث أنه تحصيل للحاصل، ومن وجوه أخر لا حاجة إلى التطويل بذكرها فافهم فثبت أنها من حيث ما ذكرنا غير مجعولة وليس ثمة وجودان كما ذكر بل الوجود واحد وهو مشترك بين سائرها مستفاد من الحق سبحانه وتعالى.

ثم إن هذا الوجود الواحد العارض للممكنات المخلوقة ليس بمغاير في الحقيقة للوجود الحق الباطن المجرد عن الأعيان والمظاهر إلا بنسب واعتبارات كالظهور والتعين والتعدد الحاصل له بالاقتران وقبول حكم الاشتراك ونحو ذلك من النعوت التي تلحقه بواسطة التعلق بالمظاهر انتهى المراد منه بلفظه، وقد نقله ببعض حذف منه الجامي في «الدرة الفاخرة».

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» في الكلام على الأمر الوحداني ما نصه: هو المشار إليه بقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝ ﴾ [القمر:٥٠] وأمره الواحد عبارة عن تأثيره الوحداني بإفاضة الوجود الواحد المنبسط على الممكنات القابلة الظاهرة به والمظهرة إياه متعددا متنوعا بحسب ما اقتضته حقائقها المتعينة في العلم الأزلي وذلك لأن الحق من حيث وحدة وجوده لا يصدر عنه إلا واحد لاستحالة إيجاد الواحد من كونه واحدًا ما هو أكثر من واحد إلا أن أرباب النظر العقلي من الفلاسفة يرون أن ذلك الواحد هو العقل الأول وعلى قاعدة الكشف هو الوجود العام وينبغي أن تعلم أنه ليس المراد بالعموم أنه كلي لا يمنع تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه فإن ذلك مما لا يصلح أن يكون موجودًا في الأعيان بل المراد بالعموم اشتراك جميع الممكنات في أنه هو المفاض عليها المضاف إليها ما وجد منها وما لم يوجد مما سبق العلم بوجوده، وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود المسمى بالعقل الأول وبين سائر الموجودات، إذ ليس ثم إلا الحق،

(و) اعلموا أيضًا (أن جمع الكائنات) منه: ماهيات ذهنية، وأشخاص، وأشباح خارجية (حتى الذرة) الواحدة منه الذر، وهو صغار النمل وما شاكلها، منه ما هو صغير جدًّا حتى الجزء الذي لا يتجزأ عند القائل به (لا تخلوا) في ظهورها ودوامها (عن ذلك الوجود) بل هي مرتبطة به ارتباط إيجاد؛ ولذا صح نسبتها إليه (و) اعلموا

والعالم ليس بأمر زائد على حقائق معلومة الحق أولاً متصفة بالوجود ثانيًا انتهى منه بلفظه. وقد تعرض في «جواهر المعاني» في الفصل الثالث من الباب الخامس نقلاً عن شيخه أبي العباس التيجاني لإيضاح هذه الوحدة وبيانها على مذهب القوم وإبطال ما قاله أهل الظاهر من إحالتها وإبطال ما ألزموه لمن قال بها وهو أنها تستلزم تساوي الشريف والوضيع واجتماع المتنافيين والضدين إلى غير ذلك مما قالوه.

وحاصل كلامه أن العالم الكبير كذات الإنسان في التمثيل وهي إذا نظرت إليها وجدتها متحدة مع اختلاف ما تركبت منه في الصورة والخاصية، وما ذكروه لا يلزم لأنه وإن كانت الخواص متباعدة والأحكام مختلفة، فالأصل الجامع لها ذات واحدة كذات الإنسان سواء بسواء وأيضًا فلوحدته وجه ثانٍ، وهو اتحاد ذاته في كونه مخلوقًا لله تعالى وأثرًا لأسمائه وصفاته، فلا يخرج فرد من أفراد هذا العالم عن هذا الحكم وإن اختلفت أنواعه، فإن الأصل الذي برز عنه واحد ووجه ثالث، وهو اتحاد وجوده من حيث فيضان الوجود عليه عليه من حضرة الحق فيضانًا متحدًا، ثم اختلفت خواصه وأجزاؤه بحسب ما تفصل ذلك الوجود فإنه يتحد في عين الجملة ويفترق في حال التفصيل راجع كلامه، وراجع أيضًا كتاب «الجامع» لابن المشري، فإنه تعرض فيه أيضًا لهذه الوحدة وبيانها نقلاً عن شيخه المذكور.

الثالثة: وحدة الوجود الذي به يتحقق حقيقة كل موجود: وهي وحدة الحق سبحانه ومعناها أن الوجود من حيث هو حقيقة واحدة وهي لله تعالى وحده لا مشارك له فيها فهو الموجود على الإطلاق ووجود هذه الكائنات إنما كان باستنادها إليه واستمدادها منه واستنشاقها لروائح الوجود من وجوده وإشراق شعاع وجوده عليها فهي موجودة بهذا الوجود الذي له تعالى لا بوجود آخر ثان فلم تكن غيرا من كل وجه لأن الغير في عرفهم هو الذي يكون له الوجود من ذاته ويتصور أن يكون له بنفسه قوام وهي وجودها ليس من ذاتها ولا يتصور أن يكون لها قوام بنفسها.

وقد قال الشيخ الأكبر في كتاب «التجليات» له: من لم يكن له وجود من ذاته فمنزلته منزلة العدم وهو الباطل قال: وهذا من بعض الوجوه التي بها يمتاز الحق تعالى عن الخلق وهو كونه موجودا أعني وجوده من ذاته انتهى. كما أنها ليست عينًا لما بين التقييد والإطلاق من تقابل التضاد، وعليه فإثبات الوجود لها توهم لأنه يتوهم الجاهل بحالها وحقيقتها أن لها وجودًا وفي الحقيقة ونفس الأمر ما ثم إلا وجوده تعالى لأن به ظهرت الأشياء كلها.

أيضًا (**أن ذلك الوجود**) الحق (**ليس**) هو (**بمعنى التحقيق**) يقال: وجد الشيء إذا تحقق، وأوجده: أثبته وحققه (**ولا هو**) أيضًا (**بمعنى الحصول**) الذي هو مصدر حصّله إذا أوجده، وليس أيضًا عبارة عنه الكون.

والحاصل أن الوجود مشترك بالاشتراك اللفظي بين كونه بمعنى التحقق، وكونه بمعنى الحصول، وكونه بمعنى الكون، وكونه بمعنى الحقيقية الآتي بيانها لا يصح إرادة الأولين (**لأنهما**) كالثالث (**منه المعاني المصدرية**) والماهيات المعقولة والأعيان الثابتة (**فليسا بموجودين في الخارج**) كالثالث (**فلا يصح**) ولا يجوز (**أن يطلق لفظه بهذا المعنى**) أي: بإزاء كل منه تلك المعاني المتقدمة.

(**على الحق**) تعالى (**الموجود**) بتقاديره، وتصاويره (**في الخارج**) والشهادة (**تعالى**) وتقدس (**عنه ذلك**) الإطلاق (**علوًا كبيرًا**) أي: عظيمًا، إذ لو كان كذلك لكان منه جملة الأعيان الثابتة، وهي في نفسها معدومة، وكذلك لا يصح إطلاق تلك المعاني إذا أريد بها التحقيق والحصول والكون في الخارج؛ لأنها حينئذ أعراض ضرورة، وقد تقدم أنه ليس بجوهر ولا عرض، فقوله: ليسا موجودين في الخارج يحتمل أن يريد به أنها منه الأعيان الثابتة منه حيث كونها كالثالث مفهومين كليين شاملين لكل تحقق، وحصول كان ويكون، فيكونان منه الأعيان الثابتة، وسيأتي أنها ما شمت رائحة الوجود، ويحتمل أن يكون المراد بها كالثالث أفرادهما الموجودة في الخارج، وهي أعراض، فلا وجود لهما بأنفسهما أيضًا، فقوله: ليسا موجودين في الخارج يكون معناه: إما رأسًا، فيكون بالمعنى الأول، وإما استقلالاً، فيكون بالمعنى الثاني، هذا إذا أريد بها تلك المعاني، وأما إذا أريد بها ما يراد بلفظ الوجود، فلا نزاع في صحته؛ إلا أنها لم تستعمل في لسان القوم بذلك المعنى، إما لشهرة الوجود، أو لكونه أنص منها، فتعين الرابع، وهو ما أشار إليه بقوله.

(**بل عنينا**) وقصدنا (**بذلك الوجود الحقيقة المتصفة بهذه الصفات**) المغايرة لسائر الحقائق بالشكل والذات (**أعني**) بالصفات (**وجودها**) أي: الحقيقة (**بذاتها**) من غير افتقارها واستنادها إلى مؤثر في وجودها (**ووجود سائر الموجودات**) أي: باقيها (**بها**) أي: بسبب وجودها أي: هي متصفة بعدم الشكل ابتداءً وانتهاءً، وأنها حقيقة جميع الموجودات وباطنها، وأن جميع الكائنات لا تخلو عنها، وأن وجودها بذاتها ووجود سائر الموجودات بها (**وانتفاء غيرها في الخارج**) والشهادة بدونها، بل هو

عدم محض لا وجود له إلا بها (و) اعلموا أيضًا (أن ذلك الوجود) الحق (من حيث الكنه) أي: من جهة كنهه وحقيقته (لا ينكشف) ولا يبدو (لأحد) كائنًا من كان، وإنما ينكشف لا بالكنه كما مر (ولا يدركه) ويحققه (العقل) الروحاني النوراني.

(ولا الوهم) العقل الطبيعي الجسماني (ولا الحواس) جمع: حاسة سواء الظاهرة والباطنة عند القائل بها؛ لأن جميع ما ذكر موجود به معدوم في نفسه، والمعدوم لا يدرك الموجود إذ لا يناسبه، فلا يمكن إدراك (ولا يأتي) لأحد أن يدركه (في) حكم (القياس) اللغوي، وهو حمل أمر على أمر لأمر جامع، ولا العقلي بأنه يرتب قضايا منه أي: شكل لاستخراج مجهول (لأن) المرتب والمرتب، بل (كلهن) من عقل ووهم وحواس وقياس (محدثات) أحدثها الوجود الحق (والمحدث) أي: وشأنه أنه (لا يدرك بالكنه) والحقيقة (إلا المحدث) الذي هو مثله، وأما إدراك المحدث القديم، فلا يتصور فلو قلنا: إن ذاته وصفاته لا يدرك كنهها المحدث لزم أمران: إما قدم المحدث، وإما حدوث الذات والصفات، والكل باطل.

(فتعالى) وتنزه (ذاته) (وصفاته عن المحدوث علوًا كبيرًا) ثم لتعلم إياك أن تطلب الوجود الحق منه حيث الكنه، فيضيع تعبك إذ حقيقته اللا تعين والإطلاق والذات الخالص، ولم يصل إليه أحد، فكيف تروم الوصول إلى ما لا وصول إليه؟! (ومن أراد معرفته) تعالى (من هذا الوجه) أي: منه حيث حقيقته (وسعى) واجتهد (فيه) حق السعاية (فقد ضيع وقته) وأنفق عمره فيما لا يدركه، فيكون كحاطب ليل؛ إذ شأن هذه المرتبة كما قدمنا لا يمكن لأحد الوصول إليها، إذ لو وصل أحد إليها لم يبقَ أحديتها، وقد نبه هو على ذلك بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه:١١٠]، وبقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الزمر:٦٧].

فنبّه العباد تعطفًا منه ورحمة؛ لئلا يضيعوا أعمارهم فيما لا يمكنه حصوله، نعم يمكن الوصول إلى مرتبة الوحدة المسماة بـ«الحقيقية المحمدية» لمن كان على اتباع النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وباعتبار ما قدمنا.

قال الشيخ الأكبر- رحمة الله عليه -: الصحيح أنه لا وصول إلى الله أصلاً، وإنما الجميع سائرون وسيرهم متفاوت أي: على حسب الاستعداد، فبعضهم إلى

مرتبة الوحدة، وبعضهم إلى الواحدية.

(و) اعلموا أيضًا (إن لذلك الوجود مراتب) جمع: مرتبة، وهي كما قيل: أمر اعتباري تعتبره النفس لمن قام به **(كثيرة)** أنهاها سيدي الشيخ عبد الكريم الجيلي إلى أربعين مرتبة[1]، وما في هذه العجالة سبع على طريقة الاختصار **(المرتبة**

---

(١) قال الشيخ البسنوي: واعلم أن المراد من بيان مراتب الوجود بيان انبساط الفيض الوجودي، والتجلي الرحماني الجودي على المراتب العمائية الغيبية والحضرات الإلهية الأسمائية، وإظهار أعيانها من حقائقها وذواتها، وإيجاد المراتب الروحية الفعلية والنفسية والهبائية إلى غاية عالم الأمر، ثم المراتب الخلقية من العرش والكرسي والفلك الأطلس وفلك المنازل الذي هو نهاية عالم الطبيعة النورية وعالم البقاء، ثم خلق الأرض، ثم خلق الماء العنصري، ثم الهواء، ثم النار، ثم خلق السماوات السبع وأفلاكها، ثم خلق الجماد، ثم النبات، ثم الحيوان، ثم الملائكة، ثم الجن، ثم الإنسان وهو آخر المخلوقات، فهذه المراتب الإلهية والخلقية ظهرت وتعينت في التجلي الوجودي، والنفس الرحماني الجودي المنبعث من باطن التعين الأول، وهو أن لا تعين والغيب المطلق، وظهر التجلي وتعين أيضًا في حقائق تلك المراتب، فتعين النفس الرحماني بحسبها وظهرت هي فيه على حسب حقائقها، ولما كان مراد الحق من انبساط النفس الرحماني من باطن التعين الدال على حقائق الممكنات لإيجاد المراتب الوجودية حصول المعرفة الإلهية بالنسبة إلى العبد، وكمال الجلاء والاستجلاء بالنسبة إليه تعالى، وهي الصورة الكمالية الإنسانية، والجمعية الكلية المحمدية التي فيها تظهر تلك الجمعية الذاتية العمائية، وبها يحصل كمال الجلاء والاستجلاء للصورة الأحدية الذاتية؛ فحينئذ يكون لمراتب الوجود اعتبارات ثلاثة:

الأول: نفس المراتب وتعينها، وتميز بعضها عن بعض، فيكون ترتيب المراتب الإلهية والكونية على حسب التجلي الإلهي إلى آخر المراتب وبيانها.

والثاني: اعتبار كيفية امتداد النفس الرحماني والتجلي الوحداني على المراتب الإلهية والكونية، فيكون المراد من المراتب مراتب الوجود العام الممتد من الغيب المطلق إلى آخر مراتب الظهور، وحينئذ لا يكون الغيب المطلق مراتب الوجود لامتداد التجلي العام منه وعدم تعينه فيه، وانبساطه على المراتب الإلهية والكونية. **والثالث:** اعتبار مراتب الوجود المطلق الذي امتد من غيب التعين الأول بالصورة الذاتية التي في باطنه، وعبوره على المراتب الإلهية والكونية إلى بلوغه إلى الصورة الجمعية الإنسانية التي هي آخر المراتب، وحصوله في الصورة الكلية الكمالية المحمدية التي تقابل الحضرة، وتظهر فيها الصورة الأحدية الذاتية، والصورة الجمعية الأسمائية، ويحصل بها وفيها كمال الجلاء والاستجلاء، فباعتبار كون الوجود عين ذات الحق وحقيقته، يجوز أن يكون الغيب المطلق أول مراتب الوجود في حق الحق عين ذاته، لكن المراد من مراتب الوجود مراتب تنزلات الوجود =

الأولى) من السبعة (مرتبة) المسماة **(بأن لا تعين)** أي: عدم التعين.

(و) تسمى أيضًا **(بالإطلاق)** الحقيقي الذي ليس في مقابلته قيد، إذ ما قابل القيد إطلاق مجازي؛ إذ هو في الحقيقة مقيد بكونه عدم القيد (و) تسمى أيضًا **(الذات البحث)** بالتاء المثناة الفوقية أي: الصرف (ولا) نعني بكلامنا أن لا تعين، والإطلاق **(معنى إن قيد الإطلاق)** في قولنا: الإطلاق **(وسلب التعين)** في قولنا: أن لا تعين، ففي كلامه لف ونشر غير مرتب ثابتان وحاصلان **(في تلك المرتبة)**؛ إذ لو كان كذلك لم تكن مطلقة إطلاقًا حقيقيًا (بل) كان (بمعنى) **(أن ذلك الوجود في تلك المرتبية)** المسماة بالإطلاق، وما بعده (منزه) ومقدس **(عن إضافة)** ونسبة **(النعوت إليه)** تعالى، إذ لا ناعت حينئذ، وأنه كان متخلقًا بها في الواقع (و) **كذلك (هو) (مقدس)** منه التقديس، وهو التطير **(عن كل قيد حتى عن قيد الإطلاق)** وما بعده **(أيضًا)** كما تُقدس عنه إضافة الصفات إليه، إذ حقيقته العمى المفسر في الحديث: «**بما فوقه هواء، وما تحته هواء**»[1] يعني: ما فوقه صفة، ولا تحته نسبة، ولا صفة.

(وهذه المرتبة تسمى) أيضًا بالمرتبة **(الأحدية)**[2] ويعبر عنها بالغيب المطلق،

المنبسط من باطن التعين الأول، أعني: أن لا تعين لإظهار الكمالات الأسمائية المستهلكة في الوحدة الذاتية، وحصول كمال الجلاء والاستجلاء بالنسبة إلى حضرة الجمع الإلهي. انظر: [القرى الروحي الممدود شرح نظم مراتب الوجود]، بتحقيقنا.

(١) رواه أحمد في المسند (١٦٦٢٩).

(٢) **الأحدية:** هي اعتبار الذات من حيث لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً ولا شيء إلى الذات نسبة أصلاً، ولهذا الاعتبار المسمى بالأحدية تقتضي الذات الغنى عن العالمين؛ لأنها من هذه الحيثية لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً. ومن هذا الوجه المسمى بالأحدية يقتضى أن لا تُدرك الذاتُ ولا يحاط بها بوجه من الوجوه لسقوط الاعتبارات عنها بالكلية، وهذا هو الاعتبار الذي به تسمى الذات أحدًا كما عرفت، ومتعلقه بطون الذات وإطلاقها وأزليتها، وللأحدية صنوف منها: **الأحدية الذاتية:** هي ما عرفته من اعتبار الذات من حيث لا نسبة لها إلى شيء أصلاً، ولا لشيء إليها نسبة بوجه ولا تُدرك ولا تُحاط بها بوجه، والذات باعتبار هذه الأحدية تقتضي الغنى عن العالمين، **والأحدية الصفاتية:** يعنى بها اعتبار الذات من حيث اتحاد الأسماء والصفات فيها، وانتشاؤها عينها، وهذا الاعتبار يسمى بواحدية الذات أيضًا، وبهذا الاعتبار تتحد الأسماء على اختلافها، ويدل كل اسم منها عليها، وإن فهم منه معنى

وبغَيْبِ الغَيْبِ، وبالذات الإلهية الساذجة، وبمنقطع الإشارات، وبحقيقة الحقائق، وبحضرة الجمع، وبحضرة الوجود، وبمجهول النعت، وقد عجزت العبارات دونها، وانقطعت الإشارات قبل الوصول إلى سرادقات حرمها، وتسمية بعضهم لها بالظلمة معناه: أنها مجهولة منه جميع جهاتها لا طريق إلى معرفتها.

تنبيه: تعريف الشيء بأحد أسمائه جائز إذا كانت له أسماء متعددة كل منها

يتميز به عن غيره من الأسماء، وأحدية الأسماء: هي الأحدية الصفاتية كما عرفت، والأحدية الفعلية: يعنى بها رفع الوسائط في الأفعال، ورؤيتها كلها فعل الحق تعالى وحده، وينبغي أن تعلم أن لهذه الأحدية الفعلية اعتبارين: أحدهما: سقوط اعتبار الوسائط، وهذا حال المُسْتهلكين، وثانيهما: اعتبار الأحدية المشهودة لصاحب مقام الأكملية التي باعتبارها يكون المراد برفع الوسائط، التمييز بجهة انتساب الفعل إلى الحق عن جهة انتسابه إلى الخلق؛ لأن المراد برفع الوسائط في نظر الكامل سقوط اعتبارها؛ لأن ذلك حال المستهلكين كما عرفت، أحدية الجمع: ويقال: حضرة أحدية الجمع، ومرتبة أحدية الجمع، والمراد بذلك: أول تعينات الذات، وأول رتبها الذي لا اعتبار فيه لغير الذات فقط كما هو المشار إليه بقوله ﷺ: «كان الله ولا شيء معه» وذلك لأن الأمر هناك؛ أعني: في مرتبة أحدية الجمع وحداني؛ إذ ليس ثمّ سوى ذات واحدة مندرج فيها نسب واحديتها التي هي عين الذات الواحدة، فهذه النسب وإن ظهرت بصور الأوصاف في المرتبة الثانية التي هي حضرة تفصيل المعلومات وتميزها، إنما يجمعها وصفان هما: الوحدة والكثرة، ولكونهما صورتي نسبتين من نسب الذات الجامعة المجتمعة غير المفرقة، والمتفرقة لم تكن التفرقة الحاصلة بهذين الوصفين تفرقة حقيقية في نفس الأمر، فتصير تلك التفرقة مشتتة لشمل جمعية الذات؛ لأنهما نسب الذات في أول رتبها المحكوم فيه بنفي الغير والغيرية هناك، فهي؛ أعني: تلك النسب والإضافات أوصاف محكوم بالتفرقة بينها وبين الموصوف بها في الرتبة الثانية، فهي من حيث باطنها الذي هو شؤون الذات هي عين الذات لا غيرها؛ إذ لا غيرية ولا مغايرة هناك؛ لأنها ليست هي، ثمّ أوصافًا للذات، بل هي عين الذات، فهذا هو مقام أحدية الجمع الذي لا تصح فيه رؤية تفرقة بين الذات من حيث تعينها، وبينها من حيث إطلاقها، أو قل بينها من حيث حقيقة الحقائق، وبينها من حيث التجلي الأول لعلو هذا المقام الذي هو مقام أحدية الجمع، وفرقيته على جميع مراتب التفرقة فرقية بها يصير الوصف والموصوف، أو قل الذات وشؤونها عين ذات واحدة بلا مغايرة ولا غيرية؛ ولهذا كان من ترقى سره عن التأثر بمراتب التفرقة والتقييد بثمراتها، والانحجاب برؤيتها إلى حضرة أحدية الجمع عند تمام حياته الحقيقية، وعن جميع أحكام الكثرة والغيرية لم يبقَ من حقيقته شيء سوى هذه الحقيقة الأحدية.

يدل عليه، ولما كانت هذه المرتبة مجهولة لكل أحد معروفة بين القوم بأسمائها عرفها بما ذكر (و) هذه المرتبة (هي كنه الحق سبحانه وتعالى) وحقيقته؛ ولذا كانت مجهولة منه كل وجه (و) لذا (ليس فوقها مرتبة أعلى) منها (بل) كان (كل المراتب تحتها) أي: أدنى منها.

(والمرتبة الثانية) منه المراتب السبعة (مرتبة التعين الأول) والتجلي الأول (وهي عبارة عن علمه تعالى) كل موجود منه (ذاته وصفاته ولجميع الموجودات) علمًا فعليًا (على وجه الإجمال) لا التفصيل أي: (من غير امتياز) وافتراق (بعضها عن بعض) فيصدق على كل أنه عين الآخر؛ ولهذا سماها بعضهم بمرتبة الهوية؛ لكونها غيب الأسماء والصفات في الشأن المخصوص بالذات (وهذه المرتبة تسمى) بين القوم (بالوحدة) لعدم التمييز والافتراق، لا بمعنى أن المخلوقات ذوو وجود حالين في الذات كلا، بل بمعنى نشو إرادة الخلق لهم، فهم متحدون بها اتحاد قصد وعزيمة، إذ لا وجود لأحد حينئذ غير كونه معلومًا علمًا فعليًا كما مر، وتسمى أيضًا هذه المرتبة بالعلم المطلق بالشأن الصرف وبالعشق المجرد عن نسبة العاشق والمعشوق (وبالحقيقة المحمدية) المنسوبة إلى محمد ﷺ التي هي فلك الولاية ومقام التقدير، وسبب نسبتها إلى النبي ﷺ ما نقله القسطلاني في «المواهب» أن عبد الرزاق روى بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ قال: قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء قال: **«يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جني ولا إنسي، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السموات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة، ومن الثالث نور ألسنتهم وهو التوحيد لا إله إلا الله**

محمد رسول الله»[1].

فلما كان ﷺ هو أول وجود في التعين الثاني علم أنه أول مراد في التعين الأول، فالله تعالى كما قال الغزالي: يقدر ثم يوجد على وفق التقدير فهو ﷺ الأب الأكبر كما مر وتحرر[2].

---

(١) روي في الجزء المفقود من مصنف عبد الرازق حديث رقم (١٨)، والمطبوع حديثًا بدمشق، وهو حديث صحيح، وقد أورده الشيخ الأكبر قدس سره في كتابه تلقيح الأذهان (مخ بدار الكتب ١٧أ) بنفس اللفظ، وأخرجه بمعناه الخركوشي في «شرف المصطفى» (٧٠٣/١) عن علي كرم الله وجهه، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٣١١/١)، فقال: رواه عبد الرازق بسنده عن جابر بن عبد الله ﷺ. والقسطلاني في المواهب اللدنية (٧١/١)، وقد أفرد الكثير من علماء الإسلام كتبًا خاصة في إثبات أوليته ﷺ وأنه منه خلق الله العوالم بأسرها منها: كتاب «أسبقية النور المحمدي» للعارف سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني ﷺ، وكتاب «صلاة الصفا في نور المصطفى» ﷺ لإمام أهل السنة العلامة أحمد رضا خان القادري ﷺ، وكتاب «جلاء الصدور بأولية النور» للشيخ علي السلاموني، وكتاب «نور البدايات وختم النهايات» للشيخ عيسى بن مانع الحميري، وغيرها الكثير؛ فضلاً عن مباحث كثيرة في جُل كتب الشمائل، وبينوا وجه الجمع بين الأحاديث الواردة في الأولية، ومن كلامهم: أن الأولية نسبية فكل شيء أول بالنسبة لما جانسه أو شابهه، ونور سيدنا ومولانا ﷺ هو الأول في الخلق على الإطلاق.

(٢) أولية سيدنا ومولانا ﷺ ثابتة بدلائل من الكتاب والسنة المطهرة، وقد أُفرِدَت فيها جملة من المصنفات - فضلًا عما هو مبسوط في كتب الشمائل والسير - منها: «أولية النور المحمدي»، «رسالة في أبوته ﷺ للمؤمنين [ط. العلمية بيروت]» (كلاهما للعارف المحمدي الشهيد سيدي أبي الفيض محمد بن سيدي عبد الكبير الكتاني ﷺ)، وكتاب «نور البدايات وختم النهايات» للشيخ عيسى بن مانع الحميري، وكتاب «جلاء الصدور بأولية النور» للشيخ علي السلموني المصري، وشرح أنوار النبي - أنواعها وأسرارها - لابن سبعين - شرح الفقير المزيدي، وغيرها كثير مما قام به الدليل كتابًا وسنة على صحة ما تداولته الأمة من خلق العالم من نور سيدنا ومولانا ﷺ بحيث لا يماري في ذلك إلا جاهل، ولنشرب كأسًا من تلك التسنيمات المحمدية؛ فنقول: العمدة في هذا الباب - شهرة - هو حديث سيدنا جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنه - الذي رواه عبد الرزاق في المصنف في الجزء المفقود منه، ولما لم يكن الحديث موجودًا في النسخ المشهورة من المصنف كان هذا سببًا للطعن فيه والقول ببطلانه، حتى حكم بذلك بعض الحفاظ - مع إثباتهم الأولية المحمدية بغير هذا الحديث - وليس هذا الحال خاصًا بالمصنف بل هذا حال جملة من =

الأمهات الحديثة، وطالما وجد الحديث بسند صحيح فلا داعي من اتّباع قول فلان وفلان، فليس بعد قول من لا ينطق عن الهوى ﷺ قول، وقد أورد على الحديث أربع إشكالات أجاب عنها العلامة الأزهري الشيخ إسماعيل الحلواتي ﷺ في كتابه - الذي يعد من أكبر ما صُنِّفَ في المولد الشريف «مواكب ربيع في مولد الشفيع ﷺ» [ط. دار الكتب العلمية بيروت] بتحقيقنا.

وعن سيدنا ميسرة الفجر ﷺ قال: «قلت: يا رسول الله، متى كنت نبيًّا؟ قال: «وآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» هذا لفظ الإمام أحمد (٤/٥٩)، ورواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/٣٧٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٥٣)، ورواه البغوي وابن السكن، كلهم من هذا الوجه، وصححه الحاكم (٢/٦٦٥)، قال في «الإصابة» (٦/٢٣٩): وسنده قوي، وعن سيدنا أبي هريرة ﷺ «أنهم قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى وَجَبَتْ - أي: حصلت وثبتت - لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» أي: وجبت في هذه الحالة، فعامل الحال وصاحبها محذوفان، رواه الترمذي (٣٥٤٢) وقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

قال في «لسان العرب» (مادة: نبأ): «قال الفرّاء: النبيّ هو من أنبأ عن الله؛ فتُرِك همزه».

قلت: وبهذا المعنى يثبت ما قصدناه من أن الحقيقة المحمدية هي التي كانت تمد جميع أجناس العالم قبل الظهور في العالم الشهادي بالجسم المكرم، وإليه يشير حديث الصحيح (٤٢٩٤)، والإمام مسلم (٣١٧٩): «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» حيث كان المعلم الأوحد والمبيّن والمنبئ عن الله تعالى مكنون العبادة التي خلق من أجلها الخلق، فكانت الدولة دولته، كما كان في الأزل، هذا على الاشتقاق الأول للنبوة.

وعلى الاشتقاق الثاني وهو قوله: «وإن أُخِذَ من النَّبْوَةِ والنَّباوة وهي الارتفاع عن الأرض، أي: إنه أشرف على سائر الخَلْق فأصله غير الهمز» قيل: وهل تكون الرفعة وحيازة الشرف إلا بالعلم بالله تعالى وحيازة أسهم العبودية؟ فكل علم بالله تعالى ظهر في العالم قبل ظهور الجسم المحمدي فمن جلالته ﷺ مستمَد، وعلى أياديه الكريمة خرج. فأثبتت الأحاديث ما قصدناه.

تنبيه: ولا يصح قول من قال لرد مثل تلك الأحاديث حسدًا لمولانا ﷺ على ما أعطاه الله من فضله -: إن المقصود كنت نبيًّا في علم الله؛ فليت شعري فما فائدة التخصيص بالذكر؟ فكل الأنبياء كانوا أنبياء في علم الله تعالى، بل كل الأشياء كانت في علم الله على ما هي عليه في الوجود، فضلاً على أن هذا التأويل يلزم منه المحظور، وهو كون الحق تتجدد له علم بنبوة الفاتح الخاتم ﷺ في الزمان المذكور في الحديث، وهو زمان كون آدم بين الروح والجسد، وهذا اعتقاد فاسد ينافي ما عليه أهل كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

قال في طالعة «المواهب اللدنية»: واختلف هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي

(المرتبة الثالثة) من السبعة (مرتبة التعين الثاني)، والتنزل الثاني (وهي عبارة عن علمه تعالى) كل موجود أيضًا من (ذاته وصفاته) (وجميع الموجودات) ولكن علمًا انفعاليًا.

(على طريق التفصيل و) على طريق (امتيانه) وانفصال (بعضها عن بعض)، فتنتفي العينية، وتثبت الغيرية.

ومنها: تنشأ الكثرة بداية، وفيها تنعدم وتتلاشى نهاية، وفيها تظهر الأسماء والصفات، وكذلك كل مظهر إلهي بالوجود الذاتي لا بوجوده (وهذه المرتبة تسمى بالواحدية والحقيقة الإنسانية) لما مرّ من أن آدم كان فيها جلاء المرآة، فهي حقيقته ومنشأه (فهذه ثلاث مراتب) الأحدية والوحدة والواحدية.

(كلها قديمة)؛ إذ هي صفاته تعالى، فيلزم من قدمه وقدمها، فبجملتها اتصف بالصفات السبعة وبغيرها، فإن قيل: إذا كانت قديمة، فما معنى ترتيبها وتقديم بعضها على بعض مع أنه يلزم منه قدم السابق وحدوث اللاحق؟

قلنا: ليس مقصودنا بهذا التقدم والتأخر باعتبار الزمن حتى يلزم ما ذكرت، وإنما مقصودنا به باعتبار العقل حتى يحصل له التمييز، وانفصال كل مرتبة عن

=

أم لا؟ فقال الحافظ أبو يعلى الهمداني: الأصح أن العرش قبل القلم، لما ثبت في «الصحيح» عن ابن عمر قال: قال ﷺ: «قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء». فهذا صريح في أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، فحديث عبادة بن الصامت ﷺ مرفوعًا: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء» رواه أحمد والترمذي وصححه، وروى أحمد والترمذي وصححه أيضًا من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعا: «إن الماء خلق قبل العرش»، وروى السدي بأسانيد متعددة: «إن الله لم يخلق شيئًا مما خلق قبل الماء» فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوي والماء والعرش. انتهى. وقيل: الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه، أي: أول ما خلق الله من الأنوار نوري وكذا باقيها، وفي «أحكام» ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «كنت نورًا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام»، وانظر تفصيل المسألة في ما أشرنا إليه من المصنفات، وكذا كتب الشمائل، وخاصة «العلم المحمدي» أو«جلاء القلوب» [ط. العلمية بيروت] للإمام محمد بن جعفر الكتاني ﷺ وكذا «المواهب» وشروحها.

الأخرى، فيعتبر أولاً الأحدية، فالوحدة، فالواحدية، ولما استشعر - رحمه الله تعالى - هذا الإيراد أجاب بقوله (والتقديم والتأخير فيها عقلي لا زماني).

فإن قلت: أي عقل عنا قلت الطبيعي الجسماني، لا الملكي الروحاني؟ إذ قد قرروا أنه لا تيه معه، ولا لبس، بل تنكشف به الموجودات عن حقائقها.

(والمرتبة الرابعة) من السبعة هي (مرتبة الأرواح هي عبارة عن الأشياء) جمع: شيء بمعنى اسم المفعول (الكونية) المنسوبة إلى الكون، أو إلى قوله: «كن»؛ إذ هي من الإبداعيات الكائنة بكن من غير مادة، وتولد كأعضاء حينئذ، فهي (المجردة) عن المادة (البسيطة) التي لا تركيب فيها المبهمة في ذاتها، فلا تتميز ولا تدرك إلا بما تحمله من الإدراكات والمعارف (التي ظهرت) وانكشفت باعتبار ما تحمله (على ذواتها وعلى أمثالها) فتعرف نفسها، ويعرف بعضها بعضًا التي توجهت على تدبير الأشياء وأحيانها كتوجه الشمس على ما أشرقت عليه، وقد مرّ أن هذا تعريف للحكماء وبعض الصوفية؛ وأن الجمع ممكن فتفطن.

(والمرتبة الخامسة) من السبعة (مرتبة عالم المثال) ويقال له: العالم المثالي بياء النسبة، أيضًا سُمي بذلك إما لكونه مشتملاً على صور ما في العالم الجسماني؛ ولكونه أول مثال صوري لما في الحضرة الإلهية من صور الأعيان والحقائق (وهي) أي: مرتبة عالم المثال[1].

(عبارة عن الأشياء) الروحانية (الكونية المركبة) من جواهر نورانية شبيهة بالجواهر الجسمانية في كونها محسوسات مقدرات بالجواهر المجردة العقلية في كونها نورانية، فليست بجسم مركب مادي، ولا جوهر مجرد عقلي، بل هي (اللطيفة التي لا تقبل التجزئ) ولا تقبل (التبعيض ولا) تقبل (الخرق و) لا تقبل (الالتئام) لِلَطَافَتِهَا، فعالم المثال برزخ وحدّ فاصل بين الأجسام المركبة المادية، وبين الجواهر المجردة العقلية، فهو غيرهما، إذ كل برزخ بين شيئين لا بد أن يكون كذلك إلا أن له جهتين شبه كل منها ما يناسب عالمه كما مرّ.

واعلم أنه كما يسمى بعالم المثال والعالم المثالي، يُسمى أيضًا بالخيال

---

(١) اعلم أن لعالم المثال مرتبة مرتبة، وهي مرتبة وجود الأشياء الكونية المركبة اللطيفة، التي لا تقبل التجزئة والتبعيض والخرق والالتئام..

المنفصل؛ تشبيهًا له بالخيال المتصل في كونه مادي، وهو عالم يشتمل على الكرسي والسموات السبع والأرضين وما بينهما؛ ولهذا قال أرباب الكشف: إن العالم الحسي بالنسبة إلى العالم المثالي كحلقة ملقاة في بيداء لانهاية لها، فكل ما هو موجود في العالم الحسي موجود في العالم المثالي دون العكس، وأن المثالات المقيدة المعبر عنها بلسان الحكماء بالحس المشترك الكائن في البطن الأول من الدماغ هي أنموذج منه، وظل من ظلاله، خلقه الله دليلاً على وجود العالم الروحاني، بل جعلها أهل الكشف متصلة به، ومستنيرة من اتصال الجدول بالبحر، واستنارة البيت من كوة الضوء، وهو الصراط المستقيم لمن عبر عليه من حيث إنه يصيب، وفي جميع ما يشاهد، ويجد الأمر على ما هو عليه بخلاف ما يشاهد في الخيال المتصل، فإنه يصيب تارة، ويخطئ أخرى، فإن كان أمرًا حقيقيًا أصابه أو غيره، فهو اختلاف صدر من تخيل فاسد، كما تخيل أن للبارئ شريكًا، وغير ذلك مما لا حقيقة له في الواقع على أن الإصابة الخيال المتصل[1]، وخَطَؤُهُ أسباب: إما أسباب الإصابة، فهي التوجه التام إلى الحق والاعتياد بالصدق، وميل النفس إلى العالم الروحاني وطهارتها عن النقائض، وإعراضها عن الشواغل البدنية، واتصافها بالمحامد الإلهية، فهذه الأشياء تُوجب تنورها وتقويها بالتشكيك لا بالتواطؤ على حسب الاستعداد.

---

(١) قال الشيخ الأكبر: فمن لا يعرف مرتبة الخيال فلا معرفة عنده جملة واحدة، وإذا لم يحصل للعارف فما عنده من المعرفة رائحة بل ورد «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» أي: كل شيء أدركتموه في هذه الدار، فهو مثل إدراك النائم، بل هو إدراك النائم في النوم وهو خيال ولا تشك أن الناس في البرزخ بين هذه الدار والدار الآخرة وهو مقام الخيال، فانتباهك بالموت كمن يرى أنه استيقظ في النوم في حال نومه فيقول في النوم: رأيت كذا وكذا، وهو يظن أنه قد استيقظ ويعضد هذا الخبر قوله تعالى في حق الميت: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق:٢٢] أي: فتدرك ما لم تكن أدركته بالموت فهو يقظة بالنسبة لما كنت عليه في حال الحياة الدنيا، ثم إن الميت إذا بعث في النشأة الآخرة يقول: ﴿ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا ﴾ [يس:٥٢]، فكان كونه في مدة نومه كالنائم في حال نومه مع أن الشارع سماه يقظة، وهكذا كل ما تكون فيه لا بدَّ لك من الانتقال عنه، وأطال في ذلك. [مختصر الفتوحات للشعراني] بتحقيقنا لأول مرة.

وأما أسباب الخطأ فهي ما يخالف ذلك من سوء مزاج الدماغ، واشتغال النفس باللذات الدنيوية، واستعمال القوة المخيلة للتخيلات الفاسدة، والانهماك في الشهوات، والحرص على المخالفات، فهي توجب ظلمتها، وازدياد الحجب، وإذا عرضت النفس من الظاهر إلى الباطن بالنوم تتجسد لها هذه المعاني، فيشغلها عن عالمها الحقيقي، فتقع مناماتها أضغاث أحلام لا يعتني بها.

(والمرتبة السادسة) من السبعة: **(مرتبة عالم الأجسام وهي)** بخلاف ما قبلها من كونها **(عبارة عن الأشياء الكونية)** الظاهرة للحواس الظاهرة المركبة من العناصر الأربعة **(الكثيفة التي)** لها جرم يحجب البصر عن إدراك ما وراءها، فهي إذًا **(تقبل التجزؤ والتبعيض)** وتدرك بالحواس الظاهرة **(والمرتبة السابعة)** وهي الخاتمة لهذه المراتب **(المرتبة الجامعة)** لمعاني **(جميع المراتب المذكورة)** سابقًا لا فرق منها بين **(الجسمانية)** منها، وهي قسمان: اللطيفة، وهي مرتبة عالم المثال، والكثيفة، وهي مرتبة عالم الأجسام.

(والنورانية) وهي قسمان أيضًا: مطلقة قديمة، وهي مرتبة الوحدة، ومقيدة حادثة، وهي مرتبة الأرواح المجردة كذا جعل بعض الشراح مرتبة عالم المثال الجسمانية، وفيه نظر يعلم مما تقدم اللهم **(إلا أن يقال: إنه جسم نوري في غاية ما يمكن من اللطافة، وحينئذ يكون حدًّا بين الجواهر المجردة اللطيفة، وبين الجواهر المادية الكثيفة و)** جامعة أيضًا لمرتبة **(الوحدة والواحدية)** القديمتين لما مرّ **(وهي التجلي)** الوجودي والانكشاف **(الأخير)** الذي ليس بعده انكشاف **(واللباس)** الذي ظهر به الحق، وعرفه به الخلق.

ولا يخفى عليك أن تسميته المظاهر لباسات مجاز لا حقيقة **(الأخير)** إذ ما قبلها تجليات ولباسات؛ إلا أن هذا التجلي أظهر وأتم من غيره؛ لشموله جميع ما تقدم **(وهي)** الإنسان المستعد للنقص والكمال أي: كل إنسان، وبه تمت المراتب، وكمل العالم، وظهر الحق سبحانه وتعالى بظهوره الأكمل على حسب أسمائه وصفاته، فهو أنزل الموجودات مرتبة في الوجود، وأعلاها مرتبة في الكمالات:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(فهذه) التي ذكرناها **(سبع مراتب الأولى)** من تلك **(مرتبة أن لا ظهور)** كما مر **(والستة الباقية منها هي مراتب الظهور)** فمرتبة الوحدة تظهر بالحقيقة

المحمدية[1]، والواحدية بالحقيقة الإنسانية، ومرتبة الأرواح، وعالم المثال الأجسام والجامعة لجميع المراتب ظاهرة بنفسها، فهذه الستة هي مراتب الظهور (الكلية و) لكن الأخيرة منها (أي من المراتب) أعني بها (مرتبة الإنسان إذا عرج) الإنسان بهمة

(١) قال الأستاذ البكري: (الحَقِيقَة) على وزن فعيلة، وهي اسم لما أريد به ما وضع له مشتقة من حق الشيء، إذا ثبت بمعنى فاعله، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية كما في العلامة لا للتأنيث كذا في «التعاريف». والمراد بعلوم الحقيقة: علوم حقائق الأشياء المشار إليها بحديث: اللهم أمر الأشياء كما هي عليه عيانًا، وعلوم الحقائق هي أعلامًا تدركه الخلائق؛ ثم أطلق علم الحقيقة في أكثر المواطن من حيث الإطلاع على علم الباطن، ولما سأل رابع الخلفاء ﷺكميل بن زياد عنها ليفهم المراد منها، قال له مالك: والحقيقة قال: أوَلَسْتَ صاحب سر قال: بلى؛ ولكن ترسخ عليك مما يطفح عليّ قال: ومثلك نجيب سائلاً، فقال ﷺ: الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة.

فقال: زدني فيه بيانًا، فقال: محوًا لوهم مع صحو العلوم، فقال: زدني فيه بيانًا، فقال: نور يشرق من صبح الأزل، فتلوح على هياكل أهل التوحيد آثاره، فقال: زدني فيه بيانًا، فقال: أطف السراج؛ أي: سراج الاستفهام فقد طلع الصبح؛ أي: صبح الأعلام.

وقال سيدي محيي الدين - قدس الله سره - في الباب٦٤ من «فتوحاته المكية» في معرفة الحقيقة: وهي سلب أوصافك عنك بأوصافه؛ لأنه الفاعل بك فيك منك، لا أنت ما من دابة في الأرض إلا هو أخذ بناصيتها:

إن الحقـيقة تعطـي واحـدًا أبـدًا ... والعقـل بالفكـر ينفـي الـواحد الأحـدا
فالـذات لـيس لـه شـان فيـشفعها ... والكـون يطلـب مـن آثـاره العـددا
والكـل لـيس سـوى عـين محققـة ... لا أهـل فـيها ولا أبـا ولا ولـدا

اعلم أن الحقيقة هي ما هو عليه الوجود بما فيه من الخلاف، والتماثل والتقابل إن لم تعرف الحقيقة هكذا وإلا فما عرفت، فعين الشريعة عين الحقيقة والشريعة حق، ولكل حق حقيقة؛ فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما يترك في الشهود منزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في الباطن كما هو في الظاهر من غير مزيد؛ حتى إذا كشف الأمر لم يختل الأمر على الناظر؛ ثم قال: فما ثم حقيقة تخالف شريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه؛ فالشرع ينفي ويثبت فيقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، وهو قول الحقيقة بعينه؛ فالشريعة هي الحقيقة، انتهى. وقلت في معنى حروفها:

حـاء الحقـيقة تحقـيق وإتقـان ... والقاف قلب صفاء ما فيه من سلوان
والـياء سـر عبـر الحـب مجـتهدًا ... والقـاف قهـر الهـوى إذ ذاك فـتان
والهـاء هجـر لمـا يقـضي المتيم عـن ... أحـبابه فقـد غيـر الحـب وجـدان

أنيته، وقدرة مثبتة: فغاب عن شهود صورته الظاهرة، وكذلك الباطنة بشهوده مَغْنِيًّ أن صورته على كل حال، وكذا صور غيره من أفعال موجده الناشئة عن قدرته القديمة بمقتضى مشيئته، ثم استهلك بتقربه بقرب الفرائض (**وظهرت فيه جميع المراتب مع انبساطها**) فيه وفي غيره مما شاكله (**ويقال له**) أي: لذلك الإنسان في عرف القوم (**الإنسان الكامل**) لاتصافه بأوصاف الكمال، وظهور الكمال فيه (و) هذا (**العروج والانبساط**) على الجزئيات (**على الوجه الأتم الأكمل كأنه في نبينا محمد ﷺ ولهذا**) أي: لكون عروجه على الوجه الأكمل.

(**كأنه**) ﷺ (**خاتم**) بفتح التاء بمعنى «الآلة»، وكسرها بمعنى «اسم الفاعل» (**النبيين**) والمرسلين، إذ مدار الختم على الأكملية؛ إذ الشيء قبل كماله لا يختم عليه عادة، فمقام النبوة المحمدية هو مقام الختم، ومقام الأكملية في مقام النبوة، وكذلك مقام ختم الولاية هو الأكملية في مرتبة الإنسان الكامل، فمن كان من الأولياء عروجه على هذا الوجه، فهو خاتم الأولياء؛ إذ هو تابع في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، والتابع مكتسب من المتبوع.

(و) اعلموا أيضًا (**أن**) جميع (**أسماء مرتبة الألوهية**) وهي الأحدية، والوحدة، والواحدية، وأسماؤها هي التسعة والتسعون المبسوطة في غير هذا المحل، وأنه جاز إطلاق بعضها على أسماء مراتب الكون بالاشتراك اللفظي والتجوز كالمصور والمعطي والمانع وغيرها، وتفرق حينئذ بالإضافة والإسناد إلا أنه (**لا يجوز**) لأحد (**إطلاقها على مراتب الكون والخلق**) أي: على أسمائها، وهي مرتبة الأرواح وعالم المثال والأجسام والإنسان (**وكذا لا يجوز**) لأحد العكس، وهو (**إطلاق أسماء مراتب الكون والخلق على مرتبة الألوهية**) وما ورد من ذلك، فهو مجاز لا حقيقة كاليد والوجه تحمل على الغاية، قال شيخنا: وذلك لحفظ سور الشريعة، وهذا هو الفرق بين الصديق والزنديق، فافهم انتهى.

(و) اعلموا أيضًا (**أن لذلك الوجود**) الحق (**كمالين**) اتصف بهما من الأزل، فهما قديمان لا حادثان مكتسبان من كون (**أحدهما كمال ذاتي**) منسوب إلى ذاته تعالى، وقدمه ذكرًا وتعريفًا؛ لتقدم الذات المنسوب إليها على غيرها (**وثانيها كمال أسمائي**) منسوب إلى أسمائه تعالى.

وقياس اللغة أن يقال: اسمي إلا أنها لما كانت بأسرها كمال له تعالى كانت

صيغتها مطلوبة، فأشبهت المفرد، أو أنه لا يجب تجنب اللحن في المحاورات، واختار ذكر الأسماء على الصفات؛ لأنها في عرف الشرع أسماء، وإن تضمنت وصفًا.

قال في «المواقف»: اعلم أن الاسم إما أن يؤخذ من الذات، أو من جزئها، أو من وصفها الخارجي، أو من العقل، ثم قال: وأما المأخوذ من الجزء فمحال عليه لما بينا أن الوجوب الذاتي ينافي التركيب، وأما المأخوذ من الوصف الخارجي فجائز، ثم هذا الوصف قد يكون كالعليم، وقد يكون إضافيًا كالماجد بمعنى العالي، وقد يكون سلبيًا كالقدوس انتهى.

ولهذا لم يرد في الكتاب والسنة إلا ذكر الأسماء والصفات إنما تثبت بالإجماع، وهو مصادر لا أسماء، وهي: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام (**أما الكمال الذاتي**) فيه لف ونشر مرتب (**فهو عبارة عن ظهوره تعالى على نفسه**) فلم تخف عليه نفسه بالاتفاق خلافًا لمن شذّ، وهو بعض المبتدعة حيث ذهب إلى أن الله تعالى لم يعلم نفسه، واستدل بأن العلم أمر إضافي، فلو علم ذاته لكانت ذاته مضافة إلى نفسه، وإضافة الشيء إلى نفسه محال، قيل له: ذاته تعالى من حيث إنه عالم مغاير له من حيث إنه معلوم، وهذا القدر من التغاير يكفي في هذه الإضافة، فقال: صيرورة الذات عالمة ومعلومة يتوقف على قيام العلم، وهو موقوف على المغايرة، والمغايرة إن كانت موقوفة على صيرورة الذات عالمة ومعلومة يلزم الدور.

فنقول له: قولك العلم أمر إضافي ممنوع، بل هو صفة ذات نسبة، ونسبة الذات إلى الصفة ممكنة سلمنا ما ادعيته، لكن لا نسلم منع كون النسبة إلى الذات نسبة علمية، كيف وأحدنا يعلم نفسه سلمنا مطلقًا! ولكن نثبت المغايرة بوجه آخر وهو صحة العالمية والمعلومية، وذلك لا يتوقف على قيام العلم، فلا يلزم الدور (**بنفسه**) فقط من غير اعتبار أمر خارج من صفة أو اسم؛ لأنه تعالى نور، والنور مظهر غيره، فكيف لا يكون مظهر النفسية (**في نفسه**) لا في غيره من التعينات الخارجية (**لنفسه**) لا لأجل غيره من العلل والأغراض؟ إذ هذا الظهور لا لعلة، ومذهب الأشاعرة، وهو الحق أن أفعاله لا تعلل لشيء من الأغراض والعلل الغائية كما برهن عليه في الكلام (**بلا اعتبار الغير**) فيه (**و**) لا اعتبار (**الغيرية**) فظهر على

نفسه بنفسه في نفسه لنفسه، لا ظهوره على غيره، ولا لأجل غيره حتى يثبت الغيرية، وهي نسبة بين المتغايرين. فقوله: بلا اعتبار..إلخ تصريح بما علم التزامًا.

(والغني المطلق) الحقيقي (لازم لهذا الكمال) ملازمة اقتضاء، إذ كم كان شأنه ذلك، ويكون في ظهوره محتاجًا إلى شيء بل كل شيء مشاهد له ومعلوم عنده علمًا عينيًا؛ ولذا قال: (ومعنى الغني المطلق مشاهدته) تعالى: (في نفسه جميع الشؤون) والأمور (والاعتبارات) التي اعتبرها من الصفات والأسماء (الإلهية و) كذلك الاعتبارات (الكيانية) المنسوبة إلى الكيان المرادف للكون من الأرواح وعالم المثال والأجسام والإنسان، فهو مشاهد لها (مع أحكامها) فأحكام الإلهية كونها صفات وأسماء جلال أو جمال، وكونها قديمة، والكيانية كونها حسنة أو قبيحة شرعًا أو عقلاً، وكونها حادثة.

(و) مشاهد لها أيضًا مع (لزومها) كالارتباط بين الإلهية والكيانية بالخالقية والمخلوقية والقادرية والمقدورية (و) مشاهد لها مع (مقتضياتها) أيضًا كتأثير الإلهية وتأثير الكيانية إلا أن تلك المشاهدة (على وجه كلي) شامل لها جملة واحدة (جملي) لا تفصيلي خارجي، وهذا إنما يكون في الوحدة كما تقدم، وأما في الواحدية، فالمشاهدة فيها علمًا تفصيليًا كما مر، وذلك (لاندراج الكل من) الشؤون والاعتبارات الإلهية والكيانية مع أحكامها ولوازمها ومقتضياتها (في بطون الذات) وغيبه (ووحدته) أي: الذات والتذكير تأدبًا، فكلها اعتبارات محضة لا وجود لها بأنفسها، ولا ذات لها ولا جرم، بل هي محض غيب مندرجة في وحدته. (كاندراج جميع الأعداد) جمع عدد، وهو ما ساوى نصف مجموع حاشيته كالثلاثة، فإن فوقها أربعة، وتحتها اثنان، ومجموع الحاشيتين ستة، فالثلاثة مساوية لنصف هذا المجموع، وبهذا يعلم أن الواحد ليس بعدد مع أن الأعداد كلها مندرجة (في الواحد العددي) الذي تنشأ منه الكثرة فيها من حيث أن كل فرد منها هو عين ذلك الواحد تجلى، وانكشف في مرتبة اعتبارية غير الرتبة الأولى، فالواحد كثير بمراتب الأعداد، وهو لم يخرج عن وحدته مع تلك الكثرة الاعتبارية، فكذلك الشؤون في الوحدة وما بعدها اندرجت في غيب الذات ووحدته، وكاندراج المعاني في اللفظ الواحد المشترك، فإن ذلك اللفظ إذا أطلق على كل معنى هو اللفظ الأول إلا أنه تجلى في رتبة اعتبارية غير الأخرى، (وإنما سميت) مشاهدته تعالى جميع الشؤون

والاعتبارات..إلخ.

(**غني مطلقًا**) عن اعتبار الغير والغيرية (**لأنه تعالى بهذه المشاهدة**) المتعلقة بالشؤون وما بعدها (**مستغنٍ عن ظهور العالم**) وهو ما سواه وتجسمه وإبرازه (**على وجه التفصيل فلا حاجة له تعالى**) حالة حصول المشاهدة المذكورة (**إلى**) إبراز (**العالم وما فيه**) من التجسم وما يتبعه، وذلك (**لأن مشاهدة**) الحق (**جميع الموجودات حاصلة له تعالى عند اندراجه الكل في بطونه**) وغيبه (**ووحدته**) **فهو** مستغنٍ عن ظهوره، وإلا لزم افتقاره، وهو باطل لثبوت غناه على أن الافتقار آية الحدوث، فإن قيل: إبرازه إلى الشهادة، قلت: تفضلاً منه وتكرمًا: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٣]، فيثيب الطائع بمحض فضله، ويعاقب العاصي ببحث عدله.

(**وهذه المشاهدة**) التي ذكرناها (**تكون شهودًا غيبيًا**) أي: مشاهدة غيبية لما مر في مرتبتها أن العلم فيها للذات والصفات، وجميع الموجودات على وجه الإجمال من غير امتياز بعضها عن بعض، فهي إذًا تكون غيبية المشهود والمعلوم في الشاهد والعالم وعدم تمييزه عنه، وتكون أيضًا شهودًا (**علميًا**) فعليًا كما مرَّ، وذلك (**كشهودك المفصل**) من كل شيء (**في المجمل**) منه حال إجماله كشهودك السرير والباب مثلاً في الخشب (**وكشهودك**) العدد (**الكثير في الواحد**) حال وحدته كما مرَّ في الاندراج.

(**و**) كشهودك (**النخلة مع الأغصان وتوابعها**) من عرجون وغيره (**في النواة الواحدة**) حالة كونها نواة، فالكل يقال له: شهود غيبي علمي، فالمفضل عين المجمل، والواحد عين الكثير لتكراره، والنواة عين النخلة؛ لكونها أصلها ومنشأها إلا أن ذلك في علم العالم به لا في الخارج (**وأما الكمال الأسمائي**) الذي نسب إلى أسمائه تعالى (**فهو**) في مرتبة التعين الثاني؛ إذ هو (**عبارة عن ظهوره تعالى على نفسه**) بغيره وعبارة أيضًا (**من شهود ذاته**) العلية (**في التعينات**) التي عينها وقدرها (**الخارجية**) عن الحضرة الإلهية (**أعني**) بها كل (**العالم و**) جميع (**ما فيه**) من كل كوني.

(**وهذا الشهود**) أي: شهود ذاته في التعيينات الخارجية (**يكون شهودًا عيانيًا**) ومعاينة، وعلمًا انفعاليًا (**عينيًا**) لا غيبيًا؛ بل هو (**كشهودك المجمل**) من كل شيء

(في) الشيء **(المفصل)** حال تفصيله **(و)** كشهودك **(الواحد في)** العدد **(الكثير)** حال كثرته **(و)** شهودك **(النواة في النخلة وتوابعها)** حال كونها نخلة، إذ المجمل ظاهر في كل فرد من أفراد تفصيله، والواحد ظاهر في كل مرتبة من أعداده من الكثير، والنواة ظاهرة في كل جزء من أجزاء النخلة إذا اعتبرت أن النخلة منشأها النواة[1].

(وهذا الكمال الأسمائي) مخالف للكمال الذاتي، إذ هو **(من حيث التحقق)** وثبوته للذات العلية **(والظهور موقوف على وجود العالم وما فيه)** في الخارج **(لأن معناه السابق)** الذي قدمناه **(لا يحصل إلا بظهور العالم على وجه التفصيل)** لا الإجمال، إذ معنى مشاهدته ذاته في التعينات الخارجية لا يُتصور إلا بإبرازها، وفي هذا الكمال ظهر تأثير الصفات في الخارج.

(و) اعلموا أيضًا **(أن ذلك الوجود)** الحق **(ليس بحال في)** شيء من **(الموجودات)** الكونية، بل الحلول عليه محال، إذ لو جوزناه لانقلب الواجب ممكنًا، والممكن واجبًا بيان أن المتمكن مفتقر إلى المكان، والمكان سابق عليه

(١) اعلم أن أرباب القلوب المحققين إمدادهم واغترافهم من باب الشهود، وسر الشهود لا يطلع عليه غير أهله، ولا تزال أرواحهم مسافرة إلى الحضرة المقدسة إليها يأوون، وفيها يسكنون، ولما ذكرنا سفر الروح من الخلق إلى الحق الصرف، فما بقي للغير لا عينًا ولا أثرًا، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[غافر:١٦] فلما طلعت شمس الذات الأحدية غربت مظاهر الخلق في شمسها، فكان نظرهم إليها، وهم في ظلها متنعمون، وقوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[النور:٣٥] وهو سر خفي، وفي الحديث الصحيح: «**لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن التقي النقي**»، وقلب المؤمن عرش الله فحكم باب الجمع شيء واحد، وبيان مراتب الأسرار لا يحتاج إلى تبيين وتعيين، وما يظهر من التجلي يكون فيه الموجب من الفيض الأقدس الشامل لصفة الكمال، وهو المقام الأعظم الفائق على أبناء جنسه، فالولي هو الفاني به، وليس المراد بالفناء انعدام العبد مطلقًا، بل المراد فناء جهة بشريته؛ لمقابلته ومواجهة الحقيقة الربانية، ولا يحصل ذلك إلا بالتوجه التام إلى قبلة وجه الحق، فصار العبد لا يزال طالبًا ومطلوبًا، وإذا صح له الفناء الكلي شهد الحق سبحانه وتعالى، وخاطبه بمخاطبة العارفين به، فهم لازمون الباب، وهو باب واحد، ولا يلتفتون إلى كثرة الأبواب، والجمع يكون واحد لا غير، وهو البقاء بالله، والمراد: التقوى، وهو العمدة ولا يرتفع اليقين إلا بالتقوى. قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣] وهي درجة عالية جامعة لفنون علوم الطريقين..

والمفتقر إليه، والسابق مقدم على المفتقر، واللاحق والافتقار واللحوق آية الحدوث الذي هو آية الإمكان، والتقدم والسبق آية القدم الذي هو آية الإيجاب بالذات (و) كذا (لا) يكون (متحد بها) أي: الموجودات الكونية، بل الاتحاد بشيء منها أيضًا محال (لأن) كلامه (الحلول والاتحاد لا بد لهما من وجودين) وجود الحال ووجود المحل، ووجود المتحد به، والمجموع أربعة (حتى) يمكن (أن يحل أحدهما في الآخر) حلول الظرف في المظروف (و) حتى يمكن أن (يتحد أحدهما بالآخر) اتحاد الهيولي بالصورة بحيث تكون الإشارة إلى كل منهما عين الإشارة إلى الآخر وأنى يمكن ذلك! (والوجود واحد) كما قررنا وحررنا وما عداه عدم محض وجد به ولا يتصور هناك وجود آخر لا قديم ولا حادث، أما الحادث فلسبقه بالعدم، ثم اتصافه بالوجود، فنقول: إما أن يكون اتصافه بنفسه وهو محال؛ إذ الشيء لا يكون سببًا لنفسه، ولو جاز لزم ما تقدم الشيء على نفسه ضرورة تقدم السبب على المسبب أو بغيره، فنقل الكلام إليه، فإما أن نرجع ويلزم لدور أو لا، فيتسلسل أو ينتهي إلى قديم، وهو المطلوب.

وأما القديم فلأنه لو كان مثل وجوده تعالى أن يكون إلهًا وهو محال، إذ الدليل الخارجي وهو قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء:٢٢]، قطع عرق الشركة، فتعين أن لا وجود قديم غيره تعالى، فهو واحد (لا تعدد له أصلاً) لما برهنا عليه (وإنما التعدد) حاصل (في الصفات) الاعتبارية التي اعتبرها، والتعدد الاعتباري لا يوجب تعددًا حقيقة (على من يشهد به ذوق العارفين) بالله وطباعهم السليمة (ووجدانهم) وإدراكاتهم المستقيمة.

(و) اعلموا أيضًا (أن العبودية) وهي رضا العبد بأفعال الرب (و) كذلك (التكاليف) من أمر ونهي (و) كذلك (الراحة) في الأولى والأخرى. وكذلك التعب (و) كذلك (العذاب) في القيمة الكبرى، فأما الصغرى فهو ما يجده السالك في بدايته، وكذلك عذاب القبر (و) كذلك (الآلام) الناشئة من فساد المزاج (كلها) إنما (ترجع إلى التعينات) الخارجية التي عينها الوجود الحق، وقدرها.

(و) اعلموا أيضًا (أن ذلك الوجود) الحق هو (محيط) من الإحاطة، وهي اكتناف الشيء من كل جانب (بجميع الموجودات) الكونية، إذ هي مظاهرة كما مر، لكن (كإحاطة الملزوم) كالإنسان مثلاً (باللوازم) من كونه قابل العلم وصنعة الكتابة

وغيرهما، قال بعض العارفين: كالجيم المركب مثلاً مما يكون هيولي لغيره ومادة له، فإنه محيط بالصور التي تظهر منه كالقطعة من الشمع، فإنها كيفما عركت ظهرت منها صورة، فالصورة لازمة لها، وهي ملزومة للصورة، فهي محيطة بالصورة لا أنها مظروفه فيها، والصور ظرف لها؛ لأن تلك لا تزيد ولا تنقص. انتهى.

(وكإحاطة الموصوف بالصفات) كالأعراض اللاحقة للجوهر من صبغ وغيره، فهي كيفيات زائدة عليه لا وجود لها في نفسها، بل الوجود لذلك الجوهر، وهو محيط بها معدومة في نفسها، موجودة بوجوده، ولأمكن انفصالها (لإحاطة الظرف) وهو وعاء الشيء (بالمظروف) الحال فيه على أنها إحاطة حلول - تعالى الله من ذلك - وقد تقدم بطلانه.

(أو كإحاطة الكل بالجزء) أي: جزئه بحيث يصح أن يحمل الكل على جزئه أو العكس، وقد مرَّ بطلانه (تعالى) وتقدس الله (عن ذلك) المذكور من الظرفية والكلية (علوًّا كبيرًا).

(و) اعلموا أيضًا (أن ذلك الوجود) تعالى (كما أنه باعتبار محض) أي: خالص (إطلاقه) ولا تعينه لا باعتبار الوحدة وما بعدها (سار في جميع ذرات الموجودات) الكونية من حيث إنها كما تقدم اعتبارات منه تعالى لا وجود لها في نفسها، ولولا سريان الوجود فيها ما وجدت، وعبر بالسريان مجازًا، إذ حقيقته تقتضي موجودين مستقلين بوجودين، ولا موجود مستقل بوجوده إلا وأحدكما عبر وأبرز نور الوجود أيضًا: (بحيث يكون ذلك الوجود في تلك الذرات) التي قدرها في الوحدة، وأبرزها في الحقيقة الإنسانية.

(عين تلك الذرات) وما عداه من التعينات الخارجية كالجسم، وما يتبعه إعدام لا وجود لها في نفسها، بل به، فالذات واحدة، والإلباس مختلفة، فلا يذهب عليك أن ما يعتقده جَهَلَةُ أهل الطريق من أن التعينات الخارجية التابعة للوجود كالجسم وغيره هو الله - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - حق، بل ذلك كفر - والعياذ بالله -، فإياك أن تعتقد ذلك، بل اعتقدْ أن الوجود واحد، وأنه عين ذات الموجودات إذ لا ذات له غيرها سوى هذه التشكلات، وهي أمور عدمية اعتبرها الحق، وانكشف بها، فلم يبق إلا الوجود، وهو الحق تعالى، والله يتولى هداك.

(كما كانت تلك الذرات قبل الظهور) أي: ظهورها وبروزها في مرتبة الوحدة

والتعين الأول (**في ذلك الوجود عين ذلك الوجود**) من غير تمييز وانفصال كما مر، فلم يحصل التميز إلا بالتعين، وهو عدمي، قال بعضهم: لأنها فيه أعيان عدمية اعتبرها، فعينها بأعيان أرادها وقدرها بمقادير، والمعدومات لا تغير الوجود الحق عما هو عليه، ثم قال: فلم يخرج عن كونها أعيانًا عدمية، وهو لم يخرج عن كونه وجودًا حقًا مطلقًا كيفما اعتبر نفسه، وقال سيدي الجيلي: فكما أن الروح مستوية على البدن من غير تخصيص لها بموضع دون موضع من هيكل الإنسان، كذلك الوجود الساري في الموجودات محيط بجميع العالم مستوٍ على جزئياته وكلياته.

ثم قال: وذلك لمن فهم بغير حلول، فالوجود بأسره للحق انتهى.

وإعادة المصنف لفظ الوجود مظهرًا قول الشاعر:

لـــيلاي مـــنكنَّ أم ليلـــي مـــن البـــشر

(**كذلك الصفات الكاملة**) كذلك الوجود (**باعتبار كليتها**) وكونها أمورًا كلية شاملة لجزئيات صفات الممكنات (و بـ) اعتبار محض (**إطلاقها**) عن التقييد بنوع من أنواع التقييدات الكونية (**سارية**) أيضًا (**في جميع صفات الموجودات**) الاعتبارية، فلا تخلو ذرة من تلك الصفات عن هذه الصفات؛ إذ الصفات الكونية كموصوفاتها أمور عدمية لا وجود لها إلا باعتبار الوجود كما مر سريانًا (**بحيث تكون تلك الصفات الكاملة**) له تعالى الكائنة (**في ضمن صفات الموجودات**) الاعتبارية الكونية (**عين صفات الموجودات**) إذ لا وجود إلا الوجود وصفاته، وما عداه عدم كما مر، فكما أن الوجود سارٍ في تلك الذرات، كذلك صفاته سارية أيضًا في تلك الصفات، فالذْرات والصفات للموجودات أمور اعتبارية، وما ثم إلا الوجود وصفاته (**كما كانت صفات الموجودات قبل الظهور**) والبروز بالوجود (**في تلك الصفات الكاملة له**) تعالى (**عين تلك الصفات**) لا غيرها حيث كانت أعيانًا ثابتة عَيَّنها له، واعتبرها، فحالها قبل الظهور حالها بعده، فالوجود هو الظاهر بالموجودات، وصفاته هي الظاهر بتلك الصفات، وتفطن ما مر عليك من أنه لا يجوز إطلاق أسماء مراتب الألوهية على غيرها ولا العكس، وإن كان في الواقع الكل واحد كأن تتأمل في ذاتك أنها عدم محض قام وتكيف بالوجود، فتعلم أن لا ذات ولا وجود إلا وهو لله لا لك.

ولكن باعتبار الشريعة لا يجوز أن تطلق ذلك؛ إذ هي تكاليف ومن تَبْتَنِي

على التعينات الخارجية، ومن تراه من القوم يطلق ذلك، ويتكلم به، فهو في مقام شطحه، ومع هذا ينبغي لمسلكه أن يعنفه ويغرره، فمرادهم من هذا أنك في حال مراقبتك أن لا تشهد شيئًا إلا هو، إذ الكون وما فيه عدم محض قام به والعدم، لا وجود له في نفسه مع الوجود، فهو حقيقة كل موجود انكشف بهذا الإلباس بلا تغير عما كان عليه، وإذا كان حقيقة كل موجود تعين أن يكون عين ذاته، إذ الحقيقة هي المعبر عنها بهو هو، ولا ذات له إلا الوجود الذي هو الحق وما عداه مما نسميه ذاتًا عدم ظاهر معتبر ومقدر، فباعتباره تثبت الغيرية، وباعتبار الوجود تثبت العينية، وقد أوضحت لك السبيل، والله يتولى هداك.

(و) إذا كان الأمر كما ذكرنا علمت أن (العالم بجميع أجزائه) الظاهرة للبصر والباطنة عنه (أعراض) جمع: عرض، وهو ما يقوم بغيره بمعنى: أن لا قيام له بنفسه، بل وجوده في نفسه هو وجوده في غيره، ولا تتوهم مما فسر علماء النظر العرض بذلك، ومن قولهم: إنه قائم بالجواهر؛ إذ لا ثالث عندهم أن الوجود الحق - تعالى الله عن ذلك - بل الجوهر الذي عندهم هو عندنا في هذا المقام عرض من الأعراض، فلا جوهر عندنا في هذا المقام أصلاً؛ ولذلك قال رحمه الله: (والعروض) ولم يقل: والجوهر (هو الوجود) الحق القيوم الذي قام به كل شيء.

والمراد من قيام الإعراض به حصولها وتكيفها بسببه، فالباء في تفسيرنا العرض للسببية، وهي لا تقتضي التلبس والحلول، فاندفع أشكال بعض الطالبين والحمد لله.

(و) اعلموا أيضًا أن (للعالم) والموجودات الكونية (ثلاث مواطن) جمع: موطن، وهو كالوطن مقام النزول (أحدها) هو (التعين الأول) الذي في الواحدة للوجود الحق بمقتضى علمه الكاشف، وحقيقته المخصصة على طبق علمه، وهو تعين إجمالي له يُأوَّلُ أن يكون اعتبارًا وفرضًا وتقديرًا، وأوليته من حيث عدم سبق تعين عليه، وهو أول كثرة في الوجود وبرزخ بين الحضرة الأحدية الذاتية، وبين المظاهر الخلقية.

(ويسمى) هذا العالم فيه أي: في ذلك التعين (شؤونًا) وأمورًا (ثابتة) في علمه تعالى لا وجود لها كما مر، بل هي كالمعاني (وثانيها) أي: المواطن (التعين الثاني) الذي هو في الواحدية، وهو اعتبار الأول وفرضه وتقديره، وقد مرَّ لك أن الأولية

والثانوية عقليتان لازمتان، فتفطن.

(ويسمى) أي: العالم (فيه) أي: التعين الثاني (أعيانًا) وحقائق (ثابتة) في علمه أيضًا، فهي معلومات أزلية في علمه تعالى (وثالثها) أي: المواطن (التعين) له (في الخارج) وعالم الشهادة ومقام الحدوث (ويسمى فيه) أي: في هذا التعين (أعيانًا خارجية) لكون تعينها في نفسه ظاهرًا في الخارج في ظهور الوجود الحق بها (وأن الأعيان) والحقائق (الثابتة) في علمه تعالى (ما شمت رائحة الوجود) بل ولا تشم، فهي أعدام ثابتة في علمه تعالى غير منفية عنه، إذ النفي عنه هو المستحيل إما لذاته كالشريك والوالد والولد، أو لغيره كالذي لا تتعلق به إرادة، وتسميتها أعيانًا ثابتة باصطلاح أهل الله، وتسمى كلياتها بالماهيات والحقائق، وجزئياتها بالهويات عند أهل النظر، فهي الصور الكلية الأسمائية التي تعينت في الحضرة العلية تعينًا أوليًا كما مرّ، فائضة من الذات الإلهية بالفيض الأقدس والتجلي الأول، إذ به تحصل الأعيان، واستعداداتها الأصلية في العلم، وبالثاني تحصل تلك الأعيان.

وإنما لم تشم رائحة الوجود؛ لأنها صور للأسماء العينية المختصة بالباطن من حيث هو ضد الظاهر، إذ الباطن وجه يجتمع مع الظاهر ووجه لا يجتمع معه، فالذي يجتمع معه هو الممكنات، والذي لا يجتمع معه هو الممتنعات، وهذه هي التي لا يعلمها إلا هو؛ لكونها لا تعلق لها بالخارج من الأكوان، وإليها الإشارة بقوله ﷺ: «أو استأثرت به في علم غيبك[1]»، ولما كانت هذه الأسماء طالبة للباطن هاربة عن الظاهر؛ لم يكن لها وجود فيه، فصورها وجودات علمية ممتنعة الاتصاف بالوجود العيني، ولا شعور لأهل العقل بها، ولا مدخل للعقل بها.

فهذه التي لم تشم رائحة الوجود هي حقائق إلهية من شأنها أن لا ظهور في الخارج، كما أن الممكنات من شأنها الظهور فيه، فهي باعتبار ثبوتها في الحضرة العلمية أزلاً وأبدًا ما شمت رائحة الوجود، وإنما لها مظاهر هي أحكامها وآثارها موجودة في الخارج ليس شيء منها باقٍ في العلم لم يوجد بعد؛ لأنها بلسان استعداداتها طالبة للوجود العيني، فلو لم يعطها الواهب الجواد وجودها لم يكن

---

(١) أخرجه أحمد (١/٤٥٢، رقم ٤٣١٨)، وابن أبي شيبة (٦/٤٠، رقم ٢٩٣١٨)، والطبراني (١٠/١٦٩، رقم ١٠٣٥٢)، والحاكم (١/٦٩٠، رقم ١٨٧٧) وقال: صحيح على شرط مسلم.

الجواد جوادًا، ولو أوجد البعض دون البعض لكان ترجيحًا بلا مرجح، ولما كانت أفرادها ومظاهرها لتوقعها بأزمانها التي يعلم الحق وقوعها فيه كان ظهورها من الغيب إلى الشهادة ظهورًا غير منقطع إلى انقراض الشهادة والنشأة الدنياوية؛ ولذلك كان آدم ﷺ خاتم هذه الخزانة، فإذا أبرزت جميعها وفك الختم؛ إذ لم يبق في الخزانة شيء، واقتضى الأمر قيام الساعة، وإذا كان الأمر كما ذكرنا علمت معنى قوله (**وإنما الظاهر أحكامها**) التي هي جزئيات تلك الكليات؛ إذ منه أحكام الكلي الانطباق على جزئياته التي هي عبارة عما يتميز بعضها عن بعض.

(**وآثارها**) أي: تلك الأعيان الثابتة في علمه تعالى، وهو ما يتأثر عنها في الظاهر من الخواص والأفعال والأقوال والأحوال واللوازم من أزمنته وأمكنته على طبق ما علمه وقدره أولاً، فهي من حيث ذواتها معدودات علمية كما تقدم، ومن حيث أحكامها وآثارها موجودات كونية، فكل شيء في الخارج داخل تحت تلك الأسماء، وإذا علمت ذلك علمت أن تلك الأعيان من حيث إنها صور علمية لا توصف بـ«المجعولية»؛ لأنها معدومات في الخارج، والمجعول لا يكون إلا موجودًا فيه، ومن قال: بـ«المجعولية» أراد بجعلها حدوثها الذاتي التي صارت به أعيانًا ثابتة، فالنزاع لفظي، ثم اعلم أن كل عين من تلك الأعيان كالجنس لما تحتها، وواسطة في وصول الفيض إلى ما تحتها إلى أن ينتهي إلى الأشخاص.

(و) اعلموا أيضًا (**أن المدرِك**) اسم فاعل، وهو من حصل له الإدراك أولاً قبل إدراك الحواس (**هو الوجود وبواسطته يدرك ذلك الشيء**)؛ لأنه هو المعين للأشياء في نفسه لنفسه، فالمدرك لها منها هو وحده، ولكن بواسطة يدرك ذلك الشيء المتصف بالإدراك؛ لأنه نور محض به تدرك الأشياء كلها، ولأنه ظاهر لذاته مظهر لغيره، وهو المنور لسموات الغيوب والأرواح وأرض الأجسام والأشباح بذر النور عليها بعد أن كانت في ظلمة العدم، فاتصاف المدركات بالإدراك بناء على أن إدراكها بواسطة الوجود، إذ هي وجدت به، فالإدراك له، ثم بواسطة تدرك هي، مثال ذلك ما قال (**كالنور**) البصري الشعاعي الذي يخرج من البصر على هيئة شكل مخروط قاعدته سطح المرئي (**مثلاً بالنسبة إلى سائر الألوان والأشكال**) فإن المدرك لتلك الألوان والأشكال أولاً هو ذلك النور، وبواسطته يدركها البصر، ولله المثل الأعلى.

(ولأجل دوام الظهور) يتعين كل متعين منه تعينًا في نفسه بعد تعينه في نفس الوجود (وشدته) وقوته حيث لا مزاحم له في ظهوره، لا يفهم العوام هذا المعنى، ويسندون الإدراك إليهم رأسًا.

(ولا يعلم) حقيقة (هذا الإدراك) الواسطي (إلا الخواص) من أهل الله، وهم والأولياء العارفون به، وخواص الخواص وهم الأنبياء.

(و) اعلموا أيضًا (أن القرب) قال سيدي الشيخ ابن العربي: هو القيام بالطاعة، وقد يطلق على حقيقته: قاب قوسين، وضده البعد، وهو الإقامة على المخالفات، وهو من المصادر التي لا تستعمل إلا بإحدى ثلاث إما «أل»، أو «من»، أو «الإضافة» كاسم التفصيل، والمراد قرب العبد من ربه هو (قربان) أي: منقسم إلى قسمين، ولا يراد أن المطابقة بين المبتدأ والخبر واجبة من كل وجه، وهنا لم يتطابقا؛ لأنا قدمنا أنه من المصادر، ويستوي فيه الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، ولا يرد أيضًا أنه حمل الشيء على نفسه، وهو لا يجوز؛ لأنا نقول: هو كذلك؛ ولكن ما نحن فيه ليس من هذا القبيل، بل قربان معناه نوعان، فلا يتصور فيه حمل الشيء على نفسه، إذ الشيء الواحد ينقسم إلى أشياء متعددة باعتبارات مختلفة، وكذلك يجوز حمل الشيء على نفسه إذا غايرها ببعض الاعتبارات كقوله: أنا أبو النجم وشعرى أحدهما.

(قرب النوافل) جمع: نافلة، وهي ما لم يجب من كل مطلوب (و) ثانيهما (قرب الفرائض) جمع: فريضة من «الفرض»، وهو التقدير سميت بذلك لتقدير الله إياها على المكلف (أما) الأول، وهو (قرب النوافل) (فهو) عبارة عن (زوال) جميع (صفات البشرية) التي تقتضيها عادة البشر وفنائها عن العبد (وظهور صفاته تعالى عليه) أي: العبد، فالتركيب معرف من شيئين: زوال صفات البشر، وظهور صفات الله تعالى عليه بأن تظهر فيه الحياة الأزلية، وتنعدم فيه الحياة الدنياوية إلى غير ذلك من الصفات (بأن يحيي) ذلك العبد من شاء بإحدى الحياتين: الحسية، والعلمية.

(ويميت) من شاء بإحدى الموتتين: الإرادية، والطبيعية، وذلك كائن (بإذنه) تعالى وقدرته وبإرادته ومشيئته التي ظهرت في العبد؛ إذ ورد في الحديث القدسي: «ابن آدم إني أنا الله، أقول للشيء: كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشيء: كن فيكون».

(و) كذلك ذلك العبد (يسمع) من جميع جسده من غير تخصيص بحاسة السمع (و) كذالك (يبصر من جميع جسده) من غير تخصيص بحاسة بصر أيضًا (لا) إن سماعه (من الأذن) فقط (و) كذلك إبْصَارُهُ ليس من (العين فقط) كما هو شأن الطبيعة البشرية (و) كما أنه يسمع ويبصر من جميع جسده.

كذلك (يسمع المسموعات من بعيد) أيضًا من جميع جسده سماعًا لا تقتضيه العادة البشرية كمسيرة مائتي سنة ماضية أو مستقبلة (و) كذلك (يبصر المبصرات من بعيد) أيضًا إبصارًا لا تطيقه عادة البشر، وباقي الصفات (على هذا القياس) الذي ذكرناه (وهذا معنى فناء الصفات) البشرية في صفات (الله تعالى) الأزلية (وهو) أي: الحال الذي شرحناه من زوال الصفات في الصفات (ثمرة النوافل) أي: نتيجتها، وذلك ما سيأتي من حديث قدسي رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال الله ﷻ: «من عادى لي وليًا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به»[1]، [2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨٤/٥، رقم ٦١٣٧) وابن حبان (٥٨/٢، رقم ٣٤٧) والبيهقي (٢١٩/١٠، رقم ٢٠٧٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١).

(٢) فتأمل أيها المخلص الصادق في هذه الطريق، وأقبل بالقلب لتنظر بنوره، وتفهم أن كل شيء يسبح بحمده، وأن الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوة بأحدية ذاته، وإن حصل لك وقفة معنا، فهي تسري لك من كل علم، وتفهم عنك كل فهم، فتعلم في ذلك بعلم من الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر؛ لأن من لاح له من ذلك شيء يصل إلى تلك الحضرة الجامعة في أسرع حال، فيحصل له من النعم ما لا يخطر ببال، فيكون مع العين مشهود، ولا يكون من أهل البين والأين، فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين، وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، فهم الذين تنحت عنهم الحجب، فيكونون في مقام النعم الروحانية والنعم القلبية، فنحن غارقون في بحار شكر النعم، فلله الحمد على ما أولى وأعطى نعم المولى ونعم النصير، فنحن في حقيقة الشكر في العطاء والمنع، فلله الحمد والشكر على دوام الله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ: ١٣]، فكيف نؤدي شكر ما أنعم به علينا من فيض العطاء الواسع الفائض! انظر إلى أعلى مجالس تعريج أرواح الكُمل، إلى أعلى مقامات أهل القرب انتهاؤهم وحقيقتهم، إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، وهي مخاطبتنا لخواص أحبابنا العارفين، أهل رتبة الكمال، وألقى منها المسرات والأفراح. قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾[التوبة: ٢١] وقال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

(وأما الثاني) وهو قرب الفرائض (فهو فناء العبد بالكلية) أي: بالمرة (عن شعور) و(إدراك جميع) ما في العالم من (الموجودات) بل عن العالم أيضًا فناء في الظاهر والباطن (حتى) يغني (عن نفسه) فلا يشهدها إلا عدمًا محضًا، ومجرد اعتبار للوجود كشهوده سائر الموجودات، كذلك (بحيث لم يبق في نظره) البصري والفكري (إلا وجود الحق سبحانه وتعالى)، فيفنى حتى عن إرادته الفناء، وعن شعوره أنه فانٍ، وهو فناء الفناء المفسر بالبقاء الذي هو عبارة عن شهودك ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت:٥٤]، وقد أنكر بعض المحجوبين على القوم في قولهم: فلان في فناء الفناء، وفلان فانٍ، فيقول: كيف يفنى وطول ظله كذا وكذا ذراعًا، ويأكل كل يوم أرطالاً من الخُبْزِ! فيضحك عليهم، فلا تفعل ذلك فتهلك.

(وهذا) الذي شرحناه (معنى فناء العبد في الله تعالى وهو) أي: هذا الحال والمقام (ثمرة) المواظبة على (الفرائض) ولا تحصل هذه الثمرة، ولا ثمرة النوافل إلا بنية التقرب إليه تعالى، كما أشار إليه الحديث السابق لا بِنِيَّةِ كونه عابدًا ناسكًا، وهو في لسان القوم: من يطلب الأجرة على عمله، فقولهم: عابد ناسك ذمّ، كقول العرب: أنت الطاعم الكاسي.

فَضْلِهِۦ ﴾[آل عمران:١٧٠]، وسقاهم من كؤوس خمرة ذاته، وما شهد وعرف كنه ذاته إلا هو، وهو العليم الخبير، وليس هنا منازعة ولا حجب، و: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الحديد:٢١] وذلك ثبت وصح أنهم أهل الحقيقة معدن الكرم والجود في اصطلاحهم، وما أثبتوه وبينوه من هذا العلم اللدني، وهو الاسم الإلهي، وهي العين الواحدة الذي هو الوجود الظاهر، ووجب التعيين لا على التعيُّن، وعلى الظاهر لا على الظاهر، ودل عليه الحديث عن النبي ﷺ فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها»، وهذا الحديث العظيم لا يفهمه أكثر الناس. فلا يفهمه إلا أهل الخصوص في فهم هذا الحديث ودليله، ويفهمه السالك الصادق الواصل إلى الحضرة الأحدية اللطيفة الروحية التي يفهمها العبد الواصل إلى غيب الحق المحيط بالغيوب، وهذا المورد من المعدن المحمدي، فهو لا إله إلا هو، والعجز عن إدراك ذاك إدراك، والعارفون المتلفتون تارة بالروح، وتارة بالقلب، ومن سرت فيه أقبل بصفاته التي هي القدرة والعلم والإرادة والحياة ووضوح العلم بها يكون بالله وهو العلي العظيم.

(و) اعلموا أيضًا (**أن**) العلم (**من القائلين بوحدة الوجود**) منحصر بالاستقراء **في** ثلاثة أقسام، فمنهم (**من يعلم أن الحق سبحانه وتعالى حقيقة جميع الموجودات وباطنها علمًا**) يقينيًا لا ذوقيًا، وشهوديًا، وعلم اليقين، وهو ما أعطاه الدليل للنظر فيه (**ولكنه**) مع هذا العلم اليقيني (**لا يشاهد الحق سبحانه وتعالى في الخلق**)؛ لاقتصاره على مجرد الدليل، ولم ينكشف له الغطاء، فهو معدود من عامة أهل الطريق، وهو مقام الفرق (**ومنهم من يشاهد الحق**) تعالى (**في الخلق**) إلا أنه يكون (**شهودًا حاليًا**) ذوقيًا (**بالقلب و**) البصيرة، فشهوده هذا يقال له: عين اليقين.

(**وهذه المرتبة**) الثانية (**أولى**) من الأولى؛ لكونها ناشئة عن كشف وشهود (**وأعلى من المرتبة الأولى**) وأرفع درجة ورتبة؛ لأن ما تعطيه الأولى علم اليقين، وما تعطيه الثانية عين اليقين كما عرفت، وشتان ما بينهما (**ومنهم**) من (**يشاهده**) (**في الخلق و**) يشاهد أيضًا (**الخلق في الحق بحيث لا يكون أحدهما**) أي: الشهودين (**مانعًا**) وحاجبًا الآخر، بل يشاهد الشهودين معًا (**فهذه المرتبة الأخيرة أولى من**) تينَكِ (**المرتبتين السابقتين**)؛ لأن مآلها وحاصلها شهود بالحق بلا خلق، ولأنها مرتبة الكمال؛ لأن شهود الثالثة شهود الحق في الخلق من غير عكس، فهو على النقصان، وإذا ثبت ازدياد علوها على الثانية كان بالنسبة للأولى بالضرورة، وكيف لا تكون أولى (و) هي (**مقام الأنبياء**) عليهم الصَّلَاةُ والسلام (**ومقام الأقطاب**)! الحاصل لهم بسبب متابعتهم للأنبياء، فأشرف التابع من شرف متبوعه، والأقطاب جمع: قطب وهو الغوث، وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان.

(**واعلم**) أنك إن أردت أن تحصل هذا الشهود فَاتَّبِعْ الشريعة أولاً قولاً وفعلاً واعتقادًا، والطريقة ثانيًا (**إذ إن من المحال**) شرعًا وعقلاً (**أن تحصل المرتبة المتوسطة من تلك المراتب الثلاث**) التي تقدمت لأحد (**ممن خالف الشريعة**) وتعدى حدودها (و) خالف (**الطريقة**) وقطع علائقها وبنودها (**فضلاً عن**) تحصيل (**المرتبة الأخيرة التي هي أعلى مما سواها**) من الرتبتين السابقتين، وعدم تحصيل ذلك لهذه المرتبة ثابت بالبديهة، أو بالقياس الجلي.

(و) اعلموا أيضًا (**أن جميع الموجودات**) الكونية التي ظهرت بذر نور الوجود عليها (**من حيث الوجود**) هي (**عين الحق سبحانه وتعالى**) إذ الوجود كما مر واحد،

وهو من حيث هو، هو محمول على الوجودات المضافة لصدق قولنا: هذا الوجود، وكل ما هو محمول على شيء لا بد أن يكون بينه وبين موضوعه ما به الاتحاد، وما به الامتياز، وليس ما به الاتحاد هنا سوى نفس الوجود، وما به الامتياز سوى نفس الهدية، فتعين أن يكون الوجود من حيث هو، هو عين الوجودات المضافة، وإلا لم يكن وجودًا ضرورة، وأنه لا يتحقق شيء في العقل، ولا في الخارج إلا به، فهو محيط بجميعها بذاته، وقوام الأشياء به، إذ لو لم يكن، لم يكن شيئًا مذكورًا إلا في العقل ولا في الخارج، فهو مقومها، وهو الذي يتجلى في مراتبه، ويظهر بصورها وحقائقها في العلم والعين، فيسمى بالماهية والأعيان الثابتة، فهو عينها.

(ولكنها من حيث التعين) الخارجي **(غير الحق سبحانه وتعالى)** أن ما به الامتيَاز غير ما به الاتحاد **(والغيرية اعتبارية)** لا حقيقية؛ إذ هي إنما تكون بين وجودين، ولا وجود غيره، فالغيرية باعتبار الهدية والتشكلات الخارجية.

(وأما من حيث الحقيقة) كما تقدم **(فالكل هو الحق سبحانه وتعالى)** وما عداه تعيناته العدمية، ومفروضاته الوهمية كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه؛ ولهذا يقال: إنه أحد بالذات كل بالأسماء **(ومثاله)** أي: مثال ذلك **(الحُباب)** وهي أجزاء مائية تعلو سطح الماء بسبب ما ينغمس فيه بقسر أو غيره من جنسه أو غيره، فتخالطها أجزاء هوائية تنبسط الأجزاء المائية على سطحها، ولما كان الهواء كريًا كان الظاهر على هيئة نصف كرة، وهي المعبر عنها بالفقاقيع، وتتصور في المائع أيضًا من غيره، ففي التعين الظاهر هي غير الماء في الحقيقة عينه لما قررنا.

(و) كذلك **(الموج)** وهو ما تحبك من الماء بسبب جري الهواء على سطحه، ففي التعين الظاهري موج، وفي الحقيقة ماء رفعه الهواء **(و)** كذلك **(الثلج)** وهو ماء أثرت فيه سورة كرة الزمهرير حتى أخرجته عن طبعة وكيفيته إلى غير كيفيته، وكذلك الجمد، فإنه ماء أيضًا أثرت فيه سورة البرد، وكذلك البرد أيضًا.

(فإن كلهن من حيث الحقيقة عين الماء ومن حيث التعين) الظاهري **(غير الماء)** لما قدمنا، فجميع تلك الصور الظاهرة اعتبارات وتصاوير لا حقيقة لها سوى الماء **(و)** كذلك **(السراب فإنه)** أيضًا **(من حيث الحقيقة عين الهواء ومن حيث التعين غير الهواء)** والأولى في هذا وما قبله الأكتاف بالضمير اختصارًا **(و)** ذلك

(لأن السراب) وكذلك الآل **(في الحقيقة)** والواقع **(هواء ظهر بصورة الماء)** بسبب انعكاس الشعاع البصري من الأفق إلى سطح الأرض للناظر من بعد، فيحسبه ماء، وليس كذلك، فكذلك من ران على قلوبهم الأعمال الفاسدة من الكبر والأنانية، وإسنادهم الأفعال إلى قوة نفوسهم جهلاً بحقيقة الأمر وذهولاً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧] فتكون لهم هذه الحالة حجابًا، فيشهدون مجرد التصاوير، والتعينات المسميات بالموجودات[1].

---

(١) قاعدة التحقيق ليست إلا بسابقة التوفيق، قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر:٢٢]، وإذا ظهر الحق في العارف كان الله ولا شيء معه أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فكان للعبد الصادق سمع الحق وبصره، وسائر قواه، كما قال ﷺ: «**إن الله قال على لسان عبده، سمع الله لمن حمده**»، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، واليد يد محمد ﷺ وهو كذلك، هو الرامي حقيقة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧]، فيد الله الحق - هو الرامي بنفسه - والرمي عن محمد، وإثبات الرمي للحق، (ولكن الله رمى)، وقرب النوافل كون الحق بوجوده مجملاً في آنية العبد، وهو به له، فهو سمع العبد، وبصره، ولسانه، ويده، وسائر قواه كما في الحديث الثابت الصحيح المثبت في المقامين، فانظر وافهم عني، ما أقول لك أنت حقيقة عين ثابتة علمية أزلية ذاتية من جملة شؤونه الذاتية، ولا شمت رائحة من الوجود العيني؛ بل هي على وجودها العلمي الأزلي الأبدي، والمشهود الموجود في الأعيان منك لما كان الشاهد والمشهود وهو الحق.

وفي الحقيقة إن الحق هو الموجود المشهود في حقائق العلم في أعيان المحدثات كلها، وهي مظهر الحق موجودة في أعيانها، وفي كل العلوم المختلفة باختلاف صورها، والمشهود الموجود في الشهود، ووجودها الظاهر العلمي ظهور الوجود الحق في هذه المظاهر، وعلم الذات لا ينتقل إلى علم الصفات، العلم الذاتي إلى العين، لكن أثرت في مراتب الوجود الحق من حيث: قبوله وصلاحيته لتلك الآثار، فكان الحكم لله ولرسوله ﷺ، فحكمه حكم الحق علينا دنيا وأخرى، روحًا وجسمًا، ظاهرًا وباطنًا من حيث تحكم بما جرى به القضاء والقدر في الأزل شقاوة، وسعادة من حيث اقتضاء الخصوصيات، فكنا في الاستعداد، والكمال، والخصوصية في عين الرحمة على لسان الرسول محمد ﷺ، فطلب من الحق ما يفيل برحمته من ربه على خلقة، ونحن فيما نستأهله ونستحقه من اقتفاه، وبان نور الاصطفاء؛ لأنه قد ثبت مع ربه في الرضا، في الشفاعة والله العليم الحكيم، العدل الحكم، فهو أصل الهداية، وإثبات الحق، فثبتت الأدلة الكشفية بحقائق الذاتية، وهو الظاهر
=

وأما ذكر المراد من كون الوجود واحد، وأنه هو الحق، وأنه من حيث هو، هو غير الوجودي الخارجي الذهني، إذ كل منهما نوع من أنواعه، فهو من حيث هو، هو لا بشرط شيء غير مقيد بالإطلاق والتقيد، ولا هو كلي ولا جزئي، ولا عام ولا خاص، ولا واحد بالوحدة الزائدة على ذاته ولا كثير، بل يلزمه هذه الأشياء بحسب مراتبه ومقاماته المنبه عليها بقوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [غافر:١٥]، فيصير مطلقًا ومقيدًا وكليًا وجزئيًا وعامًا وخاصًا وواحدًا وكثيرًا من غير حصول التغير في ذاته، وحقيقته أراد أن يثبت وحدة الوجود بالدليل، فقال: (**والدلائل**) جمع: دليل، وهو ما لزم من العلم به العلم بشيء آخر، أو الظن بشيء، أو من الظن به الظن بشيء آخر الدلالة تلك الدلائل (**على وحدة الوجود كثيرة**) عقلاً ونقلاً.

أما الدلائل العقلية، فقد مر بعضها، وأما النقلية فاستمدادها من الكتاب والسنة وإجماع أهل الله (**أما**) التي (**من القرآن**) فكثيرة منها: (**قوله تعالى**:﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾) وما فيهما، فهما وما فيهما تعيناته ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ ﴾ أي: توجهوا وجوهكم أو قلوبكم إلى أي حجة شئتم ﴿ فَثَمَّ ﴾، وهناك ﴿ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١١٥]، أي: ذاته وما عداه عدم معتبر قدره وصوره لا أن ذلك العدم هو نفس وجه الله، بل مظهر ذاته كما عرفت.

وقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق:١٦]، قرب علم لا

= المعهود، وهو الجامع، وهو الإنسان الكامل، والإنسان المفضل القائم بالحق مظهر من أتم، وأكمل، وأسبل علينا نعمه: ظاهرة، وباطنة، بحقيقة الإسلام الذي هو الانقياد للحق الكلي لله من كل وجه، وكل مرضي محبوب، وكل ما فعل المحبوب محبوب، فكله مرضي، فكنا مع الرسول وطاعته في ذلك الفن على قدر المعرفة والقرب، فكل من تابعه في امتثاله يكون في أعلى قربة، وهي حقيقة الحقائق، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] وقد صح لكل عارف بذلك الفن، أن يكون منهم في أهلية فضله وفضيلته، هم أهل الله في الدنيا، وهم أهل الله في الآخرة، فالظهور لمن كان له قلب يعلم تقليب الحق في الصور وتقلبه في الأشكال، فمن عرف نفسه عرف أن نفسه هي عين هوية الحق، ولا شيء من الكون فيه، كما أن الكون بائن كائن، الحق الواحد الذي لا موجود على الحقيقة، ولا مشهود في الوجود إلا هو، والحقيقة واحدة، قوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق:٣٧] يتقلب في تقليبه.

مكان، إذ لا مكان له، فبين أنه أقرب إلى الإنسان من العرق الذي في عنقه الذي هو سبب حياته، فحياته في نفس الأمر به، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾، معية علم ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]، في بر أو بحر؛ إذ أنتم تصويره وتقديره الذي ظهر بكم بحسب حبه إظهار آياته ورفع أعلامه وراياته، فتكثر بحسب الصور، وهو على وحدته الحقيقية وكمالاته الرمزية وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة:٨٣]، ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٤]، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي: إلى الذي بلغت روحه الحلقوم ﴿ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٥] قربنا إليه بعين بصيرتكم لاشتغالكم بالصور والأشكال العدمية الفانية عنا، وما ذلك إلا لكون وجوده به ولا بغيره، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ يا محمد ﷺ وهو أصحاب السمرة على إظهار الملة المحمدية ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي: ما يبايعون إلا الله، إذ أنت مظهر له ظهر بك، وطلب منهم المبايعة، وهم مظهر له أيضًا فـ﴿ يَدُ ٱللَّهِ ﴾، التي مدت إليهم بالبيعة، وإن كانت من حيث الصورة العدمية، هي يدك، ولكنها في الحقيقة مظهر له لا يده، إذ لا جارحة له، بل المراد بها الغاية، وهي هنا القدرة أي: قدرة الله التي ظهر بها، وانكشف بيدك بها ﴿ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح:١٠]، وقد امتحنني الوارد الشيطاني بقوله: إذا كان الأمر كما ذكرت اتحد المبايع والمبايع، فقلت: أما من حيث الوجود فنعم، وأما من حيث التعين فلا، فقال من حيث الوجود، وما فائدة المبايعة؟

قلت: إن الله تعالى يقدر، ثم يفعل بحسب مشيئته، وقد قدر أزلاً إظهار ملة نبيه بمبايعة هذه الصور بعضها من بعض، وإن كان في الحقيقة هو الظاهر بها، فقال: إذا كان كذلك، فلم لم يقدر الإظهار بغير هذه الكيفية؟ إذ يمكنه ذلك فقلت: لا يُسأل عما يفعل، فانقطع، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد:٣]، لرجوع كل ما يظهر في الشهادة وبطن في الغيب إليه، فالأشياء كلها تصاويره وتقاديره ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٩]؛ لإحاطته بالأشياء لذاته، وحصول العلم لكل عالم إنما هو بواسطة، فهو أولى بذلك، بل هو الذي يلزمه جميع الكمالات، وبه يقوم كل من الصفات كالحياة والعلم والقدرة وغيرها، فهو

الحي العالم المريد القادر السميع البصير بذاته لا بواسطة شيء، إذ به يلحق الأشياء تحقيق كمالاتها، وقال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١]، بعين البصيرة، وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت:٥٣]، فاستدلالنا بناء عليه، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾، لجهلهم كنهي ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:١٨٦] لكوني الواحد الظاهر بأشكالهم التي صورتها وقدرتها، وقال تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ يوم غزوة بدر: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾، أنت الحصا في وجه العدو وبذاتك التي هي تقديرنا وتصويرنا ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧]، بقوة وجوده الواحد، فلا قوة إلا له، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾ [النساء:١٢٦]، إحاطة علم وتقدير وتصوير (إلى غير ذلك الآيات) الدالة على وحدته تعالى.

(وأما من السنة فقوله ﷺ: أصدق كلمة قالها العرب)[1].

ورُوي: قالها قائل، ورُوي: قالها شاعر - (كلمة لبيد) على وزن: «زبيد» شاعر معروف، وإطلاق الكلمة على البيت مجازًا من إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ لكون الكلمة هي الركن الأعظم حيث يتركب البيت منها كتسميتهم: ربيئة القوم عينًا، وتسمية السماع لكل حديث أذنًا: **(ألا كل شيء ما خلا الله باطل)** تمامه **(وكل نعيم لا محالة زائل)**[2] أي: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] حتى الجنة والنار يهلكان، ثم يعودان وقت الجزاء عند قيام القيامة الكبرى بعد قوله: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٦]؛ فالكل محض تصوير ليس له وجود، وإنما الوجود هو الحق سبحانه وتعالى[3].

(وقوله: ﷺ إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة) فرضًا أو نفلاً **(فإنما يناجي)** ويكلم **(ربه)** في قراءته ودعائه إلا أنه يكلم نفسه، وإن كان هو مقتضي الظاهر، إذ لا

(١) رواه البخاري (٢١/٣٧٠)، ومسلم (١٥/١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٧٠، رقم ١٠٠٧٦)، والبخاري (٣/١٣٩٥، رقم ٣٦٢٨)، ومسلم (٤/١٧٦٨، رقم ٢٢٥٦)، وابن ماجه (٢/١٢٣٦، رقم ٣٧٥٧).

(٣) رواه البخاري (٢١/٣٧٠)، ومسلم (١٥/١١٤).

يرى أحدًا يخاطبه (فإن ربه بينه وبين القبلة)[1] لا وجهة لله تعالى، فلا تتوهم من البينية، بل هو كناية عن الوجود الظاهر بتقدير الإنسان وتصويره وتقدير القبلة وتصويرها؛ وكذا بتقدير الصلاة أيضًا، فإذا توجه إلى القبلة توجه إلى الوجود الظاهر بتصويره لها.

(وقوله ﷺ) حكاية (عن الله تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»)[2] هذا جزء حديث مرّ ذكره متنًا وإسنادًا، وقوله: «لا يزال» إشارة إلى نية الدوام على محض الطاعة، وبقوله: «عبدي» إشارة إلى أنه لا يكون كذلك؛ إلا إذا كان قائمًا بصفة العبودية.

(وقوله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، وجُعتُ فلم تطعمني...إلى آخره»)[3]. والذي رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله تعالى عنه - أن الله تعالى يقول: «مرضت فلم تعدني، قال: يا رب، وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت عبدي فلانًا مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته وجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٦١، رقم ٤٠٦)، وعبد الرزاق (١/٤٣١، رقم ١٦٨٦)، وأحمد (٢/٤١٥، رقم ٩٣٥٥)، وابن حبان (٦/٤٦، رقم ٢٢٦٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) افهم هذا العلم اللدني ألحظ إلى لمح مستغرق شربه ظاهرًا بلحظ الكون، وفي الحقيقة بلحظ الحق باستراق النظر عن أعين الحجاب والرقباء الذين هم الحجاب؛ لأنهم يحسبون أنهم مع الله وهم في حظوظهم وهواهم وهم ظلمة؛ لكن انظر إلى ضياء الكُمّل، وشهودهم فإنهم غايتهم المحبة وهي الصلة، قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤]، وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه:٣٩] وكل ما سوى الحق هو الباطل، وما سوى الحق هو العدم، إذ لا وجود في الحقيقة إلا الحق. قال ﷺ: «أصدق بيت قالته العرب ما قال لبيد: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ» فسبحان من احتجب عنا بعزته، أن يعرف بحقيقته وهويته كما يعرف هو ذاته بذاته، فإن ذاته لا يراها أحد على ما هي عليه إلا هو، الجمال من تجليه بوجهة لذاته بجماله المطلق جلال، وافهم أنه لا يعرف الله إلا الله.

تطعمه، أما علمت لو أطعمته وجدت ذلك عندي...إلى آخره»[١].

فإنه تعالى ما أَنْزَلَ نفسه منزلة عبده إلا لعلمه أنه الوجود الواحد الذي ظهر بذلك العبد وغيره من المخلوقات، وما عداه تقدير وتصوير لا وجود له إلا به.

(وروى الترمذي) أبو عيسى في «السنن» عن أبي هريرة ﷺ (في حديث طويل) اقتصر المصنف منه على محل الشاهد، وهو (والذي نفس محمدٍ بيده لو أنكم دليتم - من التدلي - بحبل إلى الأرض السفلي لهبط) ذلك الحبل (على الله تعالى)[٢] أي: على تقدير الله وتصويره الموجود بوجوده، فلا موجود إلا واحد وكما أنه ظاهر في السموات والأرض بما قدر وصور من الأعدام كذلك هو ظاهر تحت الأرضين السبع؛ إذ لا في الكون موجود إلا وهو ظاهر به[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٩٠/٤، رقم ٢٥٦٩)، وابن حبان (٥٠٣/١، رقم ٢٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٤٠٣/٥، رقم ٣٢٩٨)، وقال: غريب.

(٣) إذا علمت أن الوجود هو الحق، علمت سر قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد:٤] وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[الواقعة:٨٥] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[الزخرف:٨٤] وقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[النور:٣٥] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[فصلت:٥٤] وقوله ﷺ: «كنت سمعه وبصره»، وسر قوله ﷺ: «لو دليتم بحبل لهبط على الله»، وهذه الأسرار المنبهة للتوحيد، وإشارات لأهل البصائر، أهل حضرة الغيب المطلق، وهي حضرة المشاهدة العلمية، وتقابلها حضرة الشهادة المطلقة، وكل شيء راجع إلى الحضرة الواحدية، مظهر الحضرة الأحدية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] وقد أطعنا الحق، فغرس في قلوبنا محبته، واتباعه على الرأس والعين وله الحمد والمنة والاقتفاء والهداية: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣]، ولطفه وسريانه في سائر الأشياء، ولا تدركه الأبصار بلطفه في أعيان الأشياء، وهو اللطيف الخبير، وقابلناه بتوجهنا إليه، بشوق، وذوق، وإخلاص، وتحقق محض العبودية لمن فهم، وهو يهدي السبيل، ويختص برحمته من يشاء، وهو الذي صح له التحقيق من أهل الطريق، وسار في سيرهم، وغمرته أنوارهم، وبلت رداءه أمطارهم، وهم في شربهم من كأس خمرة الود، والوصل في أحسن تقويم العقل، وماسكين الشريعة، وهم في حالهم البتة؛ لا يرون بعين بصائرهم إلا مشهد الحق الصرف، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:٢٩] وكان رسول ﷺ يبرز بنفسه للمطر إذا نزل، ويكشف له رأسه حتى يصيبه، ويقول: «حديث عهد بربه»، فانظر إلى معرفة هذا النبي ﷺ بالله، ما أجلها وأعلاها،
=

(ثم) بعد أن ذكر النبي ﷺ الكلام الأول (قرأ عليه الصلاة والسلام) شاهدًا لما قال: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد:٣]، قدر معناه (إلى غير ذلك) الذي ذكرناه (من الأحاديث) جميع حديث، وهو في العرف ما كان عن النبي ﷺ (الصحيحة) الغير الفاسدة الموضوعة، فيشتمل الصحيح لذاته ولغيره، والحسن لذاته ولغيره بجميع أنواعها من مشهور ومستفيض وعزيز وغريب، ويشمل المتواتر أيضًا (وأما) الإجماع، فدلت عليه (أقوال العارفين) بالله (الدالة) تلك الأقوال على إجماعهم (على) القول بوحدة (الوجود) وأما (فكثيرة بحيث لا تأتي و) لا تتحصل (في العدد) صيغة من صيغ العدد (و) كذا لا تتحصل (بالحصر) والحد لاختلاف ألفاظها، فلا يمكن أن يحصرها حتى يدل عليها مطابقة أو تضمنًا أو التزامًا.

نعم! لها جهة وحدة (ولذا) لعسر حدها وحصرها (لم أذكرها) في هذه العجالة (وإن شئت) وأردت الاطلاع على بعضها، أو كلها (فعليك بالمطالعة) أي: الزم النظر والتأمل (في) بعض (نسخهم) أو كلها، فإن طالعتها (تجد) ما ذكرناه لك (إن شاء الله تعالى) رشادك، وكشف ما ران على قلبك، وهو يتولى هداك.

(و) اعلم أيها الطالب لما طلبنا (إن أردت الوصول إلى الله تعالى) باعتبار المرتبة الوحدة، وإلا فقد تقدم أنه لا يمكن الوصول إليه باعتبار الأحدية، فطريق ذلك الصبر المفسر بحبس النفس على الطاعات؛ إذ هو أول المقامات السلوكية بعد التوبة، وهو معنى قوله (فالزم) أنت (متابعة) أحوال (النبي ﷺ أولاً) قبل شروعك في هذا المقام، إذ من سلك بلا شريعة كان سيره عبثًا، وأن يكون اتباعك النبي ﷺ

= وقد سخر له المطر، فبرز له لقربه من ربه، وهو صاحب الوحي والتنزيل، ومهبط الأمين جبريل ﷺ بالقرآن العظيم، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ﴾ [طه:١١٤] وليلة الإسراء وقف جبريل عليه السلام، فخاطبه بما معه، فقال: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[الصافات:١٦٤] فأماط الله لنبيه ﷺ الحجب، وأدناه ربه إليه، وقربه، وأعطاه الرضا، رضاه لأمته، ونص القرآن: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[الضحى:٥] فصح له الرضا من الحق في أمته، وقوله: ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾[غافر:١٥] وقوله: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾[النور:٤١].

(قولاً) بأن لا تنطق إلا بما شرع (وفعلاً) بأن لا تفعل إلا ما شرع، وأن يكون ذلك (ظاهرًا وباطنًا) عملاً واعتقادًا (ثم) بعد حصولك على الصبر (افعل) مصاحبًا له (مراقبة) وملاحظة (وحدة الوجود) التي قدمنا ذكرها (التي هي عين) وحقيقة (معنى الكلمة الطيبة) أعني: لا إله إلا الله، ولم تزل ذاكرًا لله على هذه الكيفية حتى ينتقل الذكر من لسانك إلى قلبك، ولكن بشرط أن لا تكون أسير شيء، فتنور باطنك بحكم: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر:٦٩].

فتحصل لك التجليات الصفاتية والأسماء؛ لأنه - تعالى - قال: «أنا جليس من ذكرني»[1]. والجليس لا بد أن يكون مشهودًا، فالذكر بهذه الكيفية أفضل من الغزو والشهادة في سبيل الله تعالى؛ لأن ثوابهما حصول الجنة، وثوابه المشاهدة والرؤية، وهي أفضل من حصول الجنة؛ ولذلك كانت الرؤية بعد حصولها، والله أعلم.

ثم اعلم أن ذكرك هذا لا يشترط فيه شيء مما يشترط في غيره من العبادات، بل هو (من غير اشتراط الوضوء) المشتمل على الفروض الستة أعني: النية، فغسل الوجه، فاليدين، فمسح الرأس، فغسل الرجلين، ومن غير اشتراط الطهارة عن حدث أكبر أيضًا لرفع الحرج عنك، إذ كل حرج حجاب (ولكن إن وجد) منك (فهو أولى) وأفضل؛ لأن المداومة عليه استحبها العلماء.

(و) كذا (لا) يشترط لذكرك هذا (تخصيص وقت دون وقت) كليلة الجمعة، ويوم كذا مثلاً، أو ساعة كذا، أو وقت كذا (و) كذا (من غير ملاحظة النفس) بفتح السين المهملة أي: نفسك (دخولاً وخروجًا) فإنها حجاب أيضًا (في) حال (المراقبة) ولا تعيني بما قاله جمع من اشترط تلك (و) كذا (لا) يشترط (ملاحظة حروف الكلمة الطيبة) من تجويد وإعراب؛ لأنها حجاب أيضًا (بل لا تلاحظ) أنت في ذكرك (إلا المعنى فقط) بأن تقصد لا موجود بذاته إلا هو كما قدمناه لك، وذلك (في كل حال) من أحوالك حال ذكرك، لا فرق في ذلك بين أن تكون (قائمًا أو قاعدًا) مقعيًا، أو مربعًا، أو متوركًا، أو مفترشًا، أو مستوفزًا (أو ماشيًا) بأي نوع كان، ولا فرق بين أن تكون (متحركًا أو ساكنًا شاربًا أو آكلاً) أو صائمًا أو متحرقًا أو غير

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١/١٣٨).

متحرق.

(**واعلم أن طريقة المراقبة**) المذكورة (**لن تنفي**) أنت (**إنيتك أولاً**) قبل شروعك فيها، ثم لم تزل مصاحبًا لنفي هذه الإنية في مدة ذكرك هذا (**والإنّية**) بفتح الهمزة وتشديد النون والياء التحتية هي (**عبارة من أن تكون وباطنك غير الحق** - سبحانه وتعالى - **ولا تنفي**) في قولك لا إله (**إلا هذه الإنّية**)؛ وقد مرَّ لك طريق نفيها (**وهو**) أي: نفيك لها (**عين معنى لا إله**)؛ إذ لو لاحظت أن غيره موجود بوجوده الذاتي ليس موجودًا بوجوده - تعالى - لزم قدمه، ثم لزم كونه إلهًا كما مر، فتفطن.

(**ثم**) بعد نفيك هذا (**اثبت**) أنت (**الحق سبحانه وتعالى**) أي: وجوده (**في باطنك**) وقوله (**ثانيًا**) تأكيدًا لمعنى «ثم» المفيدة للتعقيب والتراخي (**وهو**) أي: هذا الإثبات (**عين معنى «إلا الله»، فإن قلت**)، قد تقدم أن الوجود واحد، وما عداه مجرد اعتبار (**فإذا كان الوجود واحدًا أو غيره ليس بموجود بنفسه، فأي شيء تنفي**) بقوله: لا إله (**وأي شيء تثبت**) بقولك: لا إله مع أنه ثابت بنفسه، واحد بنفسه غير محتاج إلى إثباتك الموهم وجود غيره، وإن كانت السالبة صادقة بعدم الموضوع (**قلت**) إنما أنفي (**وهم الغيرية**) الطارئ على النفوس البشرية، ووهم الإثنينية، فلا يتوهم أنه اثنان، وهذا الوهم (**نشأ للخلق**) من جهة احتجابهم بغيره، وشهودهم ووجودهم الحادث (**وهذا الوهم الباطل**) في نفس الأمر (**فعليك**) اسم فعل معناه: الزم (**أن تنفي هذا الوهم أولا**) قبل الشروع في الإثبات حتى تنسلب من مقتضى البشرية (**ثم تثبت الحق سبحانه وتعالى ثانيًا ثم**).

اعلم يا أيها الطالب (**إذا**) شرعت في المراقبة والذكر (**وغلب عليك الحال**) وذلك (**بفضل الله تعالى**) بمجاهدتك (**لا يقدر على نفي أنيتك الوهمية، بل لم يبن فيك**) حينئذ (**إلا إثبات الحق - سبحانه وتعالى - رزقنا الله وإياكم هذا المقام بحرمة النبي ﷺ**)؛ وذلك لأن العارف لا همة له، وقد قيل: لا حركة لعارف، وقد قيل: على قدر المعرفة بطلان الهمة، وقيل: العارف عليّ المكانة، تام المعرفة، ناقص الهمة.

وهذا آخر ما تيسر والحمد لله

فتح الرحمن

بشرح رسالة الولي أرسلان

تأليف

شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري
المتوفى ٩٢٦ هـ

باعتناء وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي



ترجمة المصنف

هو شيخ الإسلام، زين الدين، زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري، السنيكي، نسبة إلى سنيكة - قرية من أعمال الشرقية - ثم القاهري، الأزهري، الشافعي.

ولد سنة ٨٢٦ هـ بسنيكة، ونشأ بها، فحفظ القرآن والعمدة، ومختصر التبريزي، ثم تحول للقاهرة سنة إحدى وأربعين، فقطن بالجامع الأزهر، وحفظ به المنهاج والألفية والشاطبية والرائية وبعض ألفية الحديث والتسهيل، ولم يعكف على أحد من الناس، فكان يجوع، فيخرج ليلاً، فيجمع قشور البطيخ فيأكله، فسخر الله له رجلاً يعمل في الطواحين، فصار يتعهده بالطعام والكسوة سنين، ثم أتاه ليلة فأوقفه على سلم الوقادة وقال: اصعد. فصعد ثم قال: انزل. فنزل ثم قال: تعيش حتى يموت جميع أقرانك، وتصير طلبتك مشايخ الإسلام في حياتك حتى يكف بصرك. قال: لا بدّ من العمى؟ قال: لا بدّ. ثم فارقه فلم يره بعد.

ثم أخذ الفقه والأصول والمعاني والبيان عن القاياتي والشرف المناوي ولازم درسه، والعلم البلقيني والونائي والحجازي والبوتيجي وابن حجر والزين رضوان والكفايجي والشرواني والعز البغدادي وابن الهائم والعلاء البخاري وابن الهمام، وابن المجدي. وأخذ التصوف عن الشيخ الغمري والإدكاوي والنبتيتي والبلقيني والخليلي، وتلقن عليهم، وجد واجتهد، وأكبَّ على الاشتغال على طريقة جميلة من التواضع وحسن العشرة والأدب والعفة، والانجماع عن أبناء الدنيا، مع التقلل وشرف النفس ومزيد العقل وسعة الباطن والتحمل، والمدارة، إلى أن أذن له غير واحد في الإفتاء والتدريس، فتصدى لذلك في حياة جمع من شيوخه، وانتفع به الفضلاء، طبقةً بعد طبقة. ثم تصدَّى للتصنيف، فشرح البهجة والروض وغيرهما مما هو معروف مشهور، حتى بلغت مؤلفاته نحو الستين.

وكان يميل إلى الصوفية، ويذب عنهم، سيما ابن عربي وابن الفارض، وهو ممن كتب في نصرتهما، وجزم بولايتهما، وذلك لأنه لما استفتى السلطان في كائنة

البقاعي العلماء، أفتى أكثرهم بتصويبه في تكفيرهما، فتوقف صاحب الترجمة، ثم اجتمع بالشيخ محمد الاسطنبولي المجذوب فقال له: اكتب وانصر القوم، واذكر في الجواب أنه لا يجوز لمن لم يعرف مصطلحهم ذوقًا أن يتكلم فيهم؛ لأن دائرة الولاية تبتدئ من وراء طور العقل؛ لبنائها على الكشف الصحيح. وولي عدة مدارس، والميعاد بالجامع الأزهر، ولم يزل في ازدياد من الترقي حتى ولاه قايتباي الصلاحية، ثم استقر به في القضاء الأكبر بعد صرف الأسيوطي، فباشره بعفة ونزاهة، وعمي آخر عمره، ومع ذلك لم يترك الإفتاء والتدريس، وعمّر نحو مائة سنة حتى انقرض جميع أقرانه، وألحق الأصاغر بالأكابر، وصار كل من في مصر من أتباعه أو أتباع أتباعه. وقرئ عليه شرحه لـ«البهجة» سبعًا وخمسين مرة، حتى كان شيخنا الرملي - رحمه الله - يقول: هذا شرح أهل بلد، لا شرح رجل واحد.

مات سنة نيف وعشرين وتسعمائة.



بسم الله الرحمن الرحيم

قال سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام والمسلمين، زين الملة والدين، أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي - رحمه الله وأعاد علينا من مدده في الدنيا والآخرة بمحمد وآله - إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير[1].

الشرح

الحمد لله الذي تفرد بالوحدانية وتعزز بالنعوت الربانية[2].

والصلاة والسلام على النبي وصحبه، وعلى آله وحزبه وبعد: فإن علم التوحيد من أشرف العلوم، وأشرف ما ألف فيه «الرسالة الأرسلانية» للإمام العارف بالله تعالى الشيخ أرسلان الدمشقي، طيب الله ثراه وجعل الجنة مأواه.

وحيث إنها كانت من أبدع كتاب في علم التوحيد صنف، وأجمع موضوع على مقدار صغر حجمه ألف، استخرت الله تعالى أن أشرحها شرحًا يحل ألفاظها، ويبين مرادها، وسميته بـ «فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان» والله اسأل أن

---

(١) اعتمد في تحقيق هذا الشرح المسمى: «فتح الرحمن بشرح رسالة الولي أرسلان» على نسختين اثنتين:

إحداهما: مطبوعة كطبعة «خمرة الحان ورنة الألحان» أي: إن أخطاءها كثيرة، وذلك في مطبعة جريدة الإسلام بمصر سنة ١٣١٧هـ وهي موجودة في المكتبة الظاهرية في آخر كتاب «حل الرموز ومفاتيح الكنوز» من تأليف الإمام العالم المرحوم شهاب الدين الأستاذ العز بن عبد السلام، وقد جاء الشرح في آخر الكتاب.

أمّا النسخة الثانية: فقد عثرت عليها مخطوطة في المكتبة الظاهرية، ورأيت فيها الكثير مما يصحح الأخطاء المشار إليها، ولكن لم يذكر فيها اسم الكاتب ولا سنة الكتابة، وقد أدت بي الدراسة التي قمت بها إلى أن النسخة نقلت في القرن الحادي عشر للهجرة.

وقد رمز إلى النسخة المخطوطة الموجودة في المكتبة الظاهرية بحرف (أ) وجعلت هي الشرح المعتمد، وللنسخة المطبوعة بحرف (ب).

(٢) "ب" وتعزز بالنعمة.

يجعلها في حيز القبول إنه أكرم مأمول ومسؤول.

اعلم أن المطلوب هو: علم التوحيد[1]، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩] وهو مستلزم لانتفاء الشرك، والشرك نوعان:

ـ ظاهر جلي: وقد ذكره مع أقسامه الإمام الغزالي وغيره.

ـ وباطن خفي: وهو ما استولت عليه النفوس من الأكوان، فحجبت بها عن تلقي المدد من عالم الغيب، فصارت شركًا خفيًا لبعده عن حضرة[2] القدس بشواهد الحس.

وقد ذكره المؤلف بقوله: (كلك) أيها العبد ذاتًا وصفة وفعلاً (شرك خفي) منشأه الوهم والخيال، فإنهما يثبتان للغير كالمراتب والمقامات الزائلة، فإذا أفنيت عنك الغير بان بالعلم الإلهي توحيدك النافي للشرك بنوعيه، المستلزم لنفي الوهم والخيال (وما يبين لك) أي: يظهر لك (توحيدك إلا إذا خرجت) أي: فنيت أنت (عنك) وعن سائر الأغيار؛ بأن تراها كلها من الله ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦] ونسبة أعمالك إليك نسبة كسبية، وإلى الله تعالى خلقية، فالله تعالى خالق، وأنت كاسب لتثاب أو تعاقب.

(فكلما أخلصت) بالخروج عن ذلك (يكشف لك أنه) تعالى (هو) الفاعل الموجود (لا أنت) فإذا لم تشهد غيره تعالى كنت موحدًا له حقيقة، وهذا الشهود قد يدوم، وهو نادر؛ وقد يكون كالبرق الخاطف، فإذا انكشف لك ذلك علمت أن شهودك لك ذنب.

(نستغفر منك) أي: من شهودك لك، فبخلوصك من ذلك ينكشف لك عن علم التوحيد الذاتي والصفاتي والفعلي (وكلما وحدت) نوعًا منه (بان لك الشرك) في ضده مما تنسبه إلى الخلق، وهو مقام الفرق (فتجدد في كل ساعة ووقت) بل في كل نفس (توحيدًا) بأنه الفاعل الموجود (وإيمانًا) أي: تصديقًا بذلك إلى أن يكمل يقينك، فكلما ارتقيت من مقام فرق إلى مقام جمع زاد توحيدك وإيمانك.

كما قال: (وكلما خرجت) أنت (عنهم) أي: من نظرك إلى توحيدك (زاد

---

(١) في "ب" واعلم أن علم التوحيد مطلوب.

(٢) في "ب" حضيرة.

إيمانك) أي: تصديقك؛ أي: في مقام الكشف والمعاينة؛ إذ الخروج من أحد الضدين دخول في الآخر (وكلما خرجت) عنك (قوي يقينك[١]) بالوحدانية؛ إذ الأمر فيك أتم منه في غيرك، وهذه مرتبة الصديقين، والأولى مرتبة خواص المؤمنين، واليقين علم بعد شك؛ ولهذا لا يوصف به العلم القديم ولا العلوم الضرورية، لكن المراد به هاهنا ما ذكره بعد، وقد يراد به العلم مطلقًا، وهو تمييز[٢] لا يحتمل متعلقه النقيض.

واعلم أن خروجك منك جمع وزيادة يقينك غاية للجميع[٣] بها يستولي الحق عليك، وهو المراد بخبر: «كنت سمعه الذي يسمع به»[٤]، ومن لم ينلها لم يكمل يقينه، وكان مغرورًا واقفًا مع عبادته ونظره إلى المقامات والمكاشفات أسيرًا لها لحبه لها، كما أشار لما قال: (يا أسير الشهوات والعبادات، يا أسير المقامات والمكاشفات، أنت مغرور) بما أوقعك فيه الوهم والخيال.

(أنت مشتغل به عنك، أين الاشتغال به عنك حبك لشهواتك أسر لها، واشتغالك بها؛ أي: بالأغيار عنه، وأنت وحظوظك وشهواتك من الأغيار)، فالواقف مع الشهوات كحال أهل الغفلات، والواقف مع العبادات كحال بعض أهل المعاملات، والواقف مع الكشف كحال بعض أهل الترقيات، والواقف مع المقامات كحال بعض أهل الإرادات، كلهم مشغولون بغيره، وأمّا الواقف مع الله تعالى المستغرق به عن غيره فهو المشغول به كحال أهل العنايات[٥].

(وهو عز وجل حاضر) معنا بعلمه (ناظر) إلينا بحكمه (وهو معكم) بعلمه وقدرته وعنايته (أينما كنتم في الدنيا وفي الآخرة) إذا علمت ذلك عملت أنه حاضر معك كما يليق به في سرك[٦] وعلانيتك، فكن أنت معه[٧] باستغراقك في التوحيد،

---

(١) في "ب" (زاد يقينك).

(٢) "ب" وهو لا يحتمل.

(٣) "ب" غاية الجمع.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) "ب" أين الاشتغال به تعالى (عنك) مع كونك أسيرًا لغيره، وكل من أحب شيئًا فهو أسيره، فرب واقف مع الشهوة وهذا حال أهل الغفلات، ورب واقف مع العبادة وهذا حال بعض أهل المعاملات، ورب واقف مع المقام وهذا حال بعض أهل الإرادات، ورب واقف مع الكشف وهذا حال أهل العنايات.

(٦) "ب" علمت أنه معك في سرك.

(٧) "أ" فلا تكن أنت معه.

لأنك (فإذا كنت معه) كذلك (حجبك عنك) أي: أبعدك عن رؤية نفسك، فتسلم من الشرك الخفي، وهذه حالة تسمى بـ: الفناء في التوحيد، وبحالة الجمع (وإذا كنت معك) لعدم استغراقك في توحيده[1] (استعبدك له) أي: جعلك متعبدًا له، فيطلب منك عبادته، وهذه الحالة تسمى بـ: الفرق؛ أي: حالة الفرق كما مر، وفيها يرجع العبد إلى عباداته وغيرها.

(الإيمان) الكامل (خروجك عنهم) تعالى بألَّا تشاركه في شيء من صفاته[2] المختصة (واليقين خروجك عنك) أي: عن حولك وقوتك ووجودك؛ لتشهد كمال حوله وقوته ووجوده في محل عجزك وضعفك (إذا زاد إيمانك) بالخروج عن الأغيار (نقلت من حال إلى حال) أي: من ضعف إلى قوة إلى أن يكمل إيمانك وهو اليقين، وإذا كمل يقينك صارت الغيوب لك عينًا، فيحصل الإيمان الكامل.

(وإذا زاد يقينك) بخروجك عنك وعن سائر الأغيار (نقلت من مقام إلى مقام) أي: من معرفة إلى كشف، ومن كشف إلى مشاهدة، ومن مشاهدة إلى معاينة، ومن معاينة إلى اتصال، ومن اتصال إلى فناء، ومن فناء إلى بقاء، إلى غير ذلك من المقامات المعروفة لأهلها.

واعلم أن لهم شريعة وهي: أن تعبده تعالى، وطريقة وهي: أن تقصده بالعلم والعمل، وحقيقة؛ أي: العلم والعلم، وهي: أن تشهده[3] بنور استودعه في سويداء القلب، وأن كل باطن له ظاهر وعكسه، والشريعة ظاهر الحقيقية، والحقيقية باطنها، وهما متلازمتان معًا[4] فشريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة، ومثلوا الثلاثة بالجوزة، فالشريعة كالقشرة الظاهر، والطريقة كاللب الخفي، والحقيقة كالدهن الذي بباطن اللب، فلا يتوصل إلى اللب إلا بحرق القشر، ولا إلى الدهن إلا بدق اللب.

والخلق أقسام:

- ضعفاء: وهم العوام.
- وخواص: وهم الأولياء.

---

(١) "ب"لعدم استغراقك.

(٢) "ب" صفاتك.

(٣) "ب"وحقيقية وهي أن تشهده.

(٤) "ب" معنى.

ـ وخواص الخواص: وهم الأنبياء وورثتهم الكمل.

ويترتب[1] على ذلك قوله: (**الشريعة جعلت لك**) أيها الضعيف (**حتى تطلبه منه به تعالى لك**) بأن تطلبه بإخلاص وصدق وإلا فهي عليك لا لك (**والحقيقة له**) تعالى (**حتى تطلبها**) تعالى (**به له ﷻ**) لا بك له، ولا به لك (**حيث لا حين ولا أين**) بخلاف الشريعة (**فالشريعة**) لكونها أمرًا بأعمال شرعية لها (**حدود**) ككون الصلاة ركعتين أو ثلاثًا (**وجهات**) لكونها فرضًا، أو نفلاً مؤقتًا أو غير مؤقت.

(**والحقيقة لا حد ولا جهة**) لها؛ لأنها سر معنوي، ولأن القائم بها عارف بالله تعالى قد أعرض عن حظوظ البشرية؛ لأنه في مقام الجمع؛ لأنه أبدًا يطلب الله بالله لله، فمطلوبه غير محدود؛ لأنه الحق المعبود، ومطلوب القائم بالشريعة محدود (**القائم بالشريعة فقط**) أي: دون الحقيقة (**تفضل عليه بالمجاهدة**) وهي القيام بالعبادة الظاهرة وبالعبودية الباطنة، والعبادة للنفس؛ لكونها ظاهرة، والعبودية للقلب؛ لكونها باطنة.

(**والقائم بالحقيقة تفضل عليه بالمنة**) أي: بالنعمة، وقيل: الثقيلة، والمراد: العلم اللدني النوراني الذي علمه الله للأرواح حين خاطبهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] والمشار إليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] إلا أنه مغمور في الأرواح، مستور بظلام الوجود وشواغل الطبيعة، فإذا زالا بتوفيق الله ظهر، وهو المراد بخبر: «**من عمل بما علم أورثة الله علم ما لم يعلم**»[2] فكشف عن قلبه غطاء ذلك، فأعرض عن كل مخلوق حتى عن الجنة، فهذا قائم بحقوق الربوبية، وذاك بحقوق العبادة والعبودية.

(**وشتان**) أي: بعد (**ما**) زائدة (**بين المجاهدة والمنة**) فشتان بين من أقيم للمجاهدة بغير كشف وشهود في محل الفرق، وبين من كشف له سر الإلهية، فشهد معنى الجمع بالجمع، فكل من مقامي الفرق والجمع مطلوب، لكن في الاقتصار على الأول تعطيل، وعلى الثاني غرور وإبطال، كما مرت الإشارة إليهما، وإدخال «شتان» على ما بين سائغ عربي، ففي «القاموس» جاء: شتان؛ أي: بعد ما بينهما.

(**القائم مع المجاهدة**) لكونه ناظرًا بالشريعة إلى أعماله (**موجود**) بالله (**والقائم**

---

(١) 'ب'وهم الأنبياء ويترتب.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٠/٢٢٠).

مع المنة) لكونه قائمًا بحقوق الربوبية غير ناظر إلى أعماله **(مفقود)** عما سواه تعالى؛ لفنائه واستغراقه به تعالى.

(الأعمال) المتعلقة بكمال ذات العبد الظاهرة، كالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والجهاد **(متعلقة بالشرع الشريف)** لأنه جاء بالتكليف بها **(والتوكل)** ونحوه مما يتعلق بكمال الذات الباطنة، كالزهد والورع والصبر والخوف والرجاء **(متعلق بالإيمان)** بأن الله تعالى ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧] فالتوكل: هو الاعتماد على الله تعالى، وقطع النظر عن الأسباب مع تهيئتها، ويقال: هو ترك السعي فيما لا تسعه قدرة البشر، ويقال: غير ذلك كما بينته مع فوائد في «شرح رسالة القشيري».

(والتوحيد) وهو حكمك وعلمك بوحدانية الله تعالى **(متعلق بالكشف الصحيح[1])** أي: يكشف الله عن بصيرة العبد الغطاء؛ أعني: حجب الكائنات؛ بأن يفنى عنها ويراها مندرجة في أنوار العظمة الربانية، والكشف ثلاثة:

- كشف نفسي.
- وكشف قلب.
- وكشف سري[2]، وهو المراد هنا.

ويعبر عن الأول بـ: علم اليقين، وعن الثاني بـ: عين اليقين، وعن الثالث بـ: حق اليقين، والثلاثة علوم؛ لأنها أقسام العلم؛ لأن العلم باعتبار معلومه إن تعلق بالذات الظاهرة فعلم اليقين، أو بالذات الباطنة فعين اليقين، أو بالحق تعالى فحق اليقين.

واعلم أن للقوم مع الكشف محاضرة ومكاشفة ومعاينة ومشاهدة، وكلها تعلق بالتوحيد كما بينته في «شرح الرسالة القشيرية» **(الناس تائهون)** حائرون **(عن الحق)** تعالى بطلبهم له **(بالعقل)** الطبيعي الجسماني؛ لأنه بانفراده محجوب عن التجليات الإلهية، والمعارف الربانية؛ لقصوره على ما في الصور الظاهرة من حسن وقبح، وخطأ وصواب، بخلاف العقل الروحاني النوراني فإنه ملكي لا تيه معه.

(وتائهون عن الآخرة) المرضية بطلبهم لها **(بالهوى)** أي: هوى النفس وحظها؛ لأنها إنما تنال بالمجاهدة الشرعية **(فمتى طلبت الحق بالعقل)** المذكور

---

(١) "ب" متعلق بالكشف.

(٢) "ب"كشف سره.

(**فقد ضللت**) عن الوصول إليه (**ومتى طلبت الآخرة بالهوى فقد ضللت**) عن الوصول إليها.

(**المؤمن**) الكامل، وهو من تطهر من الشركين: الظاهر والخفي (**ينظر بنور الله**) أي[1]: ما منٌّ به عليه من الجود؛ إذ به تنكشف الأشياء له، ولآية: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنعام:١٢٢] وفي الخبر: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»[2].

(**والعارف**) هو المستغرق به عما سواه (**ينظر به**) أي: بنور الله (**إليه**) لانكشاف حجاب الغفلة عن قلبه (**ما دمت أنت معك**) أي: مع نفسك غير مستغرق بنا (**أمرناك**) أي: كلفناك بالمجاهدة؛ لأنك في محل الفرق (**فإذا فنيت**) باستغراقك بنا (**عنك**) أي: عن نفسك (**توليناك**) بالرعاية والعناية والفضل وغيرها ما لم تصل إليه بكسب؛ لأنك في الجمع (**فما تولاهم**) أي: السالكين (**إلا بعد فنائهم ما دمت أنت**) أي: ترى لك وجودًا وعملا وإرادة.

(**فأنت مريد، فإذا أفناك عنك**) مولاك (**فأنت مراد**) فالإرادة: هي إفراد الحق بالطلب والإعراض عن كل ما سواه، والمريد: هو السالك المبتدئ الذي يرى له وجودًا وعملاً، والمراد: هو الملحوظ بعين العناية الربانية المستغرق بالله تعالى، فالمريد حامل للكد، والمراد محمول عنه الكد، وشتان بين الحامل المكدود، وبين المحمول المعان.

(**اليقين الأدوم**) وهو عليها صفة كاشفة (**في غيبتك عنك ووجودك به**) تعالى، وذلك بأن تغيب عما سواه تعالى، ولليقين ثلاث حالات: بداية، ووسط، ونهاية[3]، على منوال علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين[4]، فبداية قد لا تدوم لبقاء الرسوم، ووسطه ونهايته يدومان، لكن الأخير أدوم؛ لأنه مشاهده يكشف السر، وهي أعلى مراتب اليقين، لكن بيقينك مع الله فقط.

وتأمل (**فكم بين ما يكون بأمره**) تعالى من أنواع العبادات والمجاهدات التكليفية (**وبين ما يكون به**) تعالى من أنواع المنن والنفحات الربانية (**إن كنت قائمًا**

---

(١) "أ" إلى.

(٢) تقدم.

(٣) بداية وتوسط ونهاية.

(٤) علم اليقين وعينه وحقه.

بأمره) تعالى بالعبادة؛ أي: قائمًا بها (**خضعت لك الأسباب**) بأن يسرها الله تعالى لك.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق:٢ - ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤].

(**وإن كنت قائمًا به**) تعالى؛ بأن لا تشهد غيره (**تضعضعت**) أي: خضعت وذلَّتْ (**لك الأكوان**) فلا يحجبك شيء منها عن مشاهدة مكونها، فأهل الطريق: إمَّا عالم بالله فيشهد الأشياء بالله، وإمَّا عالم بالأحكام، وهو السالك بالنظر والاستدلال، فيشهد الله بالأشياء، والأول من الصديقين والشهداء ولسانه الجمع، والثاني من الصالحين ولسانه الفرق.

ولما كان بين مقامات السالكين تفاوت بينها[1] قال: (**أول المقامات الصبر**) أي: الرجوع إليه تعالى وحبس النفس (**على مراده**) تعالى، ويقال: الصبر حمل[2] النفس على مشاق التكليف طلبًا للجزاء عليها (**وأوسطها الرضا**) وهو: الطمأنينة (**بمراده**) تعالى؛ أي: من حيث إرادته، أو إن طلب الرضا به فلا ينافيه حرمة الرضا بالكفر ونحوه (**وآخرها أن تكون**) أنت (**بمراده**) تعالى، فتكون عارفًا.

فالعبد الصابر في مقام العبادة والراضي في مقام العبودية، وكلا منهما يرى له وجودًا وعملاً، والعبد إذا صبر رضي، وإذا رضي كان بمراد الله تعالى، فيفنى عن فعله وقوله وقوته بمشاهدة من الحضرة الربانية؛ لأن من فني عن ذلك بقي بالله، فكان سمعه وبصره وغيرها مما في خبر: «**كنت سمعه الذي يسمع به**»[3]، ومقام الفناء مقام الخواص، وهو مقام العبودية، وأمَّا العارف، فهو في مقام العبودية لا يرى له وجودًا ولا عملاً؛ وذلك لأنه قائم بالله لله لا بنفسه لنفسه، ولا بنفسه لله.

(**العلم**) العملي (**طريق العمل**) إذ لا يصح عمل إلا بالعلم، وبكيفية طريق العمل (**والعمل طريق العلم**) اللدني.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة:٢٨٢].

---

(١) "ب" ولما كان بين مقامات السالك بعد التوبة متفاوتة بينها.

(٢) "ب" ويقال حمل.

(٣) تقدم.

وقال ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»[١].

(والعلم) اللدني (طريق المعرفة) بالله؛ لأنها لا تحصل إلا بما أمدك الله به من التعرف، وهو تعالى يتعرف إلى عباده بقدر ما وهبهم من العلم اللدني، ومن تعرف إليه عرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه، ومن عرف ربه جهل نفسه، فالتعرف يتعلق بمعرفة النفس، ومعرفة النفس تتعلق بمعرفة الرب، ومعرفة الرب تتعلق بجهل النفس، ففي الخبر: «أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه»[٢].

(والمعرفة) بالله (طريق الكشف) عن حقائق الأشياء (والكشف طريق الفناء) عمّا سوى الله تعالى؛ بأن لا ترى غيره؛ لأن العبد إذا علم أنه مخلوق وأن كل مخلوق فان شاهد ببصيرته أنه فان، وفناء الفناء ألّا ترى فناءك، وهذا يسمى بالبقاء المفسر برؤيتك: «إن الله يحيط بكل شيء».

والفناء يكون عملاً ثم عينًا ثم حقًا؛ لأن الفناء ثلاثة أقسام: فناء في الأفعال لقولهم: «لا فاعل إلا الله»، والأقسام الثلاثة مراده بقول بعض العارفين: «من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل».

(ما صلحت لنا) بفتح اللام أشهر من ضمها؛ أي: لا تصلح لنا ما دامت (وفيك بقية لسوانا) دنيوية أو أخروية؛ لأنك حينئذ ما وصلت بعد لمقام العبودية الذي هو القائم بالله لله[٣]؛ لأنك أذنبت ذنبًا عظيمًا، إذ من الذنوب العظيمة عنده أن ترى لك وجودًا مع الله تعالى، وإليه أشار الجنيد بقوله: «وجودك ذنب لا يقاس به ذنب»، فما دمت ترى وتشهد له لك وجودًا معه لا تصلح له.

(فإذا حولت السوى[٤]) عنك؛ بأن خرجت عنه حتى عن الفناء (أفنيناك) بعلمنا ونورنا (عنك) حتى صرت لا ترى لك وجودًا صلحت لنا وصرت محلاً لسرنا الرباني[٥]، وهو معنى يعجز الفكر عن تصوره[٦]، واللسان عن التعبير عنه (فصلحت)

---

(١) تقدم. (٢) ذكره الحجة الغزالي في ميزان العمل (ص٧).

(٣) "ب" لأنك حينئذ لا تصلح لمقام العبودية الذي هو المقام بالله لله.

(٤) "أ" (فإذا حولت عن السوى).

(٥) "ب" حتى صرت لا ترى لك وجودًا، بل ترى الله الوجود وهو لله، فصار قلبك محلاً لسرنا الرباني.

(٦) "ب" عن تصورها.

حينئذ (لنا فأودعناك سرنا) فما صلح السر إلا بعد أن أفناه عنه مولاه وأبقاه به، فصار حرًا عن رق الغير ومحلاً للأسرار، فحاصل المطلوب التجرد عما سواه تعالى.

(إذا لم يبق عليك حركة لنفسك) يخرجها عنك (كمل يقينك) لاستغنائك به تعالى (وإذا لم يبق لك وجود عندك) بأن فنيت عما سواه تعالى (كمل توحيدك) بعجزك عن إدراك ما حصل لك من المعرفة، فهي الغاية التي لا تدرك، وإليه الإشارة بخبر: «سبحانك ما عرفناك حق معرفتك»[1]، وخبر: «من عرف الله كلَّ لسانه»[2].

(أهل الباطن) أي: الحقيقة (مع اليقين) لخلوصهم من وهم الرسوم، وانكشاف العلم اللدني لهم، فعاينوه وشاهدوه، فصاروا على يقين ثابت جازم، وابتداء اليقين المكاشفة، ثم المعاينة، ثم المشاهدة، ولذلك قال عامر بن عبد قيس: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا».

(وأهل الظاهر) أي: أهل[3] الشريعة (مع الإيمان) بالغيب لا بالمشاهدة؛ لبقاء الرسوم بوقوفهم مع ظاهر متعلقات الإيمان (فمتى تحرك قلب صاحب اليقين) بغير الأمر؛ بأن التفت لحظة من حال أو مقام غيره (نقص إيمانه) عن أهل الباطن (ومتى لم يخطر له خاطر) لغير الله (كمل يقينه) فعلى صاحب اليقين المراقبة على الدوام، وهي مراعاة السر بملاحظة الحق مع كل خطرة، وشبه حاله بحال الهرة في حال مراقبتها الصيد، فمتى اختلت المراقبة اختل الغرض.

(ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان) بالغيب (بغير الأمر) الإلهي (نقص إيمانه) لأن الإيمان ينقص بالمعصية كما يزيد بالطاعة أخذًا من خبر: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[4] (ومتى تحرك بالأمر) الإلهي وقام به (كمل إيمانه) بالله تعالى.

---

(١) قد أورد تلك العبارة المشايخ الكبار في أذكارهم؛ وقام هو بشرحها وتحقيق صحتها بل والطعن فيمن أنكرها، وقد شرحها: الشيخ محمد قطب الدين الأزنيقي المتوفى ٨٨٥ هـ.

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/١٥٣٠).

(٣) "ب" أي الشريعة.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٧/٤١٦، رقم ١٣٦٨٦)، ومسلم (١/٧٧، رقم ٥٧)، وأبو داود (٤/٢٢١، رقم ٤٦٨٩)، والترمذي (٥/١٥، رقم ٢٦٢٥) وقال: حسن صحيح غريب. وأحمد (٢/٤٧٩، رقم ١٠٢٢٠)، والبخاري (٦/٢٤٩٧، رقم ٦٤٢٥)، وابن حبان (١٠/٢٦٠، رقم ٤٤١٢).

(معصية أهل اليقين كفر) عندهم للإخلاص به، ولأن ابن الفارض قال:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوًا قضيت بردتي

ولأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فعلى قدر الصعود يكون الهبوط، ومثل ذلك يكلم عن غير أهل اليقين (ومعصية أهل الإيمان نقص) فيه لما مر.

واعلم أن الخاطر: ما يرد على القلب بإرادة الرب، وهو خمسة أقسام: خاطر رباني وهو هاجس، والعلم اللدني لا يخطئ أبدًا، وخاطر ملكي وعقلي ونفسي وشيطاني.

* فالرباني: يرد من حضرة الربوبية، ومن الحضرة الرحمانية، ومن الحضرة الإلهية، والفرق بينها أن الرباني يرد بالجلال، والرحماني بالجمال، والإلهي بالكمال، والأول يمحق ويفني، والثاني يثبت ويبقي، والثالث يصلح ويهدي، والعبد يستعد في الجلال بالصبر، وفي الجمال بالشكر، وفي الكمال بالسكينة، والثلاثة للعارفين.

* والخاطر الملكي والعقلي: هما لأهل المجاهدة.

* والنفساني والشيطاني: لأهل الغفلة، ومراتبه خمسة أيضًا:

- هاجس: وهو ما وقع في النفس ابتداء ولم يجل بعد في النفس.

- وخاطر: وهو ما تردد بعد وقوعه ابتداء وجال في النفس، لكن صاحبه لم يتحدث بفعل ولا عدمه.

- وحديث نفس: وهو ما جال وتردد في النفوس وحدثته نفسه بأن يفعل أو لا يفعل من غير ترجيح.

- وهمًا: وهو الثالث بعينه، لكن بترجيح الفعل أو الترك ترجيحًا ليس بقوي، وإن قوي ترجيح الفعل حتى صار تصميمًا لا يمكن معه الرجوع؛ وليس إلا المباشرة معه، فهو عزم ونية وهو المرتبة الخامسة.

فالثلاث الأول لا يعاقب عليها إن كانت في السر، ولا يثاب عليها إن كانت في الخير، وأمَّا الرابع منها فيثاب إن كانت في الخير ولا يعاقب إن كانت في السر، وأمَّا الخامس منها فيثاب عليه إن كانت في الخير ويعاقب عليه إن كانت في السر[1].

(المتقي) في بدايته (مجتهد) في عبادته بصدق وإخلاص، فيهتدي به إلى

(١) في "ب" والخاطر الملكي والعقلي هما لأهل المجاهدة، والنفساني والشيطاني لأهل الغفلة، والخاطر إذا مكث صار همًا، وإذا تمكن ثانيًا صار مخرجًا، ويصير قبل الشروع قصدًا؛ ومع أول العقل نية.

طريق الحق.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وقال بعضهم: «من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شمة».

(والمحب) الصادق (متكل) أي: معتمد على محبوبه؛ لأنه لما دخل حضرة المحبوب بعد المجاهدة ورأى منّة الله عليه فني عن عمله وعلمه ووجوده، واتكل على الله تعالى، وأمّا المجتهد فهو واقف مع علمه وعمله ووجوده بخلاف المحب، فإنه باستغراقه بمحبوبه فهو في راحة مشهودة له[1].

(والعارف) بالله (ساكن) إليه لا يتحرك إلا بإذنه، ولا يخطر له خاطر إلا بإذنه، (والموجود) بالله (مفقود) عما سواه تعالى، فعلم أن (لا سكون لمتقي) لتحركه في اجتهاده في عبادته (ولا عزم لمحب) لأنه لا يرى في الوجود إلا الله، ولأنه فني عن وجوده وإرادته بوجود الله وإراداته، فلا عزم له يراه (ولا حركة لعارف[2]) لأنه فني عن مراده بمراد محبوبه (ولا وجود لمفقود) أي: لمن غاب عن نظره بوجوده.

واعلم أن أول المقامات: التوبة، وآخرها: المعرفة المترتبة على المحبة، فالمحبة بعد اليقين كما قال: (ما تحصل المحبة إلا بعد اليقين) بوجود المحب؛ إذ كيف يحب الشيء قبل معرفته (المحب الصادق[3]) في محبته[4] (قد خلا قلبه مما سواه) تعالى؛ لأن حقيقة المحبة شهادة المحبوب، ولا تحصل إلا بعد الفناء وطهارة القلب عما سواه تعالى (وما دام عليه بقية محبة لسواه) ولو للمحبة (فهو ناقص المحبة) لله.

(من تلذذ بالبلاء) وصبر عليه لما رآه من الأجور (فهو موجود، ومن تلذذ) وفرح (بالنعمة فهو موجود، فإذا أفناهم عنهم) الله تعالى؛ أي: أفنى المتلذذ بهما أو عن

---

(١) "ب" فني عن عمله ووجوده واتكل على الله تعالى، فالمجتهد واقف على عمله، ووجوده، والمحب مفني عنهما باستغراقه بمحبوبه، فهو في راحة بشهوده له.

(٢) "ب" جاء المتن في النسختين (ولا حركة لمحب) مع أن المتن الصحيح - على الأرجح - جاء فيه (ولا حركة لعارف).

(٣) جاءت الجملة في المتن المعتمد (المحب الصادق)، وأما في النسختين المطبوعة والمخطوطة للشرح فقد جاءت الجملة (والمحب الصادق).

(٤) "ب" في حبه.

المتلذذ بهما (ذهب التلذذ بالبلاء والنعمة) لأن مشاهدة المحبوب دهشة، والمدهوش من البلاء والإنعام.

(المحب أنفاسه) أي: كلامه (حكمة) لأنه شاهد محبوبه، يسمع منه ويفهم عنه[1]، فلا ينطق إلا بالحكمة؛ لأنها الفهم عن الله (والمحبوب) لكونه قد تزايد قربه لربه بزيادة حبه له (أنفاسه قدرة) سائرة في الأكوان بقدرة الملك الديان، فالمحب سالك، وهو أعلى وأخص من المريد؛ لأن المحبوب مراد، والمحب مريد، ولأنه مجذوب أبتر، وسالك أبتر، وهما مذكوران في المطولات، وعابد ناسك وهو الناظر لوجوده، الطالب للعوض عن عمله[2] كما أشار إليه بقوله: (العبادات للمعاوضات).

وقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام:١٦٠] (والمحبة للقربات) أي: للتقرب إليه تعالى بصدق وإخلاص.

واعلم أن المؤمنين خمسة أقسام:

فالأولان: عوام المؤمنين وإن تفاوتا.

والثالث: خواصهم.

والرابع: خواص خواصهم، وهم: المحبون.

والخامس: أخص خواصهم، وهو: العارف بالله تعالى، الفاني بالله في الله لله.

ومن ثم قال الله تعالى في حديث قدسي: (**أعددت لعبادي الصالحين**) وهم العارفون بالله تعالى (**ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**) وهؤلاء هم عبيد المنعم لا عبيد النعمة، وهم قليلون.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣].

وهم مع الخلق بأبدانهم ومع الحق بقلوبهم، لا يفترون عن مشاهدته طرفة عين، وقال في حديث قدسي أيضًا على ما قاله المؤلف: (**لما أرادوني**) أي: والعارفون بي (**لي أعطيتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت**) وهذا مع ما قبله نتيجة ما أمدهم به من المحبة.

---

(١) "ب" لأنه لا يشهد إلا محبوبه ولا يسمع إلا منه.

(٢) "ب" الطالب لعرض عمله.

(إذا أفناك عن هواك بالحكمة[١]) أي: بالأمر المنزل من حضرة الربوبية إلى عالم حسن العبودية، وهو احتمال الأذى وتركه، بحيث ترى أن ما يجري من الكائنات فعل الله تعالى (وعن إرادتك بالعلم) اللدني (صرت عبدًا صرفًا[٢]) أي: خالصًا له حرًا مما سواه (لا هوى لك ولا إرادة) ولأنك فنيت عن نفسك مما ذكر، تعلمت أن الإرادة إنما هي لله تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠].

(فحينئذ يكشف لك عن نفسك) وعن أسرار الإلهية (فتضمحل) عنك (العبودية) أي: تذهب (في الوحدانية فيفنى العبد) فيها (ويبقى الرب تعالى) فيشهده العبدية.

(الشريعة كلها قبض) لأنها حاملة لأثقال التكليف بالعبادة، والحامل مقبوض مكدود (والعلم) اللدني (كله بسط) لأنه عن كشف ومشاهدة، وصار العمل عند صاحبه عادة لا ثقل فيها ولا تكلف؛ لأنه لم ير له وجودًا في عمله، بل يراه فضلاً من الله ورحمة، فانبسط لذلك (والمعرفة) بالله (كلها دلال) يتدلل بها العبد على ربه كتدلل المرأة على زوجها؛ بأن تزيده جرأة تشكل حسنًا كأنها تخالفه، وما بها خلاف، وهذا محض جود وافتعال منه تعالى لا غرض له فيه يبعثه عليه، ومقام الدلال يقع فيه الانبساط في الأقوال والأفعال.

(طريقتنا) أي: الموحدون (كلها محبة لا عمل) مكدود منظور إليه (وفناء لا بقاء) حاصله: إن طريقهم محبة وفناء لا عمل وبقاء؛ لأنك (إذا دخلت في العمل[٣]) وهو العبادة (كنت لك، وإذا دخلت في المحبة) لله وأخلصتها (كنت له) تعالى؛ إذ (العابد راه لعبادته) لأنه مجاهد فيها وفي نفسه (والمحب راء لمحبته[٤]) لأنه خاضع لعظمة محبوبه، متجرد عما سواه، والعارف فوقهما؛ لأنه أحرز ما أحرز، وزاد عليهما بعلوم لدنية ومعارف إلهية وواردات روحانية.

---

(١) "ب" (إذا أفناك عن هواك بالحكم).

(٢) "ب" (تصير عبدًا صرفًا).

(٣) "ب" حذف الشارح شيخ الإسلام الأنصاري حرف الواو الذي يسبق جملة (إذا دخلت في العمل) ليستقيم الشرح، أما المتن المعتمد فقد ورد فيه (وإذا دخلت في العمل).

(٤) قال الشارح: (إذا العابد رأى لعبادته) لأنه مجاهد فيها وفي نفسه (والمحب رأى لمحبته) والصواب على الأرجح - هو ما ورد أعلاه. طبقًا لما ورد في الشرح المعتمد والله الهادي إلى الصواب.

(إذا عرفته) تعالى؛ بأن عرفت أنه يراك وأنه الفاعل، ولم تنظر إلى عملك ولم تطلب له عوضًا (كانت أنفاسك به) تعالى (وحركاتك له) لأنك متخلق بأخلاقه (وإذا جهلته) تعالى؛ بأن لم تكن كذلك (كانت حركاتك لك) لأنك شهدتها صادرة منك، بخلاف العارف فإنه لا يشهد[1] فاعلاً إلا الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد:١٦].

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦].

(العابد ما) أي: ليس (له سكون) بل حركة؛ لأنه مجاهد كما مر (والزاهد ما) أي: ليس (له رغبة) في غير الله (والصديق ما) أي: ليس (له ارتكان) أي: ركون إلى غير الله؛ إذ الصدق عماد الأمر وبه تمامه (والعارف ما) أي: ليس (له حول، ولا قوة، ولا اختيار، ولا إرادة، ولا حركة، ولا سكون) فهو بالله (والموجود) بالله (ما) أي: ليس (له وجود) مع نفسه؛ لفنائه باستغراقه بالله، وتقدم هذا.

(إذا استأنست به) تعالى؛ بأن شهدته محيطًا بكل شيء خلقًا وعلمًا، وتطهرت من الشرك الخفي (استوحشت) من غيره حتى (منك) لأنك كنت ترى أن ذلك منك.

(من اشتغل بنا) وبعبادتنا (له أعميناه) عن رؤية المعارف لوقوفه مع عمله (ومن اشتغل بنا لنا بصرناه) لرؤيتها؛ بأن كشفنا عنه حجب الكائنات.

(إذا زال هواك) الدنيوي (يكشف لك) أيها السالك (عن باب الحقيقة) الربانية بحيث يغلب على القلب (فتفنى إرادتك فيكشف لك عن الوحدانية) فترى الوجود كله لله بنور يقذفه الله في قلبك (فتحققت به) لفنائك عن غيره تعالى (أنه) تعالى (هو) الفاعل الموجود (بلا أنت معه) فلا ترى إلا هو بعنايته.

(إن سلمت إليه) أمورك، وتركت تدبير نفسك اعتمادًا عليه (قربك) بنظره إليك بعين الرحمة والعناية، كما قال الخليل عليه السلام لما قال له جبريل عليه السلام حين ألقوه بالمنجنيق وأرادوا وقوعه في النار: «ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، وأمّا إلى الله فبلى، قال: سله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي».

(وإن نازعته) بأن لم ترض بقضائه؛ بأن تقول: أفعل كذا ليكون كذا، وإذا لم أفعل كذا لما كان كذا (أبعدك) أي: حجبك عن حضرة أنسه.

(إن تقربت إليه به) بألا ترى لك وجودًا وعملاً مع وجوده وعمله (قربك) إليه

(١) "ب" فلا يشهد.

بالإنعام والفضل (وإن تقربت إليه بك) بأن رأيت لك ذلك (أبعدك) أي: حجبك وأشغلك بك.

(إن طلبته ذَلَّك) أي: جعلك ذليلاً بأن طلبت منه بعملك الدرجات والكرامات والمقامات[١] (كلفك) للعمل وأتعبك؛ لأن من طلب الأجرة كلف بالعمل وطولب به[٢].

(وإن طلبته له) تعالى (دللك) أي: جعلك من أهل الدلال بمحض جوده وأفضاله كما مر بيانه (قربك) إليه تعالى (خروجك) بفنائك (عنك، وبعدك[٣]) عنه (وقوفك معك)؛ لأنك حجاب، وعندهم: «إن حسنات الأبرار سيئات المقربين» كما مر، وهذا قريب من قوله: (إن جئت بلا أنت قبلك) وتولاك بلطفه (وإن جئت بك) بأن رأيت لك وجوذا وعملاً (حجبك) عن حضرة أنسه.

(العامل) أي: والعامل في عبادته (لا يكاد يخلص من رؤية عمله) لطلب الأجرة عليه (فكن من قبيل المنة) أي: منة الله وتفضله عليك (ولا تكن من قبيل العمل[٤]) لتسلم من رؤيته، وتشهد أنه لا فاعل ولا موجود إلا الله فتكون من العارفين؛ لأنك (إن عرفته) أنه الفاعل الموجود (سكنت) إليه في حركاتك وسكناتك، فتصير إن نطقت نطقت به وإن سمعت سمعت منه، وهكذا فلا لسان لك ولا أثر، ولهذا قيل: «علامة العارف به أن يكون فارغًا من الدنيا والآخرة».

(وإن جهلته تحركت) برؤية عملك وبطلبك الأجرة عليه (فالمراد) من ذلك كله (يكون) هو تعالى عندك (ولا تكون) أنت، بل تفنى عن غيره تعالى.

(العوام) وهم: العباد الذين هم دون عوام العارفين (أعمالهم متهمات) لطلبهم الأجرة عليها، فهي مشوبة بحظوظهم، وهم كالأجراء إن أعطوا الأجرة عملوا وإلا فلا (والخواص) وهم الفانون عن حظوظهم (أعمالهم قربات) لا نظر لهم إلى عمل ولا إلى ثواب، بل إلى القرب منه تعالى (وخواص الخواص) وهم: الفانون بالله لله،

---

(١) "ب" أي جعلك من أهل الدلال بأن طلبت منه الدرجات والكرامات والمقامات.

(٢) "ب" لأن من طلب الأجرة طولب بالعمل.

(٣) إن أصل المتن المعتمد قد وردت الجملة فيه (عنك.وبعدك) في حين أن الأصل الذي اعتمده الشارح قد جاء فيه (منك وبعدك).

(٤) "ب" (عامل) أي: والعامل في عبادته لا يكاد يخلص من رؤية عمله لطلب الأجرة عليه (فكن من قبيل المنة) أي: منة الله وتفضيله عليك (لا من قبيل العمل).

الباقون من الله لله (أعمالهم درجات) يصعدون فيها، فلا يشهدون لهم عملاً ولا قربًا، بل أفناهم الله عنهم وأبقاهم له لأداء حقوقه.

(وكلما اجتنبت) أيها السالك (هواك) وحظك (قوي إيمانك) فيكشف لك سر الحكمة الربانية والقدرة الإلهية، وإنه الفاعل الموجود (وكلما اجتنبت ذاتك) أي: فنيت عنها وعن سائر الخلق، وتخلقت بمقام البقاء، بأن رأيت الله محيطًا بكل شيء (قوي توحيدك) وعلمت أن التوحيد توحيد في الأفعال، وتوحيد في الصفات، وتوحيد في الذات، والأول: توحيد العوام، والثاني: توحيد الخواص، والثالث: توحيد خواص الخواص.

(الخلق) مع وقوفك معهم (حجاب) عن رؤيته تعالى (وأنت) مع ذلك (حجاب) عنها أيضًا (والحق) تعالى (ليس بمحجوب) عنك؛ إذ لا قدرة على حجبه (وهو تعالى محتجب عنك بك) لنظرك إلى وجودك وعلمك (وأنت محجوب عنك بهم) لأنك إذا نظرت إلى وجوده تعالى حجبت به عنك (فانفصل) أنت (عنك) أي: عن وجودك وحولك وقوتك (تشهده) أي: تشهد ما من به عليك من النعم والجود (والسلام) عليك ورحمة الله وبركاته.

شرح الرسلانية

تأليف

الشيخ علوان علي بن عطية الحموي

المتوفى سنة ٩٣٦هـ

باعتناء وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

ترجمة المصنف

هو شيخ الإسلام، علوان علي بن عَطيّة الهيتي الحموي.

الشيخ علوان الحموي - هو عالم متصوف من أعلام القرن العاشر الهجري - كان واحداً ممن تحدث عنه الناس وشغلهم سنين طويلة بعد مماته، حتى أصبحت حقيقته أغرب من الخيال. وفي حديثي عنه سوف أبرز الجانب الرصين من شخصيته العلمية دون سواها، وعلاقة ذلك بالعصر الذي عاش فيه، مبرزاً دوره ناقداً اجتماعياً راصداً بعض ضلالات عصره.

فمن هو الشيخ علوان الذي عرفه الناس ولياً عارفاً وقطباً موصولاً وصاحب أسرار وكرامات، وجهلوه فقيهاً محدثاً وباحثاً اجتماعياً وصاحب مؤلفات وأشعار حسان.

يذكر أصحاب التراجم أن الشيخ علوان هو: علي بن عطية بن الحسن بن محمد بن الحداد الهيتي. ولقبه علاء الدين، والحمويون لا يعرفونه إلا باسم الشيخ علوان ويرجع نسبه إلى الشيخ إبراهيم الحافظ - وهو عالم ومصنف حموي عاش في القرن التاسع عشر - في واحد من مؤلفاته إلى محمد بن الحنفية أحد أحفاد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، غير أنه لم يذكر المصدر الذي اتكأ عليه في إيراد هذه النسبة.

أما أصله فيعود إلى مدينة هيت العراقية الواقعة غرب الفرات. ويذكر صاحب خلاصة الأثر اسم الشيخ علوان منسوباً إلى أربل.

وقد تفرد الشيخ إبراهيم الحافظ فذكر في كتاب مخطوط أن الشيخ علوان قد نزل حماة في حدود التسعماتة غير أني أُرجح أن جده الثالث ابن الحداد وفد إلى بلاد الشام واستقر في حماة، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أبناء العراق الذين هاجروا إلى أصقاع شتى من أرض الوطن العربي مؤثرين حياة الأمن والاستقرار على حياة الخوف والدمار الناجمين عن اجتياح المغول لحاضرة الخلافة الإسلامية، ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب تاريخ حماة من أن مولد الشيخ علوان كان في حماة في محلة باب الجسر. كما يذكر بعض أصحاب التراجم سنة ولادته فيجعلونها في

الثالثة والسبعين بعد الثمانمائة من الهجرة النبوية (١٤٦٨م)، أي في الشطر الثاني من عصر السلطنة المملوكية، وهي الفترة التي استيقظ فيها الغرب من رقدته الطويلة في العصور الوسطى وبدأ نهضته الحديثة، في حين كان الشرق العربي - وبخاصة مصر والشام - يعاني من فساد النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي عشية الفتح العثماني للوطن العربي.

كانت حماة في ذلك الوقت إحدى نيابات السلطنة المملوكية، ورغم مظالم نواب السلطنة فما زالت المدينة تعيش ذكريات العصر الأيوبي، وتنعم بمواريثه العلمية من مؤلفات ومدارس يصيب منها طلاب العلم بغيتهم، من أدب ودين وتاريخ وسائر أنواع المعرفة.

وقد انصرف الشيخ علوان منذ نشأته الأولى إلى العلم، وأخذ عن أشياخه في حماة ما يساعده على فهم الدين وتذوق الأدب. ثم جدَّ في الطلب فسافر إلى حلب ودمشق وغيرهما من مدن الشام مستزيداً من ثمرات العلوم العقلية والنقلية، وكان من عادة طالب العلم أن ينشد الرحلة، ويجلس إلى عدد من كبار العلماء في مسجد أو أكثر، فيتلقى عنهم ويناظرهم بمحفوظاته، حتى إذا نضج اختبره واحد منهم أو أكثر فيما درس عليه، ولربما أجازه بالفتوى أو التدريس أو رواية الحديث. غير أن أصحاب التراجم لم يذكروا للشيخ علوان إجازة عن واحد من شيوخ عصره.

وقد ذكر الشيخ علوان في مؤلفاته نفراً من شيوخه الذين أخذ عنهم أو قرأ عليهم أو سمع منهم. كما أتى على ذكرهم ابن الحنبلي (٩٧١هـ) صاحب در الحبب، وابن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ) صاحب شذرات الذهب، ونجم الدين الغزي (١٠٦٣هـ) صاحب الكواكب السائرة، وهم كثرة منهم:

شمس الدين البازلي العمادي (٩٢٥هـ) المدرس في المدرسة المخلصية بحماة.

والحافظ عثمان بن محمد الديمي (٩٠٨هـ) وكان شيخ الحديث في زمانه.

وابن الناسخ الطرابلسي (٩١٤هـ) قاضي المالكية في طرابلس الشام.

والقاضي القطب الخيضري (٨٩٤هـ) العالم بالتراجم والأنساب والحديث.

والمحدث برهان الدين الناجي (٩٠٠هـ).

وفقيه حلب الشمس السلامي (٨٧٩هـ) وغيرهم.

ولما أنس الشيخ علوان من نفسه القدرة على مباشرة التعليم عمل مقرئاً للأولاد في بيت بحارة باب الجسر (جسر الهوى في حماة)، وجمع إلى التعليم إلقاء

المواعظ والإرشادات الدينية في المسجد، وكان يلجأ إلى سرد القصص والأخبار المشوقة طمعاً بإرضاء العامة من الناس، لكنه عدل عن ذلك واستغفر الله. جاء في كتابه: «نسمات الأسحار في كرامات الأولياء والأخيار» قوله: "والآن أستغفر الله وأسأله التوبة النصوح والعفو والمسامحة، فقد كنت أعمد إلى تحصيل الأخبار والحكايات المطربة للعوام، المغضبة للملك العلّام، لأن ما يؤدي إلى المعصية معصية".

أما نقطة الانعطاف في تاريخ حياة الشيخ علوان فتبدأ يوم سلك طريق التصوف على يد الشيخ علي بن ميمون (٩١٧هـ) وهو شيخ مغربي شاذلي الطريقة اجتمع به في حماة - وقد حدثنا الشيخ علوان بأنه كان يعظ من الكراريس بأحاديث الرقائق ونوادر الحكم، فسمع الشيخ علي بن ميمون يقول: يا علوان.. عظ من الرأس، ولا تعظ من الكراس. وصاحب شذرات الذهب الذي أورد هذا الخبر لا يحدد لنا وقتاً لاجتماع الشيخ علوان بابن ميمون.

ويذكر صاحب در الحبب نقلاً عن تاريخ جار الله بن فهد المكي أن الشيخ علوان توجه للإقامة في «بروسا» من بلاد الروم (الأناضول) سنة ثمان وتسعمائة يصحبه علي بن أحمد الحموي الكيزواني، وأقاما عند الشيخ علي بن ميمون نحو شهرين، بينما يروي صاحب الكواكب السائرة أن الشيخ ابن ميمون لم يشتهر في بلاد العرب إلا بعد رجوعه من بلاد الروم إلى حماة سنة إحدى عشرة وتسعمائة ومكث فيها قرابة سنتين. ويستفاد مما تقدم أن للشيخ علي بن ميمون إقامة سابقة في حماة قبل عودته إليها ثانية سنة ٩١١هـ وأصحاب التراجم لا يذكرون ذلك. ونحن نستطيع أن نستظهر مما ذكرناه آنفاً أن اللقاء الأول بين الشيخ علوان وابن ميمون كان في حماة قبل سنة ٩٠٨هـ. على أن واحداً من المؤرخين يجعل إقامة ابن ميمون في بلاد الشام أول مرة عام ٨٩٤هـ بعد قدومه من المغرب.

ومن المؤكد أن كليهما كان موضعاً لثناء صاحبه، فقد نقل عن ابن ميمون أنه قال: "استمسكوا بهذا الرجل، فوالله ليسخرنّ الله له ملوك الأرض اعتقاداً وانقياداً، وليملأن الله ذكره في البلاد شرقاً وغرباً". أما الشيخ علوان فقد ألّف كتاباً بعنوان «مجلى الحزن عن المحزون في مناقب علي بن ميمون» دلالة على ولائه لشيخه. واعترافاً منه بفضله بعد موته. ويعدّه الشيخ علوان المجدد في المائة التاسعة وإن كان الجلال السيوطي يدعي أنه هو المجدد فيها. وبعد أن استكمل الشيخ علوان علومه الدينية من دراسة الكتاب والسنة ومعرفة الأصول، وفهم كامل لمذهب الإمام الشافعي في الفقه، أخضع نفسه لألوان الرياضة والمجاهدة تزكية لها، وتطهيراً لقلبه

من أدران الشهوات، مقتدياً بشيخه علي بن ميمون، ومعتمداً على كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي الذي استطاع أن يحبب أهل السنة بالتصوف عندما جعل منه طريقاً ذوقياً للمعرفة اليقينية والسعادة الحقيقية.

ويذكر صاحب خلاصة الأثر أن الشيخ علي بن ميمون تعرض لغضب العامة في حماة، فطعن فيه الجهّال لأنه أشغل الشيخ علوان بالذكر ومنعه عن نفع الناس. كما يذكر صاحب تاريخ حماة أن الشيخ علوان أصبح في بعض الأيام فرأى مسجده مهدماً، ولا قوة له على دفع هادميه، فرحل عن حي باب الجسر إلى حي العليليات، وقضى فيه بقية حياته.

ومن المرجّح أن هناك تياراً معاكساً لطريقة الشيخ في المدينة يتزعمه نفر من أهل الجاه والنفوذ - من أتباع الطريقة القادرية - ولم يكن الشيخ قادراً على دفعه أو الوقوف في وجهه، فانصرف عنهم، ودعا على ظالميه، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب. وأهل حي باب الجسر بحماة ما يزالون يرددون كلما نزل الخراب بمنازلهم: "أصابتنا دعوة الشيخ علوان".

على أن هذه المحنة سرعان ما انحسرت موجتها، وفلّت حدتها، وبدأ نجم الشيخ بالسطوع.. حتى أصبح ملجأ القوم ومعقد رجائهم. وفي نقش على أحد الأعمدة تحت قبة الخزنة في الجامع الكبير بحماة شفاعة به في العفو عن جعالة ختن في عهد الكافل السيفي خاير بن عبد الله الأشرفي سنة ٩١٨هـ بحضور (قضاة القضاة وأكابر الدولة الخاص والعام وقد ورد اسم الشيخ علوان في النقش الحجري منعوتاً بـ (الشيخ الصالح الزاهد المبارك علاء الدين الشهير بعلوان). وكانت حماة آنذاك تعاني من فداحة الرسوم المفروضة على سكانها من قبل المماليك، كما كانت عرضة لسنوات الغلاء المتعاقبة٩٢٢ - ٩١٩ - ٩١٨ - ٩١٤ - ٩١٢ هـ. وفي السنة الأخيرة أي ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م سقطت بلاد الشام بأيدي العثمانيين إثر انتصارهم على جيش المماليك في معركة مرج دابق، ثم تلاها سقوط مصر مركز السلطنة المملوكية في أعقاب معركة الريدانية ١٥١٧م، وبذلك دخلت الشام طوراً جديداً.

وقد تعاقب على حماة في الفترة الأخيرة من حكم المماليك عدد من نوّاب السلطنة، وكانت نيابتهم فيها قصيرة الأجل، نذكر منهم: أركماس، دولتباي، يخشباي، قانصوه المشهور بابن سلطان الجركس، قانصوه اليحياوي، سيباي، جانم الجركسي، سودون الدواداري، خاير بن عبد الله الأشرفي. وكان آخرهم جان بروي الغزالي الذي تواطأ مع العثمانيين، وكوفئ على ذلك بنيابة دمشق انسحاب المماليك

إلى مصر، ثم أعلن تمرده على العثمانيين، ولم يلبث أن قتل بعد ذلك سنة ٩٢٧هـ.

ولم تكن الحياة الفكرية في حماة بعد دخول العثمانيين إلا جزءاً من تاريخ الحركة الفكرية في بلاد الشام، وتكاد تكون امتداداً لما كانت عليه في العهد المملوكي. فقد خمدت روح الإبداع، وسيطر التقليد على مناحي الفكر المتعددة، وأصبح الإنتاج الفكري في هذه المرحلة محصوراً في المختصرات والشروح والتعاليق حتى قيل: إن هذا العصر هو عصر الشروح والحواشي. لكن الإنتاج الفكري بقي عربياً لم تظهر فيه عجمة العثمانية التركية، وقد أضيف إليه رصيد جديد من أدب الصوفية التي نشطت في هذه الفترة ووجدت لها من سلاطين بني عثمان حماية وتأييداً، وهذا يفسر لنا وجود مجموعة من المؤلفات الفقهية والصوفية للشيخ علوان: بعضها شروح، وبعضها الآخر تلخيصات، أما بعضها الثالث فيمثل جانباً من أدب الصوفية شعراً ونثراً. وهي بمجموعها تعطينا صورة صادقة عن الحياة الفكرية في حماة بعد الفتح العثماني.

وقد جعل الشيخ علوان العلوم مقتصرة على ثلاثة:

١ -العلم بأصول الدين.

٢ -العلم بالفقه.

٣ -العلم بأمراض القلب وعلله وعلاج ذلك.

ولهذا السبب لم تخرج مؤلفاته عن دائرة هذا التصنيف، على أنها لا تخلو من سرد ونقد للظواهر السلبية التي باشرها، أو عاينها، أو سمع بها، وكان موقفه منها محدداً واضحاً. فقد حارب الشيخ علوان ظاهرة التزلف من الحكّام، وأمر أتباعه بمجانبتهم لأنهم ظلمة مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

أما في مجال التصوف فقد أنكر على نفر من المتصوفة اجتهادهم في الذكر والصلاة والتقشف طلباً للكرامة.. من إجابة الدعاء والطيران في الهواء والمشي على الماء. ويرى ذلك من تلبيس الشيطان، كما أثر عنه أنه وصف أحدهم بأنه «متلبس بأمور لا تسلمها علماء النقول ولا تسعها منهم العقول، إذ كان ممن أُقيم في السماع وكشف القناع والضرب ببعض الآلات والبسط والخلاعات". وذكر عنه أنه "إنما يتوسل بما يقوله للعامة من تزويق الكلام ليتوصل إلى أغراضه الفاسدة من منكح ومأكل ومشرب وملبس... ».

وكان يقول في صدد الحديث عن البدعة: "الحازم لا يخفى عليه البدعة من

غيرها إذا وزن ما حدث بميزان الكتاب والسنة، مما وجده فيهما قبله، وما لم يجده طرحه وأهمله".

وقد أكد هذا المعنى في صورة فتوى بعث بها إلى حلب رداً على من استفتى في شأن جماعة خرجوا يطوفون في أسواقها، يحملون الخرز في رقابهم، ويلبسون الفراء المقلوبة، وربما خزموا أنوفهم. وفي در الحبب مقاطع من الفتوى جاء فيها: "وزبدة القول أن توزن هذه الأفعال المرتكبة بموازين الشريعة، فما خرج عن المأذون فيه فهو داخل في المنهي عنه، ولا يخرج ما دخل في حيّز المنهي عن الكراهة أو التحريم. وأما السؤال عن كونها بدعة أو سنة، فإن أريد بالسنة ما تخلّق به المصطفى ﷺ من الأحوال والأقوال والأفعال فلا شبهة أن هذه الأفعال المرتكبة لم يرتكبها ﷺ، ولا أحد من الصحابة الأعلام فكانت بدعة في الدين، وحدثاً لم يعهد في زمن سيد المرسلين.. وإن أريد بالسنة ما هو أعم من ذلك مما أباحه للأمة وشرعه لها، ففي بعض الأفعال ما لا يحرمه الشرع كتعليق الخرز ونحوه، وإن كان خارماً للمروءة مانعاً من قبول الرواية والشهادة..".

وهذه العبارة الأخيرة تذكرنا بعبارة طريفة تصلح للتمثل، وردت على لسان أبي العلاء المعري في رسالة المنيح وهي "الودع في عنق الصدع" والصدع هو الفتيّ من الحمير، ولكن الشيخ علوان لم يذهب في الخرز الزرق مذهب المعري في الخرز البيض، وإنما كان يشير إلى عادة تحلية الأعناق بالأطواق التي كان يتبعها بعض الرجال تقليداً للنساء، وهو أمر مستهجن ينفر منه الذوق السليم، ولذا جعل الشيخ علوان تعليق الخرز خارماً للمروءة ومانعاً من قبول الرواية والشهادة لأنها تشكل جرحاً عند أصحاب الجرح والتعديل.

وللشيخ علوان منظومات شعرية، ومقطوعات متناثرة في تآليفه، وهي تزخر بالنقد الاجتماعي، وقد يرصد فيها بعض الحوادث المعينة التي وقعت في حماة، كما فعل في منظومته الطويلة (الجوهر المحبوك في نظم السلوك) أو يصوّر لنا تجربته مع الناس، فيصدر شعره معبراً عن معاناة حقيقية ملونة بالهموم ومرارة الإحباط.

وللشيخ علوان قصيدة مطولة يفضح فيها مخازي حكم قانصوه الغوري سلطان المماليك، ويكشف عن أنواع المظالم التي كانت سائدة في عصره.

وعندما انصرم حكم قانصوه الغوري وجاء العثمانيون بخيلهم ورجلهم، لم يجد عندهم ما افتقده لدى غيرهم، فنجده ينطوي على نفسه يعزف أنشودة اليأس

والألم على أوتار قلبه الحزين.

وقد ينتقض الشيخ علوان تحت رسيس الألم غاضباً ثائراً ويخاطب السلطان العثماني سليم الأول.

وقد أثارت قصائد الشيخ علوان اهتمام معاصريه ومن جاء بعدهم، فحفظوها وخمّسوا بعضاً منها - كما سوف يأتي معنا - وربما شرحوها وبخاصة ما كان له علاقة بالتصوف. منها شرح ذكره صاحب خلاصة الأثر للشيخ نجم الدين الغزي ٩٧٧هـ اسمه "الهمع الهتان في شرح أبيات الجمع للشيخ علوان".

عاش الشيخ علوان ثلاثاً وستين سنة فقد توفي سنة ٩٣٦هـ ١٥٣٠م في عهد السلطان سليمان القانوني، ودفن في حماة.. في زاوية تحمل اسمه، وأمامها قنطرة في حي العليليات تعلوها كتابة شعرية تشير إلى مقامه الكريم وتاريخ وفاته.

وللشيخ علوان ولدان كلاهما يسمى محمداً، وقد ورثا عن أبيهما طريقته في العلم والفضل، واقتسما في الجمال والجلال، فكان الأكبر جمالياً، والأصغر جلالياً.

يقول أبو الوفاء محمد وهو ولده الأكبر وذو فصاحة وبلاغة في كتاب مخطوط عنوانه «تحفة الحبيب..»: إن أباه كان صادحاً بالحق، لا يخاف لومة لائم، صادق النية، لا يرعوي من بطشة ظالم، مبسوطاً قلمه ولسانه في ميادين البيان، ولكن ولده يروي لنا طرفاً من كرامات أبيه الخارقة، وهي في جملتها نقولٌ عن بعض العوام، أو عن لصوص أعلنوا توبتهم، أو عن رجال مغاربة، أو ثقاة مجهولين. وهذه النقول لا تنهض بالدعوى ولا تقوى على الوقوف أمام النقد، ولذا فهي أقاويل وأخبار لا يحتاج منكرها إلى برهان.

أما صاحب در الحبب فيشهد بأن الشيخ علوان "متفرد بما هو عليه من الكمال، صحيح الدراية، محقق، حافظ، راشد، مرشد.. مجاب الدعوة".

ذلكم هو الشيخ علوان.. إنه صورة حقيقية لرجل عاش في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني. لقد كان إنساناً كغيره من بني البشر، وعاش كما يعيش الصالحون من الناس، على رأسه تاج العلم والفضل، وفي يمينه راية الصواب، ولكنه أصبح بعد موته حديثاً من أحاديث الأساطير.

مصنفاته:

لم يذكر أحد من المؤرخين مؤلفات الشيخ علوان كاملة، وإنما وردت متفرقة في كتب التراجم .وربما بلغت أربعة وأربعين كتاباً، تشتمل على مباحث مختلفة في العقيدة والفقه والسيرة، ومعظمها ما كان في التصوف والفضائل والآداب

الإسلامية. ولم يطبع منها سوى كتابين، أما الباقي فأشتات متفرقة في دور المخطوطات العربية والأجنبية وفي المكتبات الخاصة، تنتظر يداً كريمة تنفض عنها غبار السنين، وتخرجها إلى أنس الحياة أنيقة محققة.. وهذه المؤلفات هي:

آ - في العقيدة:

١ - بديع المعاني في شرح عقيدة الشيباني:

شرح لا يخلو من فوائد تاريخية كذكر مناقب الخلفاء والأئمة وغيرهم من أهل العلم والفضل.

٢ - عقيدة مختصرة:

كتبها الشيخ علوان بعبارات قصيرة تكاد تنوء بمعانيها، ليسهل على الطالبين حفظها.

٣ - هداية العامل:

هذا الكتاب شرح "العقيدة العلوانية" وقد أشار إليه الشيخ علوان في كتابه "فتح اللطيف بأسرار التصريف" بقوله: كما أوضحته في شرح العقيدة المسمى بهداية العامل.

٤ - تحفة الإخوان في مسائل الإيمان.

٥ - فتح الرحمن:

وهو شرح لرسالة التوحيد التي ألّفها رسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن الجعبري الدمشقي المتوفى سنة ٦٩٥هـ.

وفي مكتبة جامعة ليدن بهولندا نسخة خطية من هذا الشرح برقم ٢ - ٧٠٣١ وكتب التراجم لا تذكر عنه شيئًا. وهو كتابنا هذا.

٦ - رسالة في علم التوحيد:

لم يذكر هذه الرسالة واحد من المؤرخين، غير أني وقعت على عبارة في مخطوط "رسالة في علم التوحيد والعقائد" للشيخ إبراهيم الحافظ تفيد بأنه اعتمد على رسالة الشيخ علوان مرجعاً. وتضم مكتبة الشيخ إبراهيم الحافظ نسخة خطية للشيخ علوان لا تحمل اسم الرسالة، ومن المرجّح أنها رسالة التوحيد.

ب - في الفقه الشافعي:

٧ - مصباح الهداية ومفتاح الولاية:

كتاب فقهي على مذهب الإمام الشافعي، ورد ذكره في كشف الظنون وفي شذرات الذهب وفي الكواكب السائرة وفي هدية العارفين وفي الأعلام وفي تاريخ

المعتبر وفي تاريخ حماة، كما أشار إليه نوري باشا الكيلاني صاحب تاريخ المعتبر في قصيدة القسطنطينية التي نظمها في القسطنطينية متشوقاً إلى حماة ومقاماتها يقول فيها:

وبأحمد البدوي وابن عطية   علوان ذي المصباح في علياها

٨ - تقريب الفوائد وتسهيل المقاصد:

وهو مختصر لكتاب "مصباح الهداية ومفتاح الولاية".

وقد قام الشيخ محمد الصغير بن علي المعروف بالشريباتي بشرح "تقريب الفوائد وتسهيل المقاصد" وسماه "نثر الفوائد وجمع الشرائد لإيضاح تقريب الفوائد" "والشارح من علماء القرن العاشر الهجري".

٩ - الأمر الدارس في الأحكام المتعلقة بالمدارس:

١٠- عرائس الغرر وعرائس الفكر في أحكام النظر. طبع ببيروت.

ج - في الحديث الشريف:

١١- شرح إنما الأعمال بالنيات:

د - في التاريخ:

١٢- السيرة النبوية والمعراج. ذكره صاحب الأعلام.

١٣- شرح تائية الصفدي في التاريخ:

أشار إليه صاحب كشف الظنون ويقع في مجلد واحد.

١٤- فضائل الشام ومدينة دمشق:

رسالة مختصرة في فضائل الشام ومحاسنها.

هـ - في التصوف والفضائل:

١٥- الجوهر المحبوك في نظم السلوك:

وهي منظومة ميمية تقع في ١٢٣٣ بيت على بحر البسيط، تضم طائفة من الآداب والفضائل الإسلامية، ويذكر الشيخ علوان أنه أتم نظمها في الثالث عشر من شوال سنة تسعمائة من الهجرة، والقصيدة مطبوعة في مطبعة بدايع الفنون بسوق الأروام بالشام سنة ١٣٢٩هـ ومطلعها:

وقد ذكر الصابوني في تاريخ حماة أن الشيخ علوان اختصرها من كتاب (إحياء علوم الدين للإمام الغزالي). غير إني وجدت فيها نقداً لكثير من مظاهر الفساد التي انتشرت في مدينة حماة إبان القرن العاشر الهجري، وبخاصة ما كان ناجماً عن جهل المتصوفة الذين تمسكوا بالقشور وتركوا العلم والعمل.

ويذكر الشيخ إبراهيم الحافظ في مخطوط "زاد المسافر" أن للشيخ محمد بن الأفندي شرحاً على ميمية الشيخ علوان، ويشير فهرس المدرسة السعدية بحماة - وهي من مدارس القرن التاسع عشر - إلى وجود شرح الميمية في مكتبة المدرسة، ولكن هذا الشرح شبه مفقود.

١٦- تحفة الإخوان في الصوفية بالكشف من حال من يدعي القطبية:

ذكره البغدادي في هدية العارفين وفي إيضاح المكنون.

١٧- مجلى الحزن عن المحزون في مناقب علي بن ميمون:

يقول الشيخ محمد نجل الشيخ علوان :وقد جمع فيه فأوعى، وأجابته القوافي والنكت والإشارات وأنواع الرموز طوعاً.

قلت: وهو قيد التحقيق.

١٨- النصائح المهمة للملوك والأئمة. (طبع بسوريا).

١٩- فتح اللطيف بأسرار التصريف:

وهي رسالة جرى فيها على نهج رسالة شيخه علي بن ميمون التي وضعها في إشارات الأجرومية.

٢٠- شرح تائية ابن الفارض:

قام الشيخ علوان بشرح التائية الكبرى لابن الفارض. «المدد الفائض شرح تائية ابن الفارض» [قيد التحقيق].

٢١- النفحات القدسية في شرح الأبيات الششترية:

وهي رسالة تشتمل على شرح الأبيات المعروفة بالششترية، وقد نقلها أحمد زروق من شرح الحكم العطائية. وكان الدافع لشرحها نظماً ونثراً التماس ملتمس منه أن يتكلم على الأبيات بما يفتح الله به.

٢٢- نسمات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار. (طبع بتحقيقنا - بيروت - وهو من أوائل ما حققت بعلم التصوف).

٢٣- أسنى المقاصد في تعظيم المساجد. (طبع بتحقيقنا - بيروت).

٢٤- السر المكنون في فضائل القهوة والبن.

٢٥- كشف الدين ونزح الشين ونور العين:

وهو شرح قصيدة تائية التصوف لابن حبيب الصفدي المعروفة باسم "سلك العين لإذهاب الغين".

٢٦- السيف القاطع لأهل المراء في قبول جوائز السلاطين والأمراء.

٢٧- منهاج العابد المتقي ومعراج السالك المرتقي:

قصيدة مطولة في التصوف، على بحر الطويل ورويّ القاف، وتعرف بالقافية. وتدور موضوعاتها حول الأخلاق والدين، وقد ذكر الشيخ علوان في مقدمتها أنه نظمها (ليهتدي بها السالك في طريقه) وعدّتها ألف بيت وسبعة.

٢٨- تائية الشيخ علوان: قصيدة في التصوف، وتقع في اثنين وثلاثين وثلاثمائة بيت على بحر الطويل.

٢٩- فصل الخطاب فيما ورد عن ابن الخطاب.

٣٠- منهاج العارفين.

٣١- الجملة الجامعة لعلوم نافعة:

رسالة لم يذكرها أحدٌ، وفي المكتبة الوقفية بحلب نسخة مع مجموع برقم ٥٧ - الوطنية.

٣٢- ديوان خطب:

ذكره صاحب هدية العارفين (١٤٩) وصاحب تاريخ حماة (١٥٠).

٣٣- قصيدة الهائية.

٣٤- قصيدة الهمزية:

قصيدة في التصوف على بحر الطويل.

٣٥- قصيدة الرائية:

وهي ذات مضمون سياسي، انتقد فيها سياسة السلطان قانصوه الغوري، وتقع في أربعة وسبعين بيتاً، على البحر الطويل

ويذكر صاحب تاريخ حماة في ترجمته للشيخ علوان الكتب التالية:

٣٦- إزاحة الأوهام.

٣٧- شرح منهاج الغزالي.

٣٨- شرح حزب البحر للشاذلي.

٣٩- شرح البردة.

٤٠- شرح الرائية.

٤١- شرح القافية.

ولم نعثر على واحد مما ذكره الصابوني في تاريخ حماة، غير أني وقعت على تخميس للرائية نظمه الزين عمر الشماع المتوفى ٩٣٦هـ سماه "فتح المنان في تخميس رائية الشيخ علوان".

كما ورد ذكر الآتي في نهاية كتاب "الجوهر المحبوك" المطبوع سنة ١٣٢٩هـ.

٤٢- نزهة الأسرار في محاورة الليل والنهار.

٤٣- التبر المحبوك.

وقد توهم صاحب هدية العارفين فنسب للشيخ علوان رسالة «تحفة الحبيب فيما يبهجه في رياض الشهود والتقريب» - (طبعت بتحقيقنا - وهي لولده الشيخ محمد أبي الوفا) وصاحب در الحبب وصاحب كشف الظنون يذكران ذلك.

ومن الراجح لدينا أن هناك عددًا آخر من مخطوطات الشيخ علوان لم نقف عليها، ولم يرد ذكرها فيما وقعنا عليه من مراجع، وربما كان خفياً منسياً. وإني لأتقدم بالشكر للسادة العلوانية فكم لهم في القلب محبة وأثر في العلم والتربية لا سيما وهم سادة قادة - قدست أسرارهم.



بسم الله الرحمن الرحيم

شرح الرسلانية لعلي بن علوان الحموي[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد.. فإن أفضل القربات وأعلى أنواع الطاعات: الذلة والانكسار، والانطراح على باب المولى بمزيد الافتقار، فانطرح أيها الأخ الشفيق[2] على باب مولاك، وطهر ثيابك من دنس الشرك؛ لتدخل صلاتك الحقيقية، وتبلغ علاك.

واعلم أنك إذا رجعت للإنصاف، ونظرت بعين البصيرة وساعدتك الألطاف، فهمت ما قاله هذا العارف بقوله: (كُلك شرك خفي) أي: كل نواحيك وجهاتك، وحركاتك وسكناتك، ومعاملاتك ومقاماتك، وشهوداتك ومكاشفاتك شرك ظاهر عند أرباب البصيرة، خفي عند من لم يصل ذلك المقام ولم تصف له السريرة، فإن من تحقق بالعبودية نظر أعماله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء.

ولا يظهر هذا المعنى كمال الظهور إلا لمن تحقق بكمال العبودية كما وقع لسيدنا عمر ﷺ حيث سأل حذيفة ﷺ: هل أنا من المنافقين؟ فقال: لست منهم ولا أبرئ أحدًا بعدك.

---

(١) أصل هذه الرسالة نسختين في مكتبة توبنغن بألمانيا الاتحادية، وقد نقل إليها من مكتبة برلين بعد الحرب العالمية الثانية، وقد أشير في الهامش إلى الخلاف بين النسخة الأولى وبين النسخة الثانية، ورمزت إليها بحرف (ن) أي: النسخة الثانية، كي يكون القارئ العزيز على اطلاع كامل على ما فيهما دون أن أفرط بشيء في طريقة التحقيق التي استندت إليها في هذا الشرح وفي غيره من الشروح. ومن الملاحظ أن النسختين تضمنتا أخطاء كثيرة في المتن، لذلك أشير للمتن الخاطئ في الحاشية، ووضعت نصوص المتن المعتمد في الأصل.

(٢) في نسخة: فانطرح أيها الشفيق.

فإذا كان مثل عمر ﷺ يتهم نفسه هذا الاتهام ويراها بهذا النظر، فكيف سواه؟ فإن أصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا عن النفس، وأصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عنها.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: من مات ولم يتوغل في علمنا هذا مات وهو مصر على الكبائر، ولقد صدق فيما قال ولم يبالغ في مقاله، بل شرح وبين ما قاله سيد أرباب الكمال ﷺ حيث قال: «**ثلاثٌ منجياتٌ، وثلاثٌ مهلكاتٌ، أمَّا المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأمَّا المهلكات: فشح متبع، وهوى مطاع، وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدهنَّ**»[1].

فانظر إلى قوله ﷺ: «**وهي أشدهن**» حيث جعل المهلكات ثلاثًا: الرياء، والحسد، والعجب، وجعل أشد الثلاثة: العجب، فأي شخص يا أخي يصلي ولا يعجب لصلاته؟ وأي شخص يصوم ولا يعجب بصيامه إلا من وفقه الله لعنايته، وشمله ببركة صحبة أوليائه؟ فإنهم الأطباء لأمراض القلوب، وكلامهم هو الترياق المجرب لدفع سموم الذنوب.

فعليك أيها الأخ بمصاحبتهم؛ لتجتني ببركة مخالطتهم يانع ثمرتهم، وتنكشف لك بسبب ذلك ما أنت عليه من العيوب، وتتطهر ببركة إشارتهم من كل شرك يحجبك عن علام الغيوب، فتخرج عند ذلك من أوصافك البشرية، وتبعد عن كل وصف مناقض للعبودية، ويبين لك حينئذ التوحيد ويظهر، وتباين نفسك وتخرج عنها، وذلك هو النعيم الأكبر.

كما قال ﷺ: (**ولا يبين لك توحيدك إلا إذا خرجت عنك**) أي: ما يتحقق لك مقام التوحيد، ولا ترتشف سلافة معناه، ولا يفوح لك علم من معالمه، ولا يباح لك القرب من ساحته وحماه إلا إذا خرجت عنك؛ أي: خرجت عن نفسك بخروجك عن أوصافك البشرية، وترك اختياراتك وتدبيراتك، وتحققك بمقام العبودية، فتشرق عليك عند ذلك أنوار التوحيد، وتسطع من قلبك أشعة المعرفة والتفريد، وتكون بظاهرك مع الخلق وبباطنك مع الحق، ظاهرك مغمور بالشريعة وباطنك مغمور

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٢٥٢)، وابن حبان في المجروحين (١/٢٦٣).

بالحقيقة، تتحلى بالفرق ويشهد به لسانك وأركانك، وتشرق عليك أنوار الجمع، فيمتلئ منه سرك وروحك وجنانك، وتأكل من ثمرة شجرة: «لا إله إلا الله» بإذن ربك في كل وقت وحين، وترفل من ملابس حُلل: «محمد رسول الله ﷺ»، يتشرف برؤيتك كل ناظر، وتقرّ بك العين، وتترقى من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، وتنكشف لك الحقيقة عند ذلك، ويصير لك الأمر عيان، فتستغفر مما كنت عليه من الأوصاف وتعترف بذنوبك، ومن اعترف بذنبه حفته الألطاف.

كما قال ﷺ: (**فكلما أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنت فتستغفر منك**) أي: كلما كشف لك حقيقة الأمر وانجلت البصيرة، وتحققت بأنوار التوحيد، وصفت لك السريرة بان لك وظهر أنه؛ أي: الذي كنت تنسب الأمور إليه وتعتمد في حركاتك وسكناتك عليه هو الله تعالى لا أنت؛ لأنه المتصرف في كل شيء، المدبر لكل شيء، المحرك والمسكن لكل شيء؛ إذ ما من لفتة ناظر ولا فلتة خاطر إلا وهي بإرادته وقدرته.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [الصافات:٩٦].

فإذا فهمت ذلك فاستولى على قلبك معناه، وعلمت حقيقة ما هناك، وانجلت لك رموزه وفحواه: لم يبق عندك شبهة في أنه هو الفعال لا أنت، فتستغفر منك؛ أي: من نفسك وأحوالها وصفاتها؛ إذ تحقق عندك حينئذ أنها كلها ذنوب، وأن أوصافها وأحوالها كلها عيوب، وإذا تحققت بتمام العبودية والاستغفار، وتخلقت بمزيد الذلة والانكسار، وجعلت شعارك امتثال الشريعة، ودثارك التأدب بآداب الطريقة يظهر لك مقام التوحيد، وتصفو مشاربه، ويذهب عنك ظلام الشرك، وتضمحل غياهبه.

كما قال ﷺ: (**وكلما وحدت بان لك الشرك، فتجدد في كل ساعة ووقت توحيدًا وإيمانًا**) أي: كلما علمت أن الله تعالى هو المتصرف في جميع الأمور لا سواه تتحقق عند ذلك بحقيقة: «لا إله إلا الله»، وعرفت أنه لا ضار ولا نافع، ولا معطي ولا مانع، ولا خافض ولا رافع إلا الله، ومازج لحمك ودمك هذه المعرفة، وصارت لك سجية وصفة، ظهر لك حينئذ الشرك في جميع حركاتك وسكناتك، واختياراتك وتدبيراتك، ومقاماتك ومكاشفاتك، فتجدد في كل ساعة ووقت توحيدًا وإيمانًا، كما قيل: جددوا إيمانكم بذكر: «لا إله إلا الله» فإنها المكتسبة للاعتبار،

والمنظفة عن ساحة القلب كل غبار.

فلذلك قال ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»[1].

وقال في الحديث القدسي: «لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»[2] فمن دخل حصن مولاه فكيف يصل إليه سواه؟ فلا يزال السلك يذكرها بلسانه حتى يصل أثرها إلى جنانه، وينمحي بسببها الشرك وتنهدم سائر أركانه؛ إذ لا قدرة للضعيف العاجز عن مقاومة العدو إلا بذكر مولاه، ولا يمكنه التخلص من سباع الشرك إلا بالتحصن بحصن: «لا إله إلا الله»، وكلما لازمها السالك زاد إيمانه وخرج عن الخلق، وكلما أمعن فيها وأكثر زاد يقينه وخرج عن نفسه ووصل إلى الحق.

كما قال ﷺ: (وكلما خرجت عنهم زاد إيمانك، وكلما خرجت عنك قوي يقينك) الخروج عن الخلق: هو ترك السكون إليهم وعدم الاعتماد عليهم، وكلما خرج السالك بقلبه عنهم رجع بقلبه إلى مولاه، وذلك هو حقيقة إيمانه وعُلاه، وقد يخرج السالك عن الخلق ولكن يبقى فيه بقية من رؤية النفس وتدبيراتها ورجوعه إلى إرادتها واختياراتها، ولا يحصل له مقام اليقين ويكمل حتى يخرج منها كما خرج عن غيرها، فإنها من الخلق أيضًا، ولن يصل العبد إلى الحق ما لم ينفصل من الخلق، كما قيل: الطريق فصل ووصل، ولذلك قال المصنف ﷺ: «وكلما خرجت عنك قوي يقينك».

وما أحسن ما قال الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷺ في هذا المعنى: إذا مت عن الخلق قيل لك: رحمك الله وأماتك عن هواك، وإذا مت عن هواك قيل لك: رحمك الله وأماتك عن إرادتك ومناك، وإذا مت عن الإرادة قيل لك: رحمك الله وأحياك، فحينئذ تحيا حياة لا موت بعدها، وتغنى غناء لا فقر بعده، وتصح صحة لا سقم بعدها، وكيف لا يصير له ذلك وقد صار عند مولاه؟ وكيف لا يتحقق بما هناك

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٦٢/٥، رقم ٣٣٨٣) وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى (٢٠٨/٦، رقم ١٠٦٦٧)، وابن ماجه (١٢٤٩/٢، رقم ٣٨٠٠)، وابن حبان (١٢٦/٣، رقم ٨٤٦)، والحاكم (٦٧٦/١، رقم ١٨٣٤) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضاً: الديلمي (٣٥٢/١، رقم ١٤١٤).

(٢) أخرجه القضاعي (٣٢٣/٢ رقم ١٤٥١)، والديلمي (٢٥١/٥ رقم ٨١٠١) والرافعي (٢١٤/٢).

ولم يبق في قلبه إلا الله؟ ومن كان كذلك ارتفعت همته عن الأغيار ولا يركن إلى المكاشفات والمشاهدات.

كما قال ﷺ: (يا أسير الشهوات والعبادات، يا أسير المقامات والمكاشفات، أنت مغرور أنت مشتغل بك عنه... أين الاشتغال به عنك وهو ﷺ حاضر ناظر وهو معكم أينما كنتم في الدنيا وفي الآخرة) شرع ﷺ يبين[1] للسالكين طريق أهل التحقيق، ويزيل عن ساحة قلوبهم أوساخ التعويق، فإن كل شيء سكن إليه السالك واعتمد عليه فهو حجابة، ولو كان ذلك الشيء من العبادات والمقامات والمكاشفات.

فإن القلب إذا مال إلى الشيء كان أسيره وعبده كما قيل: «ما أحببت شيئا إلا وكنت له عبدًا» وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا، فكما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يقبل عليه، ففرّغ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار، والعبادات والمقامات، والمكاشفات من الأغيار، فمتى اشتغل بها السالك ومال إليها كان أسيرًا لها، فيكون مغرورًا بها، فلذلك قال ﷺ: «أنت مغرور أنت مشتغل بك عنك» أي: إنك مشغول بحظوظ نفسك عن ربك، فأين اشتغالك به عن اشتغالك بنفسك؟ لأنه ما خلق قلبك إلا ليكون محلاً لذكره، فإذا وضعت فيه سواه فقد تعديت وظلمت، وما أحسن ما قال بعضهم:

لست من جملة المحبين إن لم أجعل القلب بيته والمقاما

وطوافي إجالة السر فيه وهو ركني إذا أردت استلاما

والحاصل: إنه ينبغي لسالك طريق الخواص أن يكون في الأشياء بائنًا عنها؛ أي: متصفًا بها غير ناظر إليها، مالكًا لها غير مالكة له، فيكون في المعاملات بظاهره وقلبه عند مولاه، كما يشعر بذلك قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[2] ولم

(١) في "نسخة" أن يبين.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٨/٣، رقم ١٢٣١٥)، والنسائي (٦١/٧، رقم ٣٩٣٩)، وابن سعد (٣٩٨/١)، وأبو يعلى (٢٣٧/٦، رقم ٣٥٣٠)، والحاكم (١٧٤/٢، رقم ٢٦٧٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي (٧٨/٧، رقم ١٣٢٣٢)، والضياء (٤٢٧/٤، رقم ١٦٠٨). ومحمد بن نصر في

يقل: «بالصلاة»، فتأمل الحديث يظهر لك طريق العارفين ويتضح لك معناه، وتدبره بقلبك تجد الصراط المستقيم، وتظفر بحقيقة: «لا إله إلا الله»؛ إذ حقيقتها الإعراض عن السوى والإقبال على المولى، فاجتهد أيها الأخ في تصحيح ذلك من قلبك، وعضَّ بالنواجذ عليه وتدبره بلبّك، إذ هو ﷻ حاضر ناظر في سائر الأوقات: **(وهو معكم أينما كنتم في الدنيا والآخرة)** على سائر الحالات.

وما أحسن ما قيل:

أعـــط المعـــية حقهـــا والـــزم لـــه حـــسن الأدب

واعلـــم بأنـــك عـــبده فـــي كـــل حـــال وهـــو رب

فالحق تعالى مطَّلع على السرائر والظواهر في كل نفس وحال، فأيما قلب رآه مؤثرًا له حفظه من طوارق المحن ومضلات الفتن، فافهم ذلك وخذه من قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**»[1] وإذا كنت كذلك فقد أديت أدب المعية وحجبت بذلك عن نفسك وحزت المقامات العلية.

كما قال ﷺ: **(فإذا كنت معه حجبك عنك، وإذا كنت معك استعبدك له)** أي: إذا كنت حاضرًا معه وتأدبت بأدب المعية حجبك عنك، وأطاعتك النفس الأبية.

وللمعية مراتب:

أولها: أن تكون معه، فتتمثل ما أمرك وتجتنب ما نهاك، وترضى بما قضى عليك وقدّر، وتشغل جوارحك كلها بطاعته، وتصرف أوقاتك كلها في خدمته، فحجبك حينئذ عن رؤية نفسك وأحوالها، ويوفقك لشهود منّته عليك.

وأوسطها: أن تكون معه بأدب الطريقة؛ بأن تكون في الخدمة وأنت فان عنها؛ إذ لا عمل للقلوب أرجى من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده كما

تعظيم قدر الصلاة (٣٣١/١، رقم ٣٢٢)، والعقيلي (١٦٠/٢، ترجمة ٦٦٦ سلام بن سليمان أبو المنذر).

(١) أخرجه أحمد (٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٩)، والترمذي (٦٦٧/٤، رقم ٢٥١٦) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٦٢٣/٣ رقم ٦٣٠٢) وقال: عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس. والضياء (٢٥/١٠، رقم ١٥). وأبو يعلى (٤٣٠/٤، رقم ٢٥٥٦).

قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] أي: يرفعه عن شهود السالك، ولا يشهد في ذلك الأفضل المالك، كما قيل: «إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنة عليّ، وإن ظهرت المساوئ فبعدلك، ولك الحجة عليّ».

وأعلاها: أن تكون معه بأدب الحقيقة؛ وذلك بأن تعرف ما لك وما له، فلك الفقر والضعف والعجز والذلة، وله الغنى والقوة والقدرة والعزة، فإذا كنت معه بهذا الأدب حجب فقرك بغناه، وضعفك بقوته، وعجزك بقدرته، وذلك بعزته، فلا تشهد حينئذ إلا أفعاله وأوصافه، ويضمحل وجودك، ويذهب عنك كل إضافة، ويستقيم لك مقام التوحيد، ويذهب البّوى عنك، وتصير من أهل التفريد.

وما أحسن إشارة صاحب «الحكم» إلى هذه المراتب حيث قال: «شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان».

وكل ذلك من آثار المعية وحفظ آدابها والوقوف على رسومها والتمسك بثرى أعتابها، وما أحسن ما قيل:

لا أبرح الباب حتى تصلحوا عوجي وتقبلوني على عيبي ونقصاني
فإن رضيتم فيا عزي ويا شرفي وإن أبيتم فمن أرجو لعصياني

ومن لم يحفظ أدب المعية، بل كان مع نفسه منقادًا لها حيثما قادته، فهو محجوب عن مولاه بنفسه، وهي أشد الحجب، كما قال ذو النون: «أشد الحجاب وأخفاه رؤية النفس وتدبيرها».

وكما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[1] فإذا علمت ذلك أيها الأخ فاخرج عن طاعة نفسك وهواها، وفارق الخلق يكمل إيمانك، وتتحقق لنفسك تقواها.

كما قال ﷺ: (الإيمان خروجك عنهم، واليقين خروجك عنك) إذ حقيقة الإيمان حقيقة: «لا إله إلا الله» ومتى رسخ في قلبه حقيقتها لم يشهد الفعل لأحد

(١) أخرجه الحكيم (١٦٤/٤)، وأخرجه الخطيب (٣٦٨/٤)، وابن أبي عاصم (١٢/١، رقم ١٥).

سواه، فمن شهد هذا الشهود وتم له معناه كيف لا يخرج عن الخلق ويقبل على مولاه؟ ومتى استقام في هذا الباب وتمت له الشروط والآداب شُرِّف بالدخول إلى منازل الأحباب، وأديرت عليه كؤوس اليقين، وارتشفت منها صافي الشراب، فحينئذ يخرج عن نفسه وعن صفاته الردية، وتشرق عليه أوصاف مولاه، ويتحقق بالمقامات العلية، لا يسكن بسره إلا لمولاه، ولا ينطرح وينكسر إلا لرفع علاه، قد حفظ الله بظاهره فحفظه الله، وحفظه بباطنه فوجده تجاهه، وذلك أعظم سؤله ومناه[1] كما قال ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»[2]، فمن حصل له مقام المواجهة والشهود، كيف لا يخرج عن الخلق والنفس ويستبدل بالصدود كما قيل:

تركت هوى ليلى وسعدى بمنزلي وعدت إلى مصحوب أول منزلي

ونادتني الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فانزلِ

فلا تتعد نية همتك أيها الأخ إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه آمال الطالبين، وصحّح إيمانك ويقينك في الأحوال، وكلما ازددت رسوخًا في اليقين تنقلت في المقامات وحزت صفة أهل الكمال.

كما قال ﷺ: (**إذا زاد إيمانك نقلت من حال إلى حال، وإذا زاد يقينك نقلت من مقام إلى مقام**) أي: إذا زاد إيمانك بالقوة والرسوخ نقلت من حال إلى حال، وصرت من أهل الأحوال، فإذا زاد يقينك كذلك نقلت من مقام إلى مقام، وصرت من الرجال، فأول المراتب التي يدخلها السالك أحوال، فإذا رسخ فيها واستقر فهي له مقام وكمال.

فانهض أيها الأخ بهمة سنية تنطوي لك الحالات وتحوز المقامات العلية، ولا يتم لك ذلك إلا بلزوم الآداب الشرعية، والتحلي بحال الطريقة المرضية، لتنجلي لك الحقيقة وتشرق عليك أنوارها البهية كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: (**الشريعة جعلت لك حتى تطلبه منه به تعالى لك والحقيقة له حتى تطلبها به له عز وجل حيث لا حين ولا أين، فالشريعة حدود وجهات، والحقيقة لا حد ولا جهة**)

---

(١) في "نسخة" وذلك أعظم سؤله.

(٢) تقدم.

أي: المقصود من الشريعة والملحوظ فيها المنافع التي تعود لك أيها السالك، فإن همة صاحب الشريعة ومطمح نظره نعيم للجنة ولذاتها، وذلك حظ من حظوظ النفس، فلذلك قال: «الشريعة لك» وأتى باللام التي تدل على نفع صاحبها.

وغاية صاحب الشريعة: أن يطلب الحق من الحق، لكن لنفسه لا لمولاه، فلذلك قال: «حتى تطلبه»؛ أي: الحق منه؛ أي: من الحق لك؛ أي: يكون ذلك الطلب منفعته عائدة لك والحقيقة له؛ أي: للحق تعالى حتى تطلبه؛ أي: الحق تعالى به؛ أي: بالحق تعالى له؛ أي: الحق تعالى أيضًا «حيث لا حين ولا أين»؛ لأن الحق سبحانه منزه عن الزمان والمكان، فالحين والأين لا يكونان إلا لذي مكان وزمان، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فلذلك قال: «الشريعة حدود وجهات»؛ لأنها محصورة متعلقة بمحصور «والحقيقة لا حد ولا جهة»؛ لأنها متعلقة بالحق، وهو سبحانه منزه عن ذلك.

والحاصل: إن الشريعة بمنزلة الباب، والحقيقة بمنزلة منادمة الأحباب، فمن لزم الباب وتأدب بالآداب انجلت له السريرة، وتنورت له البصيرة، وارتفعت همته عن المقاصد الدنيئة، وجذب بالعناية الإلهية إلى المطالب العليّة بدخوله بالفضل الإلهي إلى دهليز الطريقة، وارتقائه بعد ذلك إلى منزل الحقيقة، ولذلك قال الشيخ أبو عبد الله القرشي: «الزم الأدب وحدك من العبودية ولا تتعرض لشيء، فإن أرادك له أوصلك إليه».

فالزم أيها الأخ آداب العبودية لمولاك وانطرح بين يديه، فإن كلا من صاحب الشريعة والحقيقة قد تفضل عليه.

كما قال ﷺ: **(القائم بالشريعة فقط تفضل عليه بالمجاهدة، والقائم بالحقيقة تفضل عليه بالمنة، وشتان ما بين المجاهدة والمنة)** أي: القائم مع الشريعة مبني أمره على المجاهدة والخدمة؛ إذ هو في البداية، والقائم مع الحقيقة ملحظه الفضل والتزام الحرمة؛ إذ هو في النهاية، وشتان - أي: بَعُد - ما بين مقام المجاهدة ومقام المنَّة، فصاحب المجاهدة غارق في الفرق، وهو بمعاملته محجوب، وهذا غارق في الفضل وهو في سائر حركاته وسكناته محجوب، إن نطق فبالله، وإن عمل فللّه، وإن

رجع فمن الله، وإن ذهب فإلى الله، فهو بالله ولله، ومن الله وإلى الله[1]، لا يعرف إلا بالله، ولا يشهد إلا الله، كما قيل: من عرف الله شهده في كل شيء، فلا يستوحش من شيء، ويستأنس به كل شيء، صار شهود معنى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥] سجية وحقيقة ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] منطوية في قلبه، فلذلك حاز حسن الطوية.

فاجتهد أيها الأخ في الاعتماد على الفضل، وافن عن الأوصاف، واخرج عن وجودك لعلك تصير مفقودًا وتحفك الألطاف.

كما قال ﷺ: **(القائم مع المجاهدة موجود والقائم مع المنة مفقود)** لأن القائم مع المجاهدة ناظر إلى مجاهدته، مثبت لفعله وقدرته[2]، فهو موجود لوجوده الوهمي، مغرور بضلاله الرسمي، والقائم مع المنة لم يشهد له مجاهدة ولا أعمالاً ولا حولاً ولا قوة ولا نسبًا من الأحوال، فهو مفقود فان مستغرق في فناه، قد انخلع عن الكونين ولم يبق فيه بقية لسوى مولاه؛ لأنه طوى المنازل والأحوال، وشرب من المناهل حتى ارتوى ري أهل الكمال، قد حاز من الأعمال المتعلقة بالشرع أعلاها، ومن الأحوال المتعلقة بالتوكل أسناها، ومن التوحيد المتعلق بالكشف رتبة بالغة منتهاها.

كما أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: **(الأعمال متعلقة بالشرع الشريف، والتوكل متعلق بالإيمان، والتوحيد متعلق بالكشف الصحيح)** أي: الأعمال متعلق معرفتها بالشرع؛ لأنه الباب، ومن لم يقف على الباب لم يحظ بمنازل الأحباب، فعفّر خدّك أيها السالك بثرى أعتاب الشريعة، وكحّل ناظريك بكحل آداب الطريقة تنجلِ لك أنوار الحقيقة، وتقتدر على التمتع برؤية معانيها الدقيقة.

وأمّا التوكل: فهو متعلق بالإيمان؛ إذ حقيقته الاكتفاء بعلم الله فيك عن تعلق القلب بما سواه، وهذا الأمر لا يحصل إلا لمن تحقق بحقيقة: «لا إله إلا الله»، فعليك أيها الأخ بتصحيح إيمانك بالإقبال على مولاك، وأعرض عن سواه نحو مقام التوكل تطب مسعاك.

---

(١) "ن" وإن ذهب فهو بالله ولله ومن الله وإلى الله.

(٢) "ن" ناظر إلى مجاهدته لفعله وقدرته.

وأمَّا التوحيد: فأمر ذوقي لا يحصل إلا بالكشف الرباني، ولا يذوق جرعة من شرابه إلا من أديرت عليه كؤوس المعرفة وشرف بإصلاح الأواني، فأصلح أواني قلبك يظهر لك معاني التفريد كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩] فمن لم يكن له قومة في الطريق لا يتم له قعدة مع القوم ولا يصفو له هذا الرحيق:

أيهــا الخاطــب معنــى حــسننا ... مهــرنا غــال لمــن يخطبــنا
جــسد مــضني وروح فــي عــنا ... وجفــون لا تــذوق الوســنا
وفــؤاد لــيس فــيه غيــرنا ... فــإذا مــا شــئت أدِّ الثمــنا
وافــن إن شــئت فــناء ســرمدا[1] ... فالفــنا يدنــي إلــى ذاك الفــنا
واخلــع النعلــين إن جــئت إلــى ... ذلــك الــوادي ففــيه قدســنا
وعــن الكونــين كــن مــنخلعا ... وأزل مــا بينــنا مــن بينــنا
وإذا مــا قــيل مــن تهــوى فقــل ... أنــا مــن أهــوى ومــن أهــوى أنــا

وهذا مقام لا يحصل إلا لمن تشرَّف بالمتابعة وصار من المحبوبين واقتفى الآثار وأصلح الظاهر والباطن وصار من الوارثين، فحينئذ تنكشف له الحقائق، ويشرب من صافي هذا الشراب كل رائق، وأمَّا من ركض في هذا الميدان بجواد عقله فلا يزال في فيافي الحيرة تائه، ومن طلب الجنة بنفسه وهواه فلقد ضلَّ الطريق وضل عما أمده الله من نعمه وآلائه.

كما قال ﷺ: **(الناس تائهون عن الحق بالعقل وتائهون عن الآخرة بالهوى، فمتى طلبت الله بالعقل فقد ضللت، ومتى طلبت الآخرة بالهوى ضللت)** الحق تعالى لا يعرف إلا بنور الإيمان، والجنة لا تنال إلا بمخالفة الهوى والاستقامة في مقام الإحسان، فمن أحدق إلى الحقيقة بعين عقله تفرَّق، ومن نظر إليها بنور إيمانه تحقق، وغاية العقل أن يدلك على الباب، وأمَّا الوصول إلى الحضرة فلا سبيل إليه إلا بملازمة الآداب، كما قال ﷺ: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»**[2].

(١) "ن" وافن إن شئت بقاء سرمدًا.

(٢) تقدم.

وقـــل لمـــن جـــدَّ فـــي أمـــر يـــؤمّله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فاجتهد أيها الأخ في التحقيق بمقام الإيمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي حتى يحصل لك الفناء به، فتفنى عنك ويتم لك اللطف الإلهي.

كما يشير إلى ذلك قوله ﵁: (**ما دمت أنت معك أمرناك، فإذا فنيت عنك توليناك، وما تولاهم إلا بعد فنائهم**) أي: إذا كنت في مقام الفرق وأنت مع وجودك أمرناك، وإذا كنت في مقام الجمع والغيبة عن السوى توليناك؛ أي: إذا كنت في البداية فأنت في مقام المجاهدة، وإذا كنت في النهاية فأنت في مقام المشاهدة، فمن شاهد مولاه كيف يبقى له التفات إلى سواه؟ كما قال ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[1].

والعارف سائر أوقاته صلاة؛ إذ حقيقة الصلاة: الإعراض عن السوى، والإقبال على المولى، فمن تم له هذا الشهود كان في الأعمال بظاهره خارجًا عنها بقلبه وسرائره، وهذا حقيقة تولي الحق إياه، حيث جعل قالبه في العبودية، وقلبه ناظر لحضرة مولاه، فعليك أيها الأخ ببذل الخدمة والانطراح بين يديه لعلك تقبل فيفنيك عنك ويجذبك إليه.

كما قال ﵁: (**ما دمت أنت فأنت مريد، فإذا أفناك عنك فأنت مراد**) أي: ما دمت ترى نفسك نفسك وتثبتها فأنت في البداية، فإذا خرجت عنها ونفيتها كنت في النهاية، فأصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها، والرضا عن النفس هو عين إثباتها ورؤية محاسنها، وعدم الرضا عنها هو عين نفيها وإثبات قبائحها.

فاتهم نفسك أيها الأخ في سائر أحوالك يصفو لك مقام العبودية، وترتقي إلى أوج كمالك، فسبحان من ستر سرّ الخصوصية في ظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية، فعليك يا أخي بالانكسار والذلة في هذا الباب، واطرح الحول والقوة يصفُ لك اليقين الأدوم وتظفر بشمائل الأحباب.

كما قال ﵁: (**اليقين الأدوم في غيبتك عنك ووجودك به، فكم بين ما يكون بأمره وبين ما يكون به، إن كنت قائما بأمره خضعت لك الأسباب، وإن كنت قائمًا**

---

(١) تقدم.

به تضعضعت لك الأكوان) أي: اليقين الذي يقول به أهل المعرفة ويتحقق له الدوام هو اليقين الحاصل منه تعالى، حيث غبت عنك وكنت موجودًا به محفوفًا بالإكرام، فكم بين ما يكون بأمره من أهل البدايات وبين ما يكون به من أهل النهايات.

إن كنت بأمره وأحكمت باب المجاهدة خضعت لك الأسباب، وإن كنت به وتحققت بمقام الفناء تضعضعت لك الأكوان، والحاصل أن السالك أول قدم يضعه في الطريق هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وذلك الوقوف على باب الشريعة، وإذا تم له فتح هذا الباب شرف بالدخول إلى منازل الأحباب، فحينئذ يتطهر من أوصافه الردية وينخلع عليه فاخر الخلع الربانية، ففي المقام الأول: تخضع له الأسباب؛ لأنه من أطاع الله أطاعه كل شيء، كما ورد في الحديث في قصة مشهورة مع أبي طالب: «**وأنت يا عم لو أطعته لأطاعك**»[1].

وفي المقام الثاني: تضعضعت له الأكوان؛ لأنه فني عن نفسه، فلم يبق في شهوده إلا مولاه كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧].

إذا علمت ذلك أيها الأخ فتحقق بمراتب السلوك واجتهد واحذر من التواني تكن من الملوك، كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: «إن أردت ملك الدارين فادخل في طريقنا هذه يومًا أو يومين، وأعلم أنك لا تشم رائحة من عطر هذا الطريق ما لم تعبر المقامات وتترك من قلبك كل تعويق».

وقال ﷺ: **(أول المقامات الصبر على مراده، وأوسطها الرضا بمراده، وآخرها أن تكون بمراده)** أي: أول مقامات السالكين الصبر على مراد الحق كما قيل:

الصبر فلاح ما يرجى ... وكل صعب به يهون

ربما نيل باصطباري ... ما قيل هيهات لا يكون

ولذلك قيل: «عنوان الظفر بالمطلوب التحقق بالصبر على مراد المحبوب»، والصبر ثوابه بغير حساب كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠] ومن تحقق في هذا المقام واستقام فيه صلح له أن يدخل باب مقام

---

(١) لم أقف عليه.

الرضا ويتفكّر بمعانيه، وذلك أوسط المقامات وأعدلها، وبه يشرف على السالكين من الكمالات أفضلها، وأحسن ما قيل:

يـــا أيهـــا الراضـــي بأحكامـــنا لا بـــد أن تحمـــد عقبـــى الرضـــا
فـــوّض إليـــنا وابـــق مستـــسلمًا فالـــراحة العظمـــى لمـــن فوضـــا[1]
لا يـــنعم المـــرء بمحـــبوبه حتـــى يـــرى الخيـــرة فـــيما قـــضى

وإذا أحكم هذا المقام ارتقى إلى النهاية، وفني عن نفسه وأوصافه وبلغ الغاية، ويكون حينئذ بمراد الحق حيث لم يبق له إرادة، ويتحقق بمقام: «بي يسمع وبي يبصر»، وتشرق أنوار هذه السعادة، وكل ذلك من نتائج ملازمة الآداب، ودوام الذكر بالقلب والتمسك بثرى الأعتاب.

ذكـــر الإلـــه الـــزم هـــديت لذكـــره فـــيه القلـــوب تطـــيب والأفـــواه
واجعـــل حـــلاك تقـــاه إن أخـــا التقـــى يـــا صـــاح مـــن كانـــت حـــلاة تقـــاه
واســـتعمل الأفكـــار فـــي ملكـــوته مـــستغرقًا فـــي الكـــشف عـــن معـــناه
ولـــتخلع النعلـــين خلـــع محقـــق خـــلا عـــن الكونـــين فـــي مـــسراه
ولـــتفن حتـــى عـــن فـــنائك أنـــه عـــين الـــبقاء فعـــند ذاك تـــراه
فإذا بـــدا لـــك فـــاعلم أنـــك لـــست هـــو كـــلا ولا أيـــضًا تكـــون ســـواه
شـــيئان مـــا اتحـــدا ولكـــن هاهـــنا ســـر يـــضيق نطاقـــنا عمـــا هـــو
يـــا ســـامعًا لـــي قـــد أشـــرت بـــه إلا قلـــب يفكـــر مـــا وعـــت أذنـــاه
أزل الحجاب حجاب قلبك ينكشف لـــك ســـر مـــا قـــد غـــاب عـــنك ســـناه
إن الإلـــه أجـــلّ مـــن متعـــرف مـــن لـــم يـــراه قـــد استبان عمـــاه
فـــيه يـــراه ذوو البـــصيرة والنهـــى مـــا غـــاب عـــنه لحظـــة ســـيراه
أنـــى يغـــيب ولـــيس يـــوجد غيـــره لكـــن شـــديد ظهـــوره أخفـــاه[2]

فيا أيها الراغب لنيل هذه المقامات العلية، ويا أيها المتعطش لارتشاف جرعة

(١) "ن" فالراحة العظمى لمن فوضنا.
(٢) في "نسخة" لكن شدُّ ظهوره أخفاه.

من هذه الكؤوس الهنية، عليك بمعرفة اعلم وتصحيح العمل فيهما تنال العلم اللَّدُني وتحصل لك المعرفة والكشف، وتفنى وتصل مع من وصل.

كما قال ﷺ: (**العلم طريق العمل، والعمل طريق العلم، والعلم طريق المعرفة، والمعرفة طريق الكشف، والكشف طريق الفناء**) والفناء غاية المنى؛ أي: العلم بالشريعة والطريقة طريق العمل، والعمل بمقتضاهما طريق العلم اللدني كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال ﷺ: «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**»[1] والعلم اللدني طريق المعرفة؛ إذ لا يعرف العبد مولاه إلا بتعريفه إياه، وإذا عرف بهذه المعرفة انكشفت له الحقائق، وغني عن السوى، وشرب من كؤوس المنى كل خمر رائق.

والحاصل: إن السالك لا بدّ له من معرفة الشريعة والطريقة في بدايته؛ حتى يتخطى بهما فيافي قفاره، ويصل إلى نهايته، فيا أيها المسافر إلى الحضرة، عليك بإصلاح المطايا، واصحب الرفيق، واحذر أن تبقى عليك من العلائق بقايا ما قاله ﷺ: (**ما صلحت لنا وفيك بقية لسوانا، فإذا حولت السِّوى عنك أفنياك عنك فصلحت لنا وأودعناك سرنًا**).

قال الجنيد: «المكاتَب عبد ما بقي عليه درهم، وكذلك السالك ما دام له تطلع إلى سوى مولاه، وفيه من حظوظه، فلا يصلح لحضرة علاه، فإذا أخرج من قلبه السّوى ولم يبق فيه إلا المولى أعانه مولاه وأفناه عنه، وصلح لحضرته وأودعه السر، وصار ممن يؤخذ عنه»، ولذلك قيل: «الطريق طريقان: طريق المقتصدين، وطريق المحققين، فطريق المقتصدين: الصيام والقيام وترك الآثام، وطريق المحققين: هجران الخلائق وقطع العلائق والاجتهاد في ذمة الخالق».

وإلى هذا المعنى يشير الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ حيث قال: «إخواني ما وصلت إلى الله بقيام ليل، ولا صيام نهار، ولا دراسة علم، ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصدر» فإن بالكرم يخرج السالك من علاقة الدنيا، وبالتواضع يخرج من علاقة النفس، وبسلامة الصدر يخرج من علاقة السوى، ولم يبق له مطلب إلا المولى، وهذا غاية بغية العارفين، ونهاية مطلب الوارثين المتمكنين.

---

(١) تقدم تخريجه.

فعليك أيها الأخ بتصحيح هذا المقام، واخرج من حركاتك لنفسك، وافن عنك وعن وجودك يحصل لك اليقين، ويكمل توحيدك، ويصفو لك هذا المدام.

كما قال ﷺ: (**إذا لم يبق عليك حركة لنفسك كمل يقينك، وإذا لم يبق لك وجود عندك كمل توحيدك**[١]) أي: إذا لم يبق عليك حركة لنفسك دل ذلك على شهودك أن المحرك والمسكن مولاك، وإذا تم لك هذا الشهود كمل يقينك، وتم لك من الأشياء فوق متمنَّاك، وإذا لم يبق لك وجود بأن فنيت عنك، كمل لك التوحيد، وصرت من أهل الكمال فكُلّ يأخذ منك.

فوثوقك بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون هو الباب، وخروجك عن وجودك بكمال توحيدك هو التشرف بمجالس الأحباب، فأرح نفسك أيها الأخ من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك، واخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك تكن لنداء الحق مجيبًا، ومن حضرته قريبًا.

فالزم الأمرين تكن من أهل الباطن واليقين، وتمسك بشرى الأعتاب مع الآداب تكن من أهل الظاهر والإيمان في كل حين، ولكل مقام ورتبة عند العارفين.

كما قال ﷺ: (**أهل الباطن مع اليقين، وأهل الظاهر مع الإيمان، فمتى تحرك قلب صاحب اليقين نقص يقينه، ومتى لم يخطر له خاطر كمل يقينه، ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان بغير الأمر نقص إيمانه، ومتى تحرك بالأمر كمل إيمانه**[٢]) أي: أهل الباطن مع اليقين؛ لوصولهم إلى مرتبة العيان بدخولهم في مقام الإحسان، وأهل الظاهر مع الإيمان؛ لوصولهم إلى مرتبة التصديق بدخول مقام الإذعان، فهذه ولاية صغرى لا بدّ من الوقوف على أعتابها في البداية، وتلك ولاية كبرى لا بدّ من الوصول إليها في النهاية، فمتى تحرك قلب صاحب اليقين من أهل النهايات نقص إيمانه[٣]؛ لدلالة ذلك على شهوده السوى، فلذلك صدرت منه لحركاته.

---

(١) في "نسخة" المتن الخاطئ: إذا لم يبق عليك حركة لنفسك كمل يقينك وإذا لم يبق لك وجود كمل توحيدك.

(٢) "ن" المتن الخاطئ: أهل الباطن مع اليقين وأهل الظاهر مع الإيمان فمتى تحرك قلب صاحب اليقين نقص يقينه ومتى لم يحضر له خاطر كمل يقينه ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان لغير الأمر نقص إيمانه ومتى تحرك بالأمر كمل إيمانه.

(٣) "ن": نقص يقينه.

ومتى لم يخطر له خاطر لاستغراقه في لجة الجمعية كمل يقينه؛ لدلالة ذلك على استكمال الشهود، وأنه لم يبق فيه للسوى بقية، ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان لغير الأمر، وتلبّس بذلك نقص إيمانه؛ لدلالة ذلك على أنه في بحر المخالفات هالك، ومتى تحرك بالأمر وسلك هذه المسالك كمل إيمانه، ودلّ ذلك أنه مملوك لمولاه المالك.

والحاصل: إن أهل الباطن وصلوا إلى مقام الإحسان، مقام من يعبد الله كأنه يراه، ومحال أن يراه ويشهد معه سواه، ومن تمّ له هذا الشهود كيف يحصل له حركة، وكيف ينسب إليه قيام أو قعود؟ ومن شرب من حمياة الكؤوس كيف يخطر له خاطر؟ وكيف يصل لسمع قلبه طنة من هذا الناقوس؟.

وأمّا أهل الظاهر: فهم واثقون مع الإيمان على الباب، سامعون مطيعون لما يرد عليهم من السنة والكتاب، فلا يتحركون إلا بما أمروا به من الأحكام، ومتى تحركوا لغير ذلك نقص إيمانهم، ومتى تحركوا لذلك كمل إيمانهم، وتم لهم ما يطلبونه من هذا المقام، فتمسّك أيها الأخ، وعفِّر الخدود بثرى الأعتاب، فيتطهر عند ذلك قلبك من السوى، وتخرج عن الحول والقوة، وتصير منطرحًا بين يدي المولى، وإذا وصلت إلى هذا المقام صرت من المقربين، وكنت مؤاخذًا بما لا يؤاخذ به غيرك من عامة المؤمنين.

كما قال ﷺ: (**معصية أهل اليقين ومعصية أهل الإيمان نقص**) لأن أهل اليقين وصلوا إلى مقام الإحسان، فليس تغفر لهم الزلة كتأثيرها في الثوب الأبيض، فلذلك اشتد العقاب، فأما أهل الإيمان فيسامحون بما لا يسامح به أهل العرفان، فلذلك كانت معصيتهم نقصًا؛ لما فيهم من البقايا التي حطّتهم عن الوصول إلى ذلك الشأن، واجتهد أيها الأخ في نظير خاطرك وباطنك من نجاسة المخالفات؛ لتدخل صلاتك الحقيقة وتصير من المتقين المحبين أهل النهايات.

وقال ﷺ: (**المتقي مجتهد، والمحبُ متكل، والعارف ساكن، والموجود مفقود، لا سكون لمتقي، ولا عزم لمحب، ولا حركة لعارف، ولا وجود لمفقود**) المتقي مجتهد في الخدمة، مترقب للهداية، قوي الهمة كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ولذلك قيل: «من لم يكن له قومة لم يكن له قعدة».

وقيل: «أسس هذا البيان على الجد والاجتهاد».

وما أحسن ما قيل:

بقدر الكد تُكْتسب المعاني ... ومن رام العُلَى سَهِرَ الليالي

تروم الحقَّ ثم تنام عنه ... يغوصُ البحر من طَلَبَ اللآلي

والمحب متكل في سائر أموره على مولاه؛ لاكتفائه بعلم الله فيه عن كل أحد سواه، فلا تتعدى نية همته إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه آمال الطالبين، ولا يرفع حاجته في سره ونجواه إلا إلى رب العالمين قائلاً بلسان حاله وقاله، مترنمًا بذلك في بكوره وآصاله:

من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعَدُّ لكل ما يتوقَّعُ

يا من يرجى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكي والمفزع

يا من خزائن ملكه في قول كن ... امنن فإن الخيرَ عنك أجمعُ

مالي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن طُرِدتُ فأيّ باب أقرعُ

ومن الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يُمنَعُ

حاشَا لجودك أن تخيب سائلاً ... الجود أجزلُ والمواهب أوسع

والعارف ساكن ليس له تدبير ولا إرادة، قد خرج عن حوله وقوته فخدمته الأكوان، وتمت له هذه السعادة، ولذلك قيل: «من لم يدبِّر له ومن وقع في ميدان التفويض زفت إليه المطالب كما تزف العروس»، وما أحسن ما قيل:

ولما رأيت القضا جازمًا ... بلا شك فيه ولا مرية

توكلت حقًا على خالقي ... وأسلمت نفسي مع الجريةِ

والموجود مفقود؛ أي: الموجود بالوجود الحقيقي مفقود عن الوجود الوهمي، لا يشهد في الجود إلا مولاه، ولا يركن لشيء سواه، إذا عرفت ذلك فلا سكون لمتقي؛ لأنه في الاجتهاد، ولا حركة لمحب؛ لاكتفائه بعلم الله فيه، واستئنانه بهذا الاعتماد، ولا عزم لعارف؛ لخروجه عن حوله وقوته، ومن تم له ذلك ظفر ببغيته وسعادته، ولا وجود لمفقود؛ لمفارقته تلك الدمن، واستبداله الوصل بالصدود.

فعليك أيها الأخ ببذل الهمة لتنال شمّة من هذه الأحوال، وفارق مواطن

الشكوك وشعاب الأغيار؛ لتحصل لك المحبّة، وتصير من الرجال.

كما قال ﷺ: (**ما تحصل المحبة إلا بعد اليقين، المحب الصادق قد خلا قلبه مما سواه، وما دام عليه بقية محبة لسواه فهو ناقص المحبة**) اليقين هو: الاعتقاد الجازم ألّا محسن في الوجود إلا الله، ومتى تحقق بذلك حصلت له المحبة، واعتكف بباب مولاه، ومن صدق فيما هناك خلا قلبه عما سواه، ومن بقي عليه بقية محبة لغيره فهو ناقص المحبة كاذب فيما ادعاه.

وعبد الهوى يمتاز عن عبد ربه لدى شهوة أو عندَ صدمِ بليّتي

فعليك أيها الأخ - إن كنت طامعًا في هذه المراتب - بالخروج من جميع التلذّذات، وافن عنك تحُز المراتب، وتظفر بأعلى المقامات.

وقال ﷺ: (**من تلذّذ بالبلاء فهو موجود، ومن تلذذ بالنعمة فهو موجود، فإذا أفناهم عنهم ذهب التلذذ بالبلاء والنعمة**) أي: من تلذذ بالبلاء؛ لكونه ناظرًا أن ذلك صادر من مولاه فهو موجود؛ لبقاء شعوره بما شرب من كؤوس حمياه، ومن تلذذ بالنعمة بقواه وحواسه فهو موجود، وغارق في العرق من رأسه إلى أسفله، ومن فني عن الأكوان لم يشعر بتلذذ، ودخل في مقام الإحسان.

كما قال ﷺ: (**فإذا أفناهم عنهم، ذهب التلذذ بالبلاء والنعمة**) فاجتهد أيها الأخ في الفناء به فيه تظفر بمقام المحبة، وتظهر لك أعلامه ومعانيه.

وقال ﷺ: (**المحب أنفاسه حكمة، والمحبوب أنفاسه قدرة**) أي: المحب أنفاسه؛ أي: كلامه حكمة؛ لكونه برز وعليه كسوة قلبه، فما سمعه أحد إلا وأذعن له وفهمه، والمحبوب أنفاسه وكلامه قدرة، فما تكلم بشيء إلا وقع، ولا تخالف الأكوان أمره؛ لكونه تشرف بخلقه: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به**»[1]، وتحلّىٰ بحلية: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] فهو في الأكوان بظاهره، ومفارق عنها بجنانه وسرائره، فعليك أيها الأخ بالهمة العالية، واجتهد في العبادات، ولا تقف معها تحز من مقام المحبة رتبة سنية.

وقال ﷺ: (**العبادات للمعاوضات، والمحبة للقربات، أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، لما أرادوني**

(١) تقدم.

لي أعطيتهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت) أي: العبادات متاجرة[1] فلذلك كان الحاصل منها المعارضات، والمحبة ميل وفناء، فلذلك ترتب عليها القربات، فالعابد مجتهد في خدمته لما يتوقع من نعيم جنة، والمحب فانٍ عن الأعواض، ليس له مطلب ولا مقصد إلا أن يكون مولاه عنه راضيًا، فلذلك كان عبدًا على الحقيقة، واستحق أن يقال في شأنه وشأن من كان على هذه الطريقة: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[2]؛ لأنهم أخلصوا النيات، ولم يبق لهم رهبة من نار، ولا رغبة إلى الجنان.

فلذلك صح في شأنهم أيضًا قوله: (**لما أرادوني لي، أعطيتهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت**) وفي ذكر هذا ثانيًا بعد ما تقدم إشارة إلى أنه كالعلل بعد النهل، وأن الكريم لا يزال عليهم بفضله يتكرَّم.

فانهض أيها الأخ لعلك تظفر بشربة من هذه المناهل، وافن عن هواك وإرادتك، لعلك تصير عبدًا صرفًا فتحوز ما حاز الإنسان الكامل.

وقال ﷺ: (**إذا أفناك عن هواك بالحكمة، وعن إرادتك بالعلم، صرت عبدًا صرفًا لا هوى لك ولا إرادة، فحينئذ يكشف لك، فتضمحل العبودية في الوحدانية، فيفنى العبد، ويبقى الرب تعالى**) أي: إذا أفناك عن هواك بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات:٤٠] وعن إرادتك بالعلم؛ أي: أفنى إرادتك في إرادته؛ لعلمك أن الإرادة له حقيقة ولك عارية، خرجت حينئذ عن الهوى والإرادة، ودخلت مقام العبودية، وصرت عبدًا صرفًا لا هوى لك ولا إرادة، فحينئذ يكشف لك الحجاب، وتتشرف بمجالس القرب وتصير من الأحباب، وتشرق عليك أنوار الحقيقة، وتأخذك عنك وتفنيك، فتضمحل عنك العبودية في الوحدانية، فيفنى العبد حيث خرج عن أوصافه، ويبقى الرب، فيحفه حينئذ عظيم ألطافه كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال:١٧].

ومن هنا تصدر الخوارق والعجائب من الأنبياء والأولياء من غير أن يشهدوا

---

(١) "ن" أي: العبادات متاجرة.

(٢) تقدم.

لهم في ذلك حولاً ولا قوة، وهم مع ذلك في غاية العبودية وكمال الفتوة، وحكاياتهم في ذلك مشهورة، وغرائب أحوالهم من هذا النوع في الكتب مسطورة، ومما يشهد لذلك قوله ﷺ في الحديث القدسي: **«لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمْعَهُ الذي يسمعُ به، وبصَرَهُ الذي يبصرُ به، ولسانه الذي ينطق به»**[1] فمن كان كذلك لا يستغرب عليه شيء من هذه الأذواق.

واطرح نفسك على الباب، لعله يخلع عليك شيء من خلع العشاق، وذلك بلزوم آداب الشريعة وإن انقبضت فيها، واعتكافك في حديقة العلم، وانبساطك في نواحيها، فيدخل حينئذ غُرف المعرفة، وتصير من أهل الدلال في معانيها.

كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: (**الشريعة كلها قبض، والعلم كله بسط، والمعرفة كلها دلال**) الشريعة كلها قبض؛ لأنها خدم ومجاهدات، ومخالفة للنفس فيما تهوى ومنازلات، والعلم كله بسط؛ لأنه يشرح لك الفوائد، ويظهر لك الفضل العظيم، فتهتز نفسك، وتنبسط للبكور إلى المساجد، فإنه من علم أنه بكلمة حقيقة ينال شجرة في الجنة طولها مائة عام! كيف لا يفوح ويتهالك في صرف أنفاسه في مثل هذه الأنعام؟ وهذا لمن نزلت همته إلى طلب الأكوان، فكيف بمن ارتضت همته إلى الوصول إلى مقام الإحسان؟ شتَّان بين من همته الحور والقصور وبين من همته رفع المستور ودوام الحضور، وأمَّا المعرفة فإنها كلها دلال، حيث تكشف لك عن حقيقة قدرك، إن كنت من أهل الوصال.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: «لو ظهر نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض، فكيف يا أخي بنور المؤمن الطائع؟ فكيف بنور العارف؟»، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس:٩ - ١٠] أي: أخفاها بظلمة معاصيه.

فاجتهد أيها الأخ في إظهار نورك بتعمير الأوقات، واصرف الهمة في المحبة حتى تفنى وتصير من أهل السعادات.

كما قال ﷺ: (**طريقتنا كلها محبة لا عمل، وفناء لا بقاء، إذا دخلت في العمل كنت لك، وإذا دخلت في المحبة كنت له، العابد راءٍ لعبادته، والمحب راءٍ لمحبته**)

---

(١) تقدم.

أي: مدار طريقتنا على المحبة لا على الأعمال، وعلى شهود المنة والفناء عن الخدمة، كما هو شأن أهل الكمال، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] ولم يقل: «بالصلاة».

وعلل الشيخ ﷺ بقوله: « إذا دخلت في العمل كنت لك» أي: إذا دخلت في العمل ناظرًا إليه، ومعمولاً ومعتمدًا عليه كنت لك؛ أي: كنت في هذه المعاملة ناظرًا لنفسك، مثبتًا لها حيث نظرت لعملها، وإذا دخلت في المحبة كنت له؛ لأن المحبّ لا يشهد في كل شيء إلا مولاه، ولا يعوّل ولا يسكن لأحد سواه، فتحقق بحقيقة: «لا إله إلا الله»، ومن كان كذلك كان لله، فلذلك قال بعد ذلك: «العابد راءٍ لعبادته» أي: معتمد عليها؛ «والمحب راءٍ لمحبته» أي: أنها من فضل مولاه، فلذلك يحرص على كل ما يوصله إليها، ولو قال: «والمحب فان في محبته» لكان أظهر في المقصود، ولعله كذلك في بعض النسخ التي لم تصل إلينا في هذه الحدود[2].

فاجتهد أيها الأخ لعله يحصل لك مقام المحبة، فيشرق عليك نور المعرفة، فتحوز من الولاية أعظم رتبة.

وقال ﷺ: (إذا عرفته كانت أنفاسك به، وحركاتك له، وإذا جهلته كانت حركاتك لك) أي: إذا عرفته بمعرفة نفسك بالفقر والضعف والعجز والذلة كانت أنفاسك به في الغنى والقوة والقدرة والعزة، تحقق بأوصافك يمدّك بأوصافه، تحقق بفقرك يمدك بغناه، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته، تحقق بذلِّك يمدك بعزته، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، وإذا جهلته بجهلك لنفسك برؤيتك لها وتدبيرها كانت حركاتك لك لا لمولاك، وأنت حينئذ بعيد من طريق وصولك إلى شرفك وعلاك.

فانهض أيها الأخ بهمة عليّة، واخرج عن حولك وقوتك تحز شمّة من هذه المراتب السنية.

وقال ﷺ: (العابد ما له سكون، والزاهد ما له رغبة، والصدِّيق ما له ارتكان، والعارف ما له حول ولا قوة ولا اختيار ولا إرادة ولا حركة ولا سكون، والموجود

---

(١) تقدم.

(٢) إن المتن المعتمد قد جاء فيه: " والمحب راء لمحبته" لذلك نرى أن القول بغير ذلك في نسخ أخرى غير وارد.

ما له وجود) العابد: ما له سكون؛ لأنه في المجاهدة، والزاهد: ما له رغبة؛ لأنه أعرض عن الزوائد، وقد عكف على المائدة، والصديق: ما له ارتكان لدخوله في مقام الإحسان، والعارف: ما له حول ولا قوة لوصوله إلى مقام العيان واستكماله الفتوة، ومن وصل إلى هذا المقام يستحي أن يختار أو يرتد مع اختيار مولاه وإرادته، وتأبى همته أن يتحرك أو يسكن لقضاء حاجته، والموجود بوجود البقاء بعد الفناء ما له وجود لكونه فني عن وجوده الوهمي، وتحقق بمقام الوارثة فهو مستقيم على العهود.

فعليك أيها الأخ بمقام المتابعة لعلك تقطع هذه المنازل وتستوحش منك، ويحصل الأنس معه.

وقال ﷺ: (إذا استأنست به استوحشت منك) إذ الاستئناس به تعالى لا يحصل إلا بعد الانفصال من الأغيار ونفسك غَيْر، فلذلك كان الاشتغال بها مما يوحشك ويشعل عليك هذه النار، فأعرض أيها الأخ عن نفسك بالكلية، وأقبل على مولاك، واهجر الأغراض الدنية، وصحح النية في هذا السفر، فإنه أسرع مطاياك.

كما أشار إلى ذلك ﷺ حيث قال: (من اشتغل بنا له أعميناه ومن اشتغل بنا لنا بصّرناه) أي: من اشتغل بخدمتنا لحظوظ نفسه بعدناه وأعميناه، ومن اشتغل بنا ليس قصده إلا حضرتنا قرّبناه وبصّرناه، فلا تتعدَّينَّهُ همتك أيها الأخ إلى غيره فتكون كحمار الرحى الذي ارتحل عليه هو الذي ارتحل عنه، وانظر إلى قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] فتأمل يا أخي بعين البصيرة هذا الكلام تر هواك،

---

(١) حديث عمر: أخرجه مالك في رواية محمد بن الحسن (ص ٣٣٨، رقم ٩٨٣)، وأحمد (١/٢٥، رقم ١٦٨)، والبخاري (١/٣، رقم ١)، ومسلم (٣/١٥١٥، رقم ١٩٠٧)، والترمذي (٤/١٧٩، رقم ١٦٤٧)، وأبو داود (٢/٢٦٢، رقم ٢٢٠١)، والنسائي (٦/١٥٨، رقم ٣٤٣٧)، وابن ماجه (٢/١٤١٣، رقم ٤٢٢٧). وابن المبارك (١/٦٢، رقم ١٨٨)، والحميدي (١/١٦، رقم ٢٨)، والبيهقي (١/٤١، رقم ١٨١)، والطحاوي (٣/٩٦)، والطبراني في الأوسط (١/١٧، رقم ٤٠)، والخطيب (٤/٢٤٤)، وابن عساكر (٣٢/١٦٦)، وابن منده في الإيمان (١/٣٦٣، رقم ٢٠١)، وتمام في الفوائد (١/٢٠٥، رقم ٤٨٣)، والصيداوي في معجم الشيوخ (١/١١٧)، وابن خزيمة (١/٧٣، رقم ١٤٢)، والدارقطني (١/٥٠)، وأبو عوانة (٤/ ٤٨٧، رقم ٧٤٣٨)، والبزار (١/٣٨٠، رقم ٢٥٧)، وهناد (٢/٤٤٠، رقم ٨٧١)، والبيهقي في

ويكشف لك عن الحقيقة فيتضح لك حينئذ المرام.

كما قال ﷺ: (**إذا زال هواك يكشف لك عن باب الحقيقة، فتفنى إرادتك، فيكشف لك عن الوحدانية، فتحققت به أنه هو بلا أنت معه**) إزالتك هواك أن يعرفك نفسك بالفقر والضعف والعجز والذلة، فتعرف ربك حينئذ بالغنى والقوة والقدرة والعزة فينكشف لك باب الحقيقة، فتفنى إرادتك واختيارك وتدبيرك، وتشهد أن المريد والمختار واحد لا سواه، وأنه المتصرف في سائر الأحوال لا أنت، فتحط رحلك في حماه، وتعكف بناديه، وتتحقق بحقيقة: «لا إله إلا الله» ويكون شريك التفويض والتسليم[1]، ويدار عليك من كؤوس هذا الرحيق ما تذوق باسمه من نعيم القرب، فيا له من نعيم!.

كما قال ﷺ: (**إن سلّمتَ إليه قرّبك، وإن نازعته أبعدك**) إن سلمت إليه قربك؛ لتحققك حينئذ بمقام العبودية، وإن نازعته أبعدك؛ لمخالفتك أحكام الربوبية، فاخضع وانكسر بين يدي مولاك، وتقرب إليه، ولا تتقرب بنفسك تظفر بعلاك.

(**إن تقربت إليه به قربك، وإن تقربت إليه بك أبعدك**)

إليكم بكم سيادتي جئتكم	**فلا تهملوا من أساء الأدب**
وقولوا: عفا الله عما مضى	**فليس التفضل منكم عجب**

(**إن طلبته لك كلفك**) لوقوفك مع أغراضك (**وإن طلبته له دلّلك**) لسلامتك من أمراضك (**إن جئت بلا أنت قبلك**) لتحققك بمقام التوحيد (**وإن جئت بك حجبك**) لسوء أدبك وشركك وإفلاسك عن مقام التفريد.

(**العامل لا يكاد يخلص من رؤية عمله**) لبقاء غبار الشرك فيه (**فكن من قبيل المنة له، ولا تكن من قبيل العمل**) ليتم لك شرب التوحيد، وتدار عليك كؤوس معانيه.

(**إن عرفته سكنت**) لتحققك بمعرفة أن لا نجاة إلا بالانطراح لديه (**وإن جهلته تحركت**) لشركك وخذلانك، فلذلك وافقتك الجوارح عليك (**فالمراد أن يكون ولا تكون**) وهذا المقام يتم لك إن تحققت بالفناء، وصرت من الرجال، وشربت من شراب المعرفة، وأديرت عليك كؤوس من أهل الكمال.

الزهد (١٣/٢، رقم ٢٤١)، والحسن بن سفيان في الأربعين (٥٦/١، رقم ١٣).

(١) "ن" ويكون شريك التفويض فيكشف لك عن الوحدانية فتحقق أنه هو لا أنت.

فانهض أيها الأخ الشقيق بهمة عليه، وجاوز العوام لعلك ترد حياض الخواص وخواص الخواص، فتكرع منها، وتتم لك السعادة الأبدية.

(**العوام أعمالهم متهمات**) لوجود بقايا الشرك فيهم (**والخواص أعمالهم قربات**) لشهودهم التقصير، وانكسارهم في معانيهم (**وخواص الخواص أعمالهم درجات**) لارتقائهم في مقام التوحيد، وخروجهم عن مبانيهم.

(**وكلما اجتنبت ذاتك قوي توحيدك**) لسلامتك من المعارضات، وكلما اجتنبت ذاتك قوي توحيدك؛ لفنائك عنك، وانغماسك في بحر الموافقات، فإن أردت أيها الأخ الصديق أن يدار عليك كأس من هذا الرحيق فاقبل على المولى، وأعرض عن السوى.

(**الخلق حجاب، وأنت حجاب، والحق ليس بمحجوب**) إذ لو حجبه شيء لستره، ولو ستره لكان له حاصرًا، ولو كان له حاصرًا لكان له قاهرًا ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام:١٨].

(**وهو محتجب عنك بك**) أي: باشتغالك بنفسك، وإلا فهو أقرب إليك من حبل الوريد (**وأنت محجوب عنك بهم**) إذا صدقت في الإقبال عليه، وفنيتَ وانطرحت بين يديه (**فانفصل عنك تشهده والسلام**) واخرج عن أوصافك لتشهده، وتدخل مقام الإحسان، فتميس حينئذ من الفرح سائر أعطافك، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[1].

فلا تستعن يا أخي في مثل هذه المطالب إلا بمولاك، واعرف ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة:٥] يتم لك شربك وعلاك.

والحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على من حاز بمتابعته أرباب الكمال، وعلى آله وجميع أصحابه ما سلك سالك إلى مولاه وانطرح على بابه.

تمت بحمد الله تعالى

---

(١) تقدم تخريجه.

نهاية البيان
في شرح رسالة أرسلان

تأليف

الشيخ علي بن صدقة الدمشقي

المتوفى سنة ٩٧٥هـ

باعتناء وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

ترجمة المصنف

هو الشيخ العالم العارف بالله الملامتي سيدي علي بن صدقة بن علي بن صدقة: واعظ متصوف شافعي، له شعر رقيق. حلبي الأصل، اشتهر وتوفي بدمشق.

(٠٠٠ - ٩٧٥ هـ) يكنى علاء الدين. قيل: اسم أبيه عبد الله. وغلب عليه اسم جده صدقة.

وكان يعظ بالجامع الأموي، فصيح اللسان لم يضبط عليه لحن في وعظه.

وقيل: هو من السادة «الملامتية» - قدس الله أسرارهم -.

وكان خشن العيش لا يبالي باللبس، وله كتب، منها:

- السيرة النبوية.
- شرح رسالة الشيخ أرسلان. كتبها شيخه ابن طولون بخطه.
- ديوان شعر.



بسم الله الرحمن الرحيم

نهاية البيان في شرح رسالة أرسلان للشيخ علي بن صدقة الشافعي

قال الولي العارف بالله تعالى الشيخ أرسلان الدمشقي ﷺ وأرضاه، وجعل الجنة مأواه ومأواه: (كُلك) من حديث آيتك وشهودك ما سوى الله تعالى (شرك خفي) عنك جلي لدى أهل الله تعالى المتحققين بسر: قل الله (ولا يبين لك توحيدك) الخاص، فيظهر صافيًا من كدورات شركة الأغيار (إلا إذا خرجت عنك) لله تعالى بالرياضة الصادقة في مقامات السالكين حتى تصل إلى مشاهدات العارفين ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وإذا تخلصت من شهود الأغيار (فكلما أخلصت) التوحيد بالتوجه إلى الحق من الخلق (يكشف لك) أي: الحقيقة إنسانيتك المدركة بعد زوال وهمك وخيالك (إنه) سبحانه (هو) الحق المبين؛ أي: وجوده الحق الصرف (لا أنت) إذ ليس لك وجود معه «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما كان عليه»[1]؛ إذ ما سوى الحق باطل، وأنت من جملة السِّوى من حيث شهودك إياك، والغرض أن تفنى عنك وتفنى عن فنائك عنك حتى لا يبقى عندك غير الحق سبحانه وتعالى، وغيب به عنك حتى تضمحل وهو يبقى ولا أنت، فترى وجود الأشياء حينئذ بالنسبة إلى وجود الحق تعالى باطلاً.

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فإذا وصلت إلى هذا المشهد حصلت على المقصود (فتستغفر) حاول

---

(١) تقدم.

وصولك (منك) ومن شهودك سوى الله تعالى، فتصل إلى مقام التفريد وتجريد التوحيد.

(وكلما وحدت) في عين الجمع (بان لك) في عين الفرق (الشرك فتجدد له في كل ساعة ووقت) بل في كل دقيقة (توحيدًا) بألَّا تشاهد بعين اليقين إلا الله تعالى و(إيمانًا[١]) أي: يقينًا صادقًا من شهود حق اليقين من أن الوجود الحق لله تعالى، ولا فاعل إلا الله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص:٨٨].

والهالك فاعل له في حقيقة الأمر، والبقاء الحقيقي إنما هو لله تعالى: فلا فاعل في الحقيقة إلا الله تعالى، فالكل من الله وإلى الله بالله، فقل: أسلمت وجهي لله، فتهرب من الكون إلى المكون، ومن الظاهر إلى المظهر، ومن الفاني إلى الباقي، فتصير بعد اصطلامك في شهود الباقي باقيًا به.

(وكلما خرجت عنهم) أي: من الخلق إلى الخالق، ومن شهودهم إلى شهوده، وقصرت عين البصيرة على مشاهدة جمال حضرة الربوبية مستغرقًا في بحار الأحدية (زاد إيمانك) أي: ترقيت إلى مقام أعلى وأغلى وأحلى وأجلى من الأول إلى غير نهاية؛ لأن العارف لا يقف مع شيء من المقامات، ثم بعد خروجك من الخلق بفنائك عنهم ترقى إلى خروجك عن نفسك بالفناء عنها (وكلما خرجت عنك) حتى لا تكون لك (قوي يقينك) فتتحقق بالحقيقة الحقية ألَّا كونية لك من حيث أنت، فتعلن له تعالى بالوحدانية على الإطلاق.

فصل في وصل

(يا أسير الشهوات والعبادات، يا أسير المقامات والمكاشفات، أنت مغرور) لانشغالك بهذه الأشياء عن الله تعالى (أنت مشتغل بك عنه) أي: بحظوظك عن ربك، ووقوفك في معراج العرفان عند مقام أو كشف.

فإن قلت: كيف يكون العلم السلوكي والكشف الحقيقي من الحظوظ؟ فاعلم أن العارف ليس له حظ من الدارين إلا الله تعالى، فلا يقف معه شيء دون الله تعالى، فإن سكن فبالله، وإن تحرك فبالله، وإن أقبل فعلى الله، وإن أدبر فإلى الله،

---

(١) جاء في الأصل المخطوط ويجدد له (إيمانا) وبما أن الشرح جاء (وإيمانا) وردت الجملة على شكلها أعلاه؛ ليستقيم المعنى، المؤلف.

وهكذا في جميع الأحوال، فهو مشتغل بالله تعالى دائمًا، وأمّا الواقف مع الكشوفات العرفانية فهو مشتغل بحظوظه عن الله تعالى، ولذا قال الولي العارف - رحمه الله تعالى -: (أين الاشتغال به عنك) حتى لا تنطق إلا بالله، ولا تنظر إلا إلى الله، ولا تسمع إلا من الله:

وإن نطقت قمرية فوق أيكة ... فإني منكم لا من الطير سامع

فلا تستحيي أن تشتغل بسواه (وهو عز وجل حاضر ناظر).

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤] أي: بالعلم والحكم والأناة والعناية والفضل والرحمة (في الدنيا والآخرة) فإذا تحققت بذلك كنت مع عنايته وحكمه، (فإذا كنت معه) بسبب تحققك بذلك (حجبك عنك) أي: أبعدك عن رؤية وجودك بمشاهدة وجوده ولطفه وجوده (وإذا كنت معك) احتجب عنك بحجاب العزة و(استعبدك له) أي: أوقفك في أول المقامات السلوكية لالتفاتك إلى ما سواه.

فصل بل وصل

(الإيمان خروجك عنهم[1]) أي: عن المشهد الحق المستغرق لكليتك به، والخروج عن ذلك هو مقام الصحو للإتيان بما هو من لوازم الإيمان من العبادات، وهو شأن الكاملين (واليقين خروجك عنك) أي: عن أوصاف بشريتك إلى مشهده الأول، وهو مقام المحو للرسوم الغريبة في الأحدية الجمعية، فيقوى حينئذ نور عين يقينك المعبر عنه بقوله: (وإذا زاد يقينك) أي: تحققت الحقائق (نقلت من مقام إلى مقام) في مشاهد القربة والكشوفات التمكينية.

فصل

(الشريعة) جعلت (لك) أيها العبد دليلاً عليه تعالى (حتى تطلبه) أي: تطلب الوصول إلى حمى جنابة الرفيع (منه به تعالى) لا من غيره؛ لذهابك إليه عن الأغيار، فلا تكون مستعينًا على الوصول إلى باب الحق تعالى إلا به، وقوله: «لك» أي: لأجل خلاص نفسك من موبقاتها.

---

(١) جاء المتن في المخطوط: (الإيمان خروجك عنه) أمّا المتن المعتمد فقد جاءت الجملة: (الإيمان خروجك عنهم).

(**والحقيقة**) التي نهايتها: شهود الحق بالحق، وأولها: نور إلهي يقذف في قلب العارف يكشف له بذلك النور عن حقائق الأشياء على ما هي عليه (**له**) تعالى، فلا تطمع في الوصول إليه (**حتى تطلبها به له** ﷺ **حيث لا حين ولا أين**) أي: تطلب الحق بالحق للحق مخلصا، واعلم أنك لا تصل إلى شهود التجلي إلا بعد التحلي والتخلي.

(**فالشريعة**) لها (**حدود وجهات**) لأنها من عالم الملك (**والحقيقة لا حد**) لها (**ولا جهة**) لها؛ لأنها من عالم الملكوت (**القائم بالشريعة تفضل عليه بالمجاهدة**) من حيث إنه أفاض على قلبه حقائق المعرفة بالجود الفضلي، وقران الشريعة والحقيقة إشعار منه بأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ إذ الشريعة بلا حقيقة عاطلة، والحقيقة بلا شريعة باطلة كما صرح بذلك غير واحد من أهل الله الكمل ﷺ.

(**وشتان ما بين المجاهدة والمنة**) لأن المجاهدة طريق المنة الفضلية، والطريق الموصل إلى المطلوب ما سلك فيه لذاته، وإنما قصد السلوك فيه؛ ليؤدي إلى المبتغى (**القائم مع المجاهدة موجود**) لعدم شهوده (**والقائم مع المنة**) الفضلية (**مفقود**) أي: فان؛ لشهوده ما فني به، ولسبب الحق تعالى إياه من شهود شهوده إلى مشهوده، لكن لا بدّ للعبد من المقام مع الأول حتى يتأتى له القيام مع الثاني.

فصل

(**الأعمال متعلقة بالشرع الشريف**) لأنها من المساعي الظاهرة (**والتوكل**) كل خلق محمود باطن (**متعلق بالإيمان**) لأن التوكل ونحوه من الزهد والصبر والخوف والرجاء من المساعي الباطنة (**والتوحيد يتعلق بالكشف الصحيح**) لأنه - أي: توحيد خواص الكشفي - عين الحقيقة، والحقيقة كشف الغطاء عن البصيرة بحيث يصير الغائب حاضر.

(**الناس تائهون**) في حيرة (**عن الحق بالعقل**) لأنهم معقولون بعقولهم عما وراء طور العقل من الكشوفات والتجليات الإلهية، والعقل ملكة يعرف بها الجائز والمستحيل والواجب من حيث التعقل (**وتائهون عن الآخرة بالهوى**) لشغلهم بالحظوظ العاجلة.

(**فمتى طلبت الحق بالعقل**) أي: بمفرده (**فقد ضللت**) فلا بد معه من دليل

يرشده، وهو الشرح المحمدي بالتعريف الإلهي؛ إذ الحق تعالى لا يعرف إلا بتعريفه (ومتى طلبت الآخرة بالهوى) أي: مع الهوى الذي هو ميل النفس إلى محبوبها (فقد ضللت) فاطلب الآخرة بالسلوك على الطريقة المحمدية مستهديًا بالله تعالى وبرسوله ﷺ.

فصل

(المؤمن ينظر) في الأشياء (بنور الله) تعالى الذي فتح به عين بصيرته؛ لقوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1].

(والعارف ينظر به إليه) أي: بالله إلى الله؛ أي: إلى شهود جماله وجلاله؛ لأنه بعد العروج على سماء المعرفة ما تعلق نظره بغير الله تعالى (ما دمت أنت معك) بشهود وجودك (أمرناك) الطاعة، ونهيناك عن المعصية؛ أي: كلفناك بالامتثال والاجتناب، فتجد كلفة التكليف.

(فإذا فنيت عنك) أي: عن شهودك وجودك (توليناك) بالألطاف والمواهب والرعايات والعنايات، فلا تجد كلفة التكليف؛ لاستغراقك بشهود جمالنا المطلق عما سواه، فتمتثل للأوامر وتجتنب المناهي من غير أن تجد كلفة لذلك (وما تولاهم إلا من فنائهم) عن غيره، وفي هذا إشارة إلى أن السالكين لا يصلون إلى مقام الولاية الكبرى إلا بعد فنائهم عما سوى الله تعالى حتى يؤهلوا لشهود جمال الحضرة الربوبية؛ لأن الفناء طهارة الروح وجميع أحداثها الفرقية حتى يباح لها الدخول إلى جامع الجمع شهودي لأجل صلاة الوصلة.

(ما دمت أنت) مع نفسك من غير إفنائك إياها رؤيتك سلوكك وعملك وإرادتك الفناء (فأنت مريد) واقف في مقام الإرادة (فإذا أفناك عنك) وأبقاك به (فأنت) حينئذ (مراد) الحق من الخلق.

---

(١) حديث أبي سعيد: أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٧/٣٥٤)، والترمذي (٥/٢٩٨، رقم ٣١٢٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم في الحلية (١٠/٢٨١). وأخرجه أيضًا: الطبري (١٤/٤٦). حديث أبي أمامة: أخرجه الطبراني (٨/١٠٢ رقم ٧٤٩٧) قال الهيثمي (١٠/٢٦٨): إسناده حسن. والحكيم (٣/٨٦)، وابن عدي (٤/٢٠٦، ترجمة ١٠١٥ عبد الله ابن صالح)، والخطيب (٥/٩٩). وأخرجه أيضًا: الطبراني في الأوسط (٣/٣١٢، رقم ٣٢٥٤)، والقضاعي (١/٣٨٧، رقم ٦٦٣). حديث ابن عمر: أخرجه الطبري (١٤/٤٦).

(**اليقين الأدوم**) الذي هو إستار صبح الكشف على ظلمة ليل حجبك النفسانية (**في غيبتك**) أي: فناؤك (**عنك ووجودك**) أي: بقاؤك (**به**) تعالى، فكلما كنت غائبًا عنك، فأنت في يقين بلا شك، وكلما إياك عدمت فأنت في وجود بلا عدم.

(**فكم بين ما يكون بأمره، وبين ما يكون**) قائمًا (**به**) سبحانه، فالأول مع العبادات والثاني مع المعبود، وشتان ما بينهما، فالعارف في العبادة مع المعبود لا في العبادة مع العبادة، والأول مع الأمر والثاني مع الأمر في أمره.

(**إن كنت**) قائمًا (**بأمره خضعت**) أي: تيسرت (**لك الأسباب**) حصوله إلى المسببات (**وإن كنت**) قائمًا (**به**) تعالى (**تضعضعت لك الأكوان**) بل وتنقاد لك وتطيعك بإذن الله مسبب الأسباب وميسر الأمور الصعاب.

فصل

(**أول المقامات**) السلوكية (**الصبر على مراده**) أي: حبس النفس على مراد الله تعالى، وهذا هو صبر الخاصة (**وأوسطها الرضا**) وهو: طمأنينة القلب (**بمراده**) تعالى (**وآخرها أن تكون**) أيها العارف في كل تصرف (**بمراده**) أي: الله تعالى؛ لنسيانك إرادتك بفنائك عنها كما قال: «مرادي منك نسيان المراد».

فصل

(**العلم**) الكسبي (**طريق العمل**) ثم الكسبي تارة يكون طريقًا لأعمال الجوارح، وتارة يكون طريقًا لأعمال القلوب، فالأول: كعلم الشرائع، والثاني: كعلم التوحيد والأحوال والمقامات والأخلاق (**والعمل**) بالعلم الكسبي (**طريق العلم**) الوهبي اللدني.

(**و**) هذا (**العلم**) الوهبي (**طريق المعرفة**) بالله تعالى وبصفاته وأفعاله (**والمعرفة**) بالله تعالى هي سمو اليقين عن حد الثقلين إلى كمال العيان من مطارح البرهان (**طريق الكشف**) الذي هو: ظهور ما احتجب من عين العقل لعين الحقيقة الروحية (**والكشف طريق الفناء**[1]) في الله تعالى عما سواه، والفناء طريق الخلة، وهي سقوط الإشارة من السريرة إلى الرسم لظهور الاسم.

---

(١) الصواب أن تضاف كلمة «والكشف» كما فعلنا أعلاه.

(ما صلحت لنا) أي: لشهود قدمنا **(وفيك بقية)** ما **(لسوانا)** فافن عن كل بقية في نفسانيتك تصلح بروحانيتك لشهود قدس الباقي **(فإذا حولت السوى)** أي: طرحت عن قلبك ما سوى الله تعالى حتى لا يبقى فيك متسع لغيره **(أفنيناك عنك)** أي: شغلناك عن وجودك بمشاهدة شهودك **(فصلحت لنا)** أي: كنت أهلاً للمشاهدة الأنسية **(فأودعناك سرنا)** لأهليتك له من بين الخليقة الإنسية، والسر الإلهي شهده الجنان وخرس عن النطق به اللسان.

فصل

(إذا لم يبق عليك حركة لنفسك) لخروجك عنها كلها لله تعالى **(كمل يقينك)** واليقين: هو طرح الريب لشهود الغيب، فتكون في كل حركة قلبية وقالبية مستعينًا بالله تعالى، مستغنيًا به عما سواه، وهذا عين كمال اليقين **(وإذا لم يبق لك وجود عندك)** لفقدك نفسه من استيلاء أنوار التجليات الإلهية على قلبك **(كمل توحيدك)** التوحيد: هو عبارة عن نفي الأغيار وإثبات الواحد من كل وجه واعتبار، وكمال التوحيد زوال النسبة وذهاب الغيبة.

(أهل الباطن) أي: علم الحقيقة **(مع اليقين)** لصيرورة الغائب عندهم حاضرًا **(وأهل الظاهر)** أي: علم الشريعة **(مع الإيمان)** بالمغيبات.

واعلم أن علم الحقيقة هو روح علم الشريعة ولبابه وثمرته، فهو في الحقيقة من علم الشريعة **(فمتى تحرك قلب صاحب اليقين)** بأنه يخطر فيه خاطر لغير الله تعالى **(نقص يقينه)** ولذلك قال:

ولا خطرت في السر بعدك خطرة ... لغيرك إلا عرجا بعناني

(ومتى لم يخطر له خاطر) لغير الله تعالى **(كمل يقينه)** كما قلت:

انقض بيت القلب من غيرها عسى ... وكملة منها بكل مليحة

يقين بلا شك ووصل بلا نوى ... وجمع بلا فرق على كل لمحة

(ومتى تحرك قلب صاحب الإيمان بغير الأمر نقص إيمانه، ومتى تحرك بالأمر كمل إيمانه) لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهو مذهب الإمام الشافعي ﷺ وتبعه على ذلك غير واحد من جهابذة الأمة ومحققي الصوفية لما شاهدوا أن الإيمان الحقيقي يثمر الخشية، وكلما كان صاحب الإيمان ممتثلاً

مجتنبًا زادت خشيته، وكلما كان غير ذلك نقصت خشيته إلى أن تذهب بالكلية - والعياذ بالله تعالى - فينقص إيمانه؛ لأن الإيمان بمنزلة الشجرة، والخشية بمنزلة الثمرة، وإذا انعدمت ثمرة الشجرة دل ذلك على فسادها ونقصها، وهذا مقال شهده أهل القلوب المراقبين لعلام الغيوب في السر والعلانية، فلا يرجعون عن شهودهم لقياس جدلي أو برهان كلامي كما قلت:

شهودي الحق حقًا بالعيان عن البرهان في جدلي كفاني

إذا ما كنت أشهد حكم باق فإني عن سواه الدهر فان

(**معصية أهل اليقين**) بأدنى التفات إلى ما سوى الله تعالى ولو سهوًا (**كفر**) عندهم كما قال:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوًا قضيت بردتي

ومن ثم كانت «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، ولذلك قيل: «على قدر ما تتمنى تتعنّى، وعلى قدر المقام يكون السلام، وعلى قدر القرب يكون البعد، ألا ترى أن الملوك جرت عادتهم بمناقشة من هو عندهم إذا نزل أكثر من مناقشتهم لغيره، الأول بسطواتهم تفصيلاً، وعلم الثاني بها إجمالاً (**ومعصية أهل الإيمان نقص**) في إيمانهم لما تقرر.

فصل

(**المتقي مجتهد**) في إعمال التقوى بإخلاصه وصدقه في طلبه، وحقيقتها: امتثال ما أمر به العبد واجتناب ما نهي عنه (**والمحب**) لله تعالى (**متكل**) عليه؛ لصدقه في المحبة، وحقيقتها: استيلاء المحبوب على السر، واستمراء القلب بدوام الذكر.

(**والعارف**) بالله تعالى (**ساكن**) لأحكامه في ملكه وملكوته، قد سكن بقلبه تحت مجاري سطوات الأقدار (**والموجود**) بربه تعالى (**مفقود**) في شهوده قربه، فعلامة التقي: الاجتهاد، والحب: الاتكال، والمعرفة: السكون، والوجود بالله: الغنى عما سواه.

(**فـ**) على هذا (**لا سكون لمتقي**) لكثرة اجتهاده (**ولا عزم لمحب**) لطمأنينة

قلبه بمحبوبه في كل حال (ولا حركة لعارف[1]) لسكونه بقلبه وقالبه إلى اختيار مقلب القلوب (ولا وجود لمفقود) لفقد روحه الطبيعية السفلية وعكوفها مع الأرواح العلوية على طوالع الغيبة.

(ما تحصل المحبة إلا بعد اليقين) لأن من لم يطالع جمال المحبوب غيبة وحضورًا ما حصل له من المحبة زنة حبة ولا استكمل حبه، فيشهد حبه، ولذلك قال: «من طالع جمال المحبوب في الغيبة والحضور استوى عنده الأمران».

وعـزة الحـب أن الحـب أشـهدني ... عين الحبيب الذي أهواه في خلدي

فحال حضرته كحال غيبته، وهذه صفة لم تدر في خلد أحد، واستواء الأمر عند المحب هو اليقين الحقيقي المنتج للمحبة الحقيقية.

(المحب الصادق) في حب مولاه (قد خلا قلبه مما سواه) لاستغراق المحبة بكمال، وجمال محبوبه عن كل شيء سواه حتى عن نفسه، ولذلك قلت:

ولمـا بـدت للعـين أبهـتت العيـنا ... وقـد أدهشت قلبي فلـم يدر في أينا

تحيـرت فـيها إذ خلـوت بحـسنها ... وغبـت بهـا لـم أدر وصـلاً ولا بيـنا

(وما دام عليه بقية محبة لسواه فهو ناقص المحبة) فعليه بقلع السوى من قلبه وطرحه من لبه؛ ليكون كامل المحبة لربه كما قال:

كانـت لقلبـي أهـواء مفـرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

تـركت للـناس دنـياهم وديـنهم ... شـغلا بحـبك يـا ديـنـي ودنـياي

(من تلذذ بالبلاء فهو موجود ومن تلذذ بالنعمة فهو موجود) أي: غير فان، فلو كان فانيًا لما وجد من نفسه لذة للشعور باللذة، ولو كانت اللذة غير نفسية؛ إذ هو مؤذن بعدم الفناء، فلو كان فانيًا لما وجد من نفسه لذة، ولذلك قال: (فإذا أفناهم عنهم ذهب التلذذ بالبلاء والنعمة) في شهود المبلي والمنعم.

(المحب أنفاسه حكمة) المراد بالأنفاس: الكلام، وعبر بها عنه؛ لاشتماله عليها من باب تسمية الشيء بما اشتمل، والحكمة النطقية: كل لفظ وافق الصواب المقصود بأخصر عبارة وألطف إشارة، وإنما كانت أنفاس المحب حكمة؛ لأنه لا

---

(١) وردت الجملة في المخطوط (ولا غرم لعارف) والصواب كما في المتن المعتمد.

يشهد إلا محبوبه، ولا يسمع إلا منه، ولا يفهم إلا عنه، ولا ينطق إلا به أبدًا دائمًا إن كان صادقًا في محبته، وحينئذ فلا ينطق إلا بلطائف الإشارات التامة البالغة منتهى الغايات.

(والمحبوب) لله تعالى (أنفاسه قدرة) أي: العبد المحب الذي صدق في حبه وأعطى مقام المحبة حقه حتى وصل إلى مقام يحبهم ويحبونه فصار محبوبًا لمحبوبه قد جعله الله تعالى خلاً للتحف اللطيفة والمواهب الشريفة، فصار من أهل التمكن المتصرفين في الكون بقدرة الله تعالى.

(العبادات للمعاوضات) أي: العبادات الموضوعة لجزاء العبد في عبوديته عليها بطريق الفضل والتمنن.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٢].

(والمحبة للقربات) أي: المحبة موضوعة في الأصل لأجل التقرب إلى المحبوب بكل ما يمكن المحب، وحينئذ فإذا أجهد المحب نفسه في طلب المحبوب فله من الموالاة والإنعام ما لا يقدر على التعبير عنه إلا ذو الجلال والإكرام، ولذلك جاء عن الحق تعالى في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[1].

وهؤلاء هم الذين ليس لهم بغية إلا الله تعالى، ولذلك قال: (لما أرادوني لي) أي: قصدوني ببذل النفوس والمهج في محبتي (أعطيتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت) إذ أن أدنى ما أعد لهم ملك الجنان وأعلاه وأرفعه مشاهدة الملك الديان دنيا وأخرى (إذا أفناك عن هواك بالحكمة) وهي اسم لأحكام وضع الشيء في موضعه، وهي الخير الكثير.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(وعن إرادتك بالعلم) اللدني من لدنه؛ لأنه قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا

---

(١) أخرجه أحمد (٣١٣/٢، رقم ٨١٢٨)، والبخاري (١١٨٥/٣، رقم ٣٠٧٢)، ومسلم (٢١٧٤/٤، رقم ٢٨٢٤)، والترمذي (٣٤٦/٥، رقم ٣١٩٧) وقال: حسن صحيح.

عِلْمًا ﴾ [الكهف:٦٥].

(صرت عبدًا صرفًا) جواب إذا، وما عطف عليها؛ أي: صرت بعد ذلك متصفًا بصفة العبودية الحقيقية، وهي الإذعان والانقياد لأحكام الربوبية، وصرت داخلاً في زمرة ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢] فصرت عبدًا حقًا (لا هوى لك ولا إرادة) لك مع إرادة الله؛ لانعدام ميلك النفساني إلى ما يقتضيه طبعك البشري، ولتلاشي إرادتك واختيارك مع إرادة الحق تعالى واختياره.

(فحينئذ يكشف لك عن نفسك[1]) الغطاء، فيتحد بصر بصيرتك وتشاهد ما غاب عنك بعين سريرتك (فتضمحل) أي: تفنى (العبودية في الوحدانية) فلا يلحظها العبد وهو متصف بها (فيفنى العبد) في العبودية، فانيًا عن صفة العبودية المتلبس بها؛ لذهوله عنها بالمعبود المشهود (ويبقى الرب تعالى) متصفًا بصفات الربوبية أزلاً وأبدًا في ديموميته، وإنما قال: ويبقى بصيغة المضارع اللفظي وباعتبار ما ينكشف للعبد من حقيقة ذلك في المستقبل بعد المجاهدة.

فصل

(الشريعة كلها قبض) من حيث إن مدارها عن الأمور الظاهرة من العبد المكلف، ولأن الشريعة لها حد يوقف عنده لا يتجاوزه، فإذا تجاوزه أحد قبضته أيدي الهيبة، وسطا سلطان القدرة بسيف الانتقام، فقول الشيخ - رحمه الله تعالى -: «كلها قبض» يشير بذلك إلى الوقوف مع الأحكام الشرعية تحت تصريفها في طي قبضتها، والقبض وارد يرد على القلب بعقاب على ترك أدب، أو على ارتكاب محظور، أو لوم على عدم القيام بشروط الأدب والشريعة كلها هكذا.

(والعلم كله بسط) المراد هنا بالعلم: العلم اللدني، وهو ما يوجد في القلب من العيان الكشفي بعد الاستقامة، هذا العلم ولوج في معنى الشهود الغيبي الذي ليس له نهاية ينتهي إليها ولا غاية يوقف عليها، ولذلك كان كله بسطًا؛ لأن البسط انبساط الروح في ميادين القرب التي لا تتناهى (والمعرفة كلها دلال) لتدلل صاحبها بين يدي من دله على معرفته وحماه من التذلل بغير عزة؛ لأنه لما دله رفع ذله،

---

(١) وردت الجملة في المخطوط (فحينئذ يكشف لك) والصواب (فحينئذ يكشف لك عن نفسك).

والدلال: هو قلع شجرة الوحشة من رياض الأنس بيد الوصلة.

(طريقتنا) معشر المحبين الوصل إلى المحبوب (كلها محبة[1]) صادقة خالصة مصفاة لا يشوبها شيء (لا عمل) يشوب بالنظر إليه، بل العمل الخاص طريق إلى مقام المحبة الصادقة، والمحبة الصادقة هي الطريق الموصل إلى شهود المحبوب، ولذلك كان طريق المحبين الموصل إلى محبوبهم المحبة بعد الوصول إليها بالعمل الصالح الخالص واستدامته معها.

(و) طريقنا معشر المحمديين الموصل إلى مقام أخذ الجمع (فناء) عن الأكوان والمكوِّن بشهود المكوِّن (لا بقاء) مع الشيء سواه، فافن عن الخلائق بشهود الخالق تنفجر في قلبك عيون الحقائق.

(إذا دخلت في العمل كنت لك) أي: تكون في العمل الصالح لخلاص نفسك وتزكيتها وتطهيرها من أحداثها الطبيعية (وإذا دخلت في) مقام (المحبة) بعد الحصول على الفلاح بالتزكية (كنت) على كل حال (له) خالصًا مخلصًا بكليتك وجزءيتك، وكونك لله لا شيء سواه هو المراد الأعظم.

(العابد راء لعبادته) من حيث إنه يسعى في تحرير رقبته من استرقاق يد الأكوان (والمحب راء لمحبته) من حيث استلذاذه بحقيقتها الروحانية المنبثة في صورتها الجسمانية، والإنسان الكامل العارف: هو من فني في شهوده عن جميع وجوده وعن كل ما سوى الله تعالى وهو ذاهل عن فنائه، لا يحس ولا يشعر به، فمتى أحس بالفناء لا يقف على ذروة ذلك الفناء.

(إذا عرفته) بأن شهدت من مقام الإحسان أنه مطلع عليك في حركاتك وسكناتك وخطراتك على الدوام (كانت أنفاسك) خارجة (به) أي: بذكره، فتكون أنفاسك كلها ذكرًا ولو لم تنطق (و) كانت (حركاتك) جميعها (له) فيكون هو متوليك فيها ومحركك بها، وأنت شاهد تعريف الحق فيك وحكمه عليك واختياره لك، فتنقلت العادات في هذا المقام عبادات، وهو مقام مراقبة المحبوب في السر والعلانية حتى لا تطرف بغيره طرفة عين.

(وإذا جهلته) بأن غفلت عن مراقبته (كانت حركاتك لك) بأن تنظر إلى

(١) ورد في المخطوط (محبة) والصواب (كلها محبة).

صورها منك وتخلع عنك كاهل الغفلات والبطالات، فتكون محجوبًا بظلمة طبعك، وبحركاتك النفسانية الشهوانية، وأمَّا أهل المراقبات لله تعالى في الخلوات والجلوات فإنهم لا يشهدون جميع الحركات والإرادات إلا من رب الأرضين والسماوات ومدبر الكائنات.

(العابد) المعطي مقام العبودية حقه (ما له سكون) لا ظاهرًا ولا باطنًا؛ لاجتهاده في الرق بتحقيق العبودية في ظاهره وباطنه كما يقتضيه المقام التعبدي (والزاهد) فيما سوى الإله (ما له رغبة) في غير الله تعالى (والصديق) فعيل مبالغة فيمن اتصف بصفة الصدق في أفعاله وأقواله وأحواله مع الله ﷻ (ما له ارتكان) إلى غيره من صدقه معه.

قال الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(والعارف ما له حول) عن شيء (ولا قوة) على شيء (ولا اختيار ولا إرادة) لشيء (ولا حركة ولا سكون) في شيء إلا بالله وحده؛ لغيابه عن كل شيء بالقلب وحضوره فيه بالرب، وهذا العارف هو (الموجود) في أرج القدس و(ما له وجود) في حضيض النفس، ولذلك انتفى عنه أن يكون في شيء من هذه الأشياء إلا بالله تعالى، وامتناع وجوده مع نفسه؛ لاستئناسه بوجود ربه، ولذلك قال الشيخ ﷺ: (إذا استأنست به) أي: بوجود الله تعالى في مشاهدك القدسية (استوحشت منك) أي: من وجودك في المطارح النفسية، فقد قلت:

توحشت مني حين آنست أنسها ... وغبت بها لما علي تجلت
عدمت بها أنسي بأنسي ولم أزل ... أشاهدها في كل حال أنيستي

(من اشتغل بنا له) أي: لأجله (أعميناه) أي: حجبناه عن التمتع بالجمال الأسنى، والمقام الأسمى؛ لاشتغاله بالمحبوب لا لذاته، ومن اشتغل بالمحبوب لا لذاته لاشتغاله بمحبوبه معلول، وادعاؤه الحب غير مقبول؛ لعدم إخلاصه في المحبة (ومن اشتغل بنا لنا بصَّرناه) أي: كشفنا له الحجاب حتى يشاهد ما عنه غاب؛ لإخلاصه في انشغاله بمحبوبه؛ لأن اشتغاله بالمحبوب لذاته لا لأمر آخر، فهو محب مخلص صادق في حب يستحق أن يبصَّر بحقائق الأشياء.

فصل

(**إذا زال هواك**) بالمجاهدة والرياضة الصادقة (**يكشف**) الستر (**لك**) أي: لعين قلبك (**عن باب الحقيقة فتفنى إرادتك**) عند ولوجه (**فيكشف لك**) السحائب (**عن**) سماء (**الوحدانية**) فتطلع منها شموس الفردانية على رحاب مواقفك الإيقانية في فضاء مشاهدك العرفانية (**فتحققت به**) أيها العارف (**أنه**) تعالى (**هو**) الموجود الحق (**بلا**) وجودك (**أنت معه**) لأنه يتعالى أن يكون معه غيره؛ بمعنى: أن يقرن وجوده بوجود غيره بل لا وجود لغيره مع وجوده؛ لأفول نجم المحدثات مع العدم بما أشرف عليها، وتطلع من شموس القدم.

(**إن سلمت**) أمورك (**إليه**) اكتفى بتدبيره عن تدبيرك؛ لعدم اطلاعك التام على العواقب، وكنت كالأموات بين يدي الحي (**قربك**) إلى جنابه ممنوحًا بالنعم، سالمًا من النقم، وأحياك حياة طيبة (**وإن نازعته**) باختيارك لنفسك وتدبيرك لها غير مكتف باختياره وتدبيره (**أبعدك**) عن الحمى الأقدس والمحل الأنفس، وردك من موارد الصفاء إلى مهامة قفار الجفا.

(**إن تقربت إليه**) مستعينًا (**به**) في التقرب إليك (**قربك**) إلى جنابه، وأدخلك في زمرة أحبابه؛ لغيابك عنك وحضورك به (**وإن تقربت إليه**) مستعينًا (**بك**) وبرؤيتك أعمالك (**أبعدك**) عن حمى أهل العرفان، وأوقعك في مهاوي أهل الحرمان (**إن طلبته لك كلفك**) أي: إن قصدته لرفع المقام ونيل المرام، ومواهب الأحوال ونتائج الأعمال، وقبول الأقوال تعبك وكدّك؛ لأنك في طلبك معلول، وأنت بك عنه مشغول، فأين طلبك إياه له ليستريح سرك من أعباء الكلف التكليفية وأنت قائم بها حتى تلقاه؟.

فإن من طلب الحق للحق اشتغل به عمن سواه، فيكون في العبادة وهو مشغول بمعبوده عن رؤية عبادته، فإن الصادق في طلب المحبوب لا يشتغل بشيء سواه وإن كان السوى عنده وبين يديه، ألا ترى العاشق لأحد الصور الحسان الحسية المحترق بنار العشق إذا رأى المعشوق اشتغل بوجوده عن وجود غيره حتى عن وجود نفسه، بل يشتغل عن نفس وجدان الوجدان، ويبقى مبهوتًا مستغرقًا، يسمع من معشوقه ويطيعه في كل ما يكلفه به ولا يجد لذلك كلفة ولا تعبًا، بل يجد تكليف المعشوق عين الراحة.

فإذا كان هذا حال من يعشق الصور المقيدة، فكيف من يهيم بالجمال المطلق؟ فإنه يمتثل جميع أوامر من هام بجماله، ويأتي بها على الوجه المسؤول بالتوفيق الإلهي، ولا يذهب عمن هام به طرفة عين، ومن ثم ترتفع عنه كلفة التكليف، فيجد تكليف محبوبه له غاية راحته كما قال: (**وإن طلبته له دللك**) أي: أراح سرك من تعب شهود الأغيار، وأزاح عن عين بصيرتك غشاوة الأكدار.

(**قربك**) إلى محبوبك ﷺ (**خروجك**) له (**عنك**) أي: عن وجودك (**وبعدك**) عنه (**وقوفك معك**) أي: مع وجودك (**إن جئت**) من منازل فرق الفرقة؛ لتشاهد حبك في المعاهدة الجمعية (**بلا**) رؤيتك لوجودك (**أنت**) مع وجوده هو (**قبلك**) وأهلك؛ لتلقي أسراره والفهم لحكمة آثاره (**وإن جئت بك حجبك**) لشهودك مع المحبوب جواه؛ إذ مقام المحبة غيرة من شهد به مع محبوبه غيرة أوقعه شهود السوى في غيره.

واعلم أن العاملين في العمل على قسمين:

- قسم: يعلم امتثالاً، ولا يرى لنفسه عملاً ولا وجودًا، ويطلب النجاة والفوز بمجرد فضل الله وامتنانه، وهذا هو العارف الذي خلص من رؤية أعماله.

- وقسم: يعمل ويطلب الظفر بمقصوده اعتمادًا على عمله، وهذا هو (**العامل**) الذي (**لا يكاد يخلص من رؤية عمله**) فكيف يكون من أهل الاختصاص العارفين إلا إذا سلب الرؤية لعمله ووجوده، وطلب الفوز بمجرد الفضل والامتنان؟.

(**فكن**) في توجهك في طلب المراد (**من قبيل المنة**) أي: من قبيل من يطلب الحصول على الوصول بمجرد منة الله تعالى وفضله عليه من إحسانه إليه (**ولا تكن من قبيل العمل**) أي: لا من قبيل من يطلبه بعمله، فإذا كنت كذلك فقد أخلصت له تعالى فخلصت وتخلصت.

(**إن عرفته**) بأن عرفت ألا موجود ولا فاعل إلا هو (**سكنت**) إليه بقلبك مطمئنًا، راضيًا بقضائه وقدره، فإن قلت: إذا قضى بالكفر والمعصية فكيف أرضى بذلك؟ فاعلم أن الكفر والمعصية مقضي به لا قضاء، والرضا لما هو بالقضاء لا بالمقضي في بعض الأحوال، وبهذا يظهر الفرق بينهما (**وإن جهلته تحركت**) بالاعتراض على القضاء، فتكون متعوب القلب مكدر السر.

(**فالمراد**) أيها السالك طريق المعرفة من جميع ما تقدم (**أن يكون**) هو

للشهود على كل حال (**ولا تكون**) بألّا ترى لك وجودًا معه؛ لفنائك عنك في شهودك إياه.

(**العوام**) وهم: السالكون في أول المقامات (**أعمالهم متهمات**) بالرؤية لها؛ لعدم تخلصهم من مقاماتهم (**والخواص**) وهو المتوسطون في سلوك المقامات والمستشرفون على قطعها إلى ما لا نهاية له (**أعمالهم قربات**) لهم إلى ربهم لزوال البقايا منهم وبقية الله خير، (**وخواص الخواص**) وهم الذين استكملوا قطع المقامات حتى وصلوا إلى حقائق المعرفة، فارتقوا في معارجها العرفاني الذي لا نهاية له (**أعمالهم درجات**) فلا يزالون يرتقون فيها.

(**كلما اجتنبت هواك**) أيها المريد (**قوي إيمانك**) أي: نور إيمانك فتحرق به شيطانك المريد (**وكلما اجتنبت ذاتك**) بفنائك عنها (**قوي توحيدك**) أي: قوي نور توحيدك فيحترق به شهودك لوجودك أيها المريد جناب الله تعالى (**الخلق حجاب**) لعين بصر بصيرتك عن رؤية المطلع على سريرتك (**وأنت**) أيضًا (**حجاب**) أي: أشد حجاب لقلبك عن شهود ربك، وإنما كنت أشد حجاب؛ لأن تركك الخلق أهون عليك من ترك نفسك، بل لا نسبة بين التركين.

(**والحق**) تبارك وتعالى (**ليس بمحجوب**) لتعاليه عن أن يحجبه شيء غيره (**ومحتجب عنك بك**) أي: من أجل رؤيتك لنفسك معه (**وأنت محجوب عنك بهم**) أي: وأنت محجوب عن معرفتك نفسك بسبب رؤيتك الخلق ووقوفك معهم والتفاتك إليهم، والمقصود: ألّا تحجب عن نفسك لكي تعرفها، فإذا عرفت نفسك عرفت ربك، فقد علمت أن معرفتك نفسك ليست لذاتها، وإنما هي لأجل معرفتك بربك، وإذا عرفت نفسك ولم تعقّد معرفتك، وكانت قاصرة حجبت عن شهود ربك؛ أي: عن معرفته.

(**فانفصل عنك**) وأعد المعرفة إلى من عرفك نفسك لأجله (**تشهده**) في كل شيء بما أظهره فيه من بدائع الصفة المتقنة المحكمة، ومع كل شيء بعلمه القديم الأزلي الذي لا يتغير، وعلى كل شيء بقدريته الباهرة القاهرة، فلا تشاهد في الوجود إلا الواحد المعبود (**والسلام**) عليك أيها الأخ في الله تعالى ورحمة الله وبركاته.

تمت الرسالة بعون الله تعالى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

(١) بآخر النسخة: وافق الفراغ نهار الأحد لثلاث وعشرين يومًا خلت من شهر ذي الحجة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف، على يد الحقير المسكين الضعيف العاجز، المعترف بالذنب والتقصير، الراجي عفو ربه المديد، محمد سعيد بن الشيخ محمد العراقي النقشبندي - غفر الله له ولوالديه ولمن قرأ له الفاتحة، ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات - إنك يا مولانا سميع قريب مجيب الدعوات، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

التعليقات الكمالية على الرسالة الأرسلانية

تأليف

الشيخ مصطفى كمال شريف

كان حيًا قبل سنة ١٣٠٤هـ

باعتناء وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي



ترجمة المصنف

هو الشيخ العالم مصطفى كمال الشريف الشاذلي. فاضل. (كان حيا قبل ١٣٠٤ هـ) (١٨٨٧ م)

من آثاره:

- التعليقات الكمالية على الرسالة الأرسلانية.
- المواهب الإلهية.
- مدخل لفصوص الحكم للشيخ الأكبر قدس سره.
- السوانح الكمالية على الحكم الشاذلية وذيلها طبعت بدمشق سنة ١٣٠٤ هـ.

وانظر: معجم المؤلفين (١٢/٢٧١).

❁❁❁



بسم الله الرحمن الرحيم

التعليقات الكمالية على الرسالة الأرسلانية[1]

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يليق بجلال وجهه الكريم، وكما ينبغي لسلطانه العظيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد السابق للخلق نوره، والرحمة للعالمين ظهوره؛ إذ به خرج الذين أجابوا دعوته من الظلمات إلى النور، وهدوا إلى الصراط المستقيم، وعلى آله الكرام وأصحابه الأعلام ضياء القلوب ونور اليقين، ونجوم الهدى لمن بهم اقتدى بهم إلى يوم الدين.

أمّا بعد.. فإن هذا العبد الضعيف كمال بن محمد شريف قد سنح له في اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٣١٥ هـ في دمشق الشام أن يعلق بعض كلمات على «الرسالة الأرسلانية» التي هي في بابها جوهرة كريمة، ودرة يتيمة، رضي الله عن مؤلفها الولي الكبير، والعارف الخطير، والقطب الجليل، ونفعنا به وبها في الدارين، وكان ذلك خدمة لها، وابتهاجًا بها؛ لأنها نور مبين، وجلاء للقلوب في كل آن جديد؛ اللهم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال ﷺ: (**كلُّك شرك خفي، ولا يبين لك توحيدك إلا إذا خرجت عنك،**

---

(١) تعتبر «التعليقات الكمالية على الرسالة الأرسلانية» أحدث شرح لرسالة التوحيد؛ لأن صاحبه العلامة الشيخ مصطفى كمال الشريف عالم عامل معاصر، وقد بدأ الشرح ثم انتقل إلى رحمته تعالى قبل أن يكمله، ومع هذا رأيت أن أنقله؛ لما في هذا الجزء من الشرح من نفحات سامية رفيعة، تميز بها الأستاذ الشارح، في كل ما كتبه من تعليقات، ومنتخبات كمالية إبان حياته الحافلة بجلائل الأعمال.

ومما يلاحظ أن الشارح نحا نحوًا يختلف عن غيره من أولئك الذين قاموا بشرح رسالة التوحيد؛ إذ اتبع أسلوب المقاطع. فكان يكتب المقطع ويتبعه بالشرح، وتوقف قبل وفاته عند مقطع من مقاطع «متن رسالة التوحيد» وهو: قال ﷺ: (**الإيمان خروجك عنه تعالى، واليقين خروجك عنك، إذا زاد إيمانك نقلت من حال إلى حال، وإذا زاد يقينك نقلت من مقام إلى مقام**).

فكلما أخلصت يكشف لك أنه هو لا أنت، فتستغفر منك، وكلما وحُدت بان لك الشرك، فتجدد في كل ساعة ووقت توحيدًا وإيمانًا، وكلما خرجت عنهم زاد إيمانك، وكلما خرجت عنك قوي يقينك).

(ش) يا من قال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ولم يتحقق بقوله ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**»[1] كلك من حيث حركاتك وسكناتك وخطراتك، وإرادتك شرك خفيّ عنك؛ لأنك زعمت بأنك موحد بسبب إقرارك بالإسلام واعتقادك بالإيمان، وظننت أن التوحيد هو الإقرار الذي كإقرارك، والاعتقاد الذي كاعتقادك.

نعم، إنك قد خرجت بهذا الإقرار وبهذا الاعتقاد عن الكفر البواح والشرك الصراح، ودخلت في زمرة المسلمين المؤمنين، ولكن ما قدرت على الارتقاء إلى مرتبة الإحسان، فتدخل في زمرة المحسنين الذين نالوا معزة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨] فإن هؤلاء اتقوا الكفر والشرك كله خفيه وجليه، وعبدوه تعالى كأنهم يرونه؛ لذلك سماهم الله: محسنين.

ولا يظهر لك شركك إلا إذا تبين لك توحيدك؛ وذلك بخروجك عنك، ولا يتبين لك توحيدك دفعة واحدة، ولكن شيئًا فشيئًا، وخروجك عنك هو إخلاصك في توحيدك، والإخلاص في هذه المرتبة؛ أي: مرتبة مبادئ الإحسان أن تتوجه بكليتك إلى فهم معنى: «كأنك تراه» وتجهد أن تكون كذلك، فكلما أخلصت؛ أي: كلما ظهرت لك أسرار هذا المعنى كل مرة، وتخلصت من نوع من أنواع الشرك الخفي، ارتقيت مدارج الإحسان، وفهمت معنى قوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[2].

وكشف لك حينئذ أنه - أي: الهوية التي أنت بها قائم هي - هو الحي القيوم الدائم لا أنت؛ أي: لا أنت قائم بنفسك، ولا أنت غيره من حيث هويتك، فأنت هو من حيث هويتك، وأنت غيره من حيث شخصيتك، وشخصيتك فانية مضمحلة تحت سلطان: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق:١٥] فهويتك أمرٌ لطيف، وشخصيتك خلق كثيف، وخطراتك وإراداتك وحركاتك وسكناتك شؤون، وأنت كلك موجود معدوم بين الكاف والنون ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٤١).

فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل:٤٠].

فمتى ظهر لك هذا المعنى على هذا الوجه فإنك بالضرورة تستغفر منك؛ أي: تطلب من الله سبحانه أن يغفر لك ما وقع منك قبلاً من الشرك بشهود آنيّتك بك؛ أي: من شهودك أنك غيره من حيث هويتك، ومن شهود موجوديتك قبل شهود الوجود الحق الذي أنت به قائم، ومن غفلتك عن سر البسط الذي أنت به موجود، وسر القبض الذي أنت به مفقود، ومن غفلتك عن معرفة شخصيتك أنها صورة فعله، وأن هويتك صورة أمره.

وكلاهما صورة وصفه، وإن وصفه صورة اسمه، وإنه ما تم إلا اسمه ووصفه وفعله، وإنك مرآة له، وإنه هو مرآة لك، فإن عرفت وذقت ذلك كنت عبدًا محضًا، وإن حرمت من ذلك تقلبت في دركات شقاء الكفر والشرك جليّه وخفيه بنسبة حرمانك، وحرمانك بنسبة جهلك، وجهلك بنسبة ضعف نورك المجهول أو عدمه ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٤٠].

وكلما وحّدت هذا التوحيد في مراتب الإحسان الأربعة كما ذكرنا بان لك وجه الشرك؛ لأنك إذا وحدت بشهود آنيتّك به بان لك شهود آنيّتك به قبلاً شرك، وهكذا في المراتب بعدها، فتجدد في كل ساعة ووقت من ساعاتك وأوقاتك مدة وجودك في المرتبة التي ترقيتها إليها توحيدًا وإيمانًا، وكلما خرجت منهم؛ أي: كلما ترقيت من هذا التوحيد والإيمان إلى المرتبة التي فوقها زاد إيمانك بالنسبة للمرتبة التي قبلها، فإنك إذا شاهدت الوجود الحق قبل شهودك موجوديتك بعد أن شهدت آنيّتك به زاد إيمانك؛ أي: صار عندك شهودان وذوقان.

وكلما خرجت منك؛ أي: تنبهت لسر البسط، وأنك موجود به، ولسر القبض، وأنك مفقود به، وغبت عن شهود موجوديتك آنين؛ أي: شأنين متتابعين، بل شأنًا وجودًا إضافيًا وشأنًا عدمًا حكيمًا، وتنبهت أيضا لشخصيتك، وكيف هما صورتا الفعل والأمر، زاد يقينك؛ أي: قوي لإيمانك بأنه: (لا إله إلا هو الأول والآخر والظاهر والباطن وأنه بكلِّ شيءٍ عليم) وقلت: في تشطير كلام سيدي ابن الفارض - لله دره - في هذا المعنى:

وليس معي في الملك سواي ... وَالمَعيَّة معنى دقّ عن فهم فتيتي

وليس هناك اثنان ذاتًا لذاك ... فالمعيّة لم تخطر على المعيّتي

قال ﷺ: (يا أسير الشهوات والعبادات، ويا أسير المقامات والمكاشفات أنت مغرور، أنت مشتغل بك عنه، أين الاشتغال به عنك وهو عز وجل حاضر ناظر؟ وهو معكم أينما كنتم في الدنيا وفي الآخرة، فإذا كنت معه حجبك عنك، وإذا كنت معك استعبدك له).

(ش) يا أسير النفس، فأنت محب لشهواتها من النساء والبنين، والذهب والفضة، والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، فكونك أسيرًا للشهوات كونك أسيرًا لنفسك، وكونك أسيرًا لنفسك كونك أسيرًا للدنيا؛ أي: عبدًا للدراهم والدينار والخميصة، فتدخل حينئذ تحت قوله ﷺ: **«تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة»**[1].

فهذه سبع عقبات، فلا تنجو من أسر حب الدنيا حتى تقطعها؛ أي: حتى تخرجها من قلبك فلا تذكرها أصلاً، وأمّا وجودها في يدك فلا يضرك إذا تصرفت فيها تصرف خازن أمين يقبض بأمر سيده، ويدفع بأمر سيده، ويعطي بأمره، ويمنع بأمره، فحينئذ يقال لك: رحمك الله وأمات هواك، فأنت هنا أيضًا أسير للشهوات؛ لأنك قبلاً كنت أسيرًا لنفسك من حيث حيوانيتها وحظِّها الجسماني، وهنا أسير لها من حيث عقلها المعاشي وحظها الشيطاني.

فهذه الدركة لها عقبتان: الخلق، والأسباب؛ أي: النظريات، والبديهيات؛ أعني: المقدمات العقلية ونتائجها، والتأثيرات والتأثرات الكونية وروابطها، فأنت ما دمت مرتبطًا بذلك، فلا تنجو من هُوة المهالك، فمتى لازمك الخوف والهم والغم، وإتعابُ الفكر بالتدبير والسعي والاضطراب والقلق، فمتى علمت علمًا يقينًا أن الحاكم في الخلق والأسباب هو الله تعالى، وتيقنت نفوذ سلطان أمره فيهم، وما تحركت حينما تحركت لقضاء حوائجك فيك وبك، بل في الله وبالله؛ أي: جهادًا في طاعة الله وبحوله وقوته، لا في طاعة نفسك وحولك وتدبيرك وقوتك، وشعرت في نفسك الانقطاع واليأس عن الخلق والأسباب، فما نظرت عليهما إلا كما ينظر المضروب للعصا، والتجأت لربك التجاء المضروب للضارب لا للعصا، وتنبهت لنفسك بأنك أنت أيضًا من جملة الخلق الذي ينبغي الخروج عنه، فخرجت عن نفسك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٠٥٧، رقم ٢٧٣٠)، وابن ماجه (٢/١٣٨٥، رقم ٤١٣٥)، وابن حبان (٨/ ١٢، رقم ٣٢١٨)، والبيهقي (٩/١٥٩، رقم ١٨٢٧٩).

وما التفت إليها إلا التفات المسافر لمطيته، والكمي لسيفه، والكريم لضيفه، فحينئذ يقال لك: رحمك الله وأمات إرادتك، فبموت هواك أطلقت من أسر العقل المعاشي والحظ الشيطاني، وهما الخلق والأسباب كما قلنا، ومن جملة الأسباب: العبادات، فإنها بحسب الظاهر وسيلة لنيل الخيرات والمقامات، والمكاشفات دنيا وأخرى، فبهذا الموت خرجت عن التعلق بها أيضًا، وعلمت أنها وسائل لا مقاصد، وأنه لا يتم لها أن تكون وسائل إلا إذا كانت لوجه الله وبحوله وقوته.

فأنت إذا لم تعلم وتفهم هذه الرقائق يدخل عليك الغرور من حيث لا تشعر، فتجّر عليك آية: ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ [الملك:٢٠] أطراف ذيلها فتهوي في مهاوي ويلها، وأمّا إذا علمت وفهمت، فأنت تشتغل به لما في قلبك من اليقين، وفي روحك من الشهود بأنه معك، فتستحي أن تنظر لسواه بعين السوى، بل بعين العين؛ أي: إنك تنظر للخلق والأسباب أنها فعله وحكمه، وأمره ظاهرها وباطنها، كثيفها ولطيفها، فتكون معه بالموافقة دائمًا، فيحجبك حينئذ منك، فتفني بقية التفاتاتك، وعلامة ذلك فناء إرادتك بفعله؛ أي: إنك لا تريد مرادًا قط، ولا يكون لك غرض ولا حاجة ولا مرام، بل يجري فعل الله فيك، فتكون أنت إرادة الله وفعله كما أنت في نفس الأمر، وتكون ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، منشرح الصدر، منوّر الوجه، عامر القلب، وتنال مكرمة ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾ [القمر:٥٥].

فيقال لك حينئذ: رحمك الله وأحياك، وأمّا إذا لم تعلم وتفهم ما ذكر فأنت تكون مع نفسك؛ أي: عقلك وعلمك وتدبيرك وحولك وقوتك، فيستعبدك؛ أي: يطالبك بما تطالب به أجراء السوء، وعبيد السوء من إكمال العمل وإتقانه من حيث الأركان والجنان، ويقام عليك الميزان، وتكون رهين قوله تعالى: ﴿ ۝ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝ ﴾ [القارعة:١١ - ٦].

قال ﷺ: (الإيمان خروجك عنهم، واليقين خروجك عنك، إذا زاد إيمانك نقلت من حال إلى حال، وإذا زاد يقينك نقلت من مقام إلى مقام).

انتهى ما وقف عنده المصنف - رحمه الله.

فهرس بأهم المصادر والمراجع

١- تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب.ط. دار الغد العربي بالعباسية - مصر.

٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة الصوفي محمود الألوسي طبع دار الكتب العلمية.

٣- تفسير روح البيان للعارف إسماعيل حقي. طبع دار الكتب العلمية.

٤- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد للإمام ابن عجيبة.ط. مركز الدكتور حسن عباس زكي للدراسات الإسلامية بالقاهرة.

٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. طبع دار الكتب العلمية.

٦- تفسير ابن كثير للعلامة الحافظ إسماعيل بن كثير. ط. دار الكتب العلمية.

٧- التأويلات النجمية لنجم الدين كبرى ويليه عين الحياة للسمناني، ط دار الكتب العلمية.

٨- عرائس البيان في حقائق القرآن، لروزبهان البقلي الشيرازي، ط دار الكتب العلمية - بيروت - بتحقيقنا.

٩- التأويلات النجمية، لنجم الدين كبرى، ط دار الكتب العلمية - بيروت - بتحقيقنا.

١٠- حقائق القرآن لأبي عبد الرحمن السلمي، ط طهران.

١١- روح البيان في تفسير القرآن لإسماعيل حقي، ط دار الكتب العلمية.

١٢- مرآة الحقائق لإسماعيل حقي، ط دار الآفاق العربية مصر (بتحقيقنا).

١٣- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ بن حجر.ط الدار السلفية. الهند.

١٤- إحياء علوم الدين ومعه المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية.

١٥- لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرازق القاشاني.ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الكتب العلمية بيروت.

١٦- الفتوحات المكية (أو - كما تُسمى - الشرح الكامل للشريعة المحمدية الإسلامية) لإمام الأئمة العارف المحقق مولانا محيي الدين بن العربي المعروف بالشيخ الأكبر.ط. دار صادر في أربعة مجلدات.

١٧ الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية لسيدي عبد الكريم الجيلي.ط. دار الكتب العلمية بيروت، ط. دار الفكر بالقاهرة.

١٨- كتاب المواقف الإلهية والفيوضات السبوحية للعارف الكامل سيدي عبد القادر الجزائري ط. دار الكتب العلمية بيروت.

١٩- إرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول (١٠ رسائل تراثية) بتحقيقنا - طبع دار الآثار الإسلامية - سيرلانكا.

٢٠- نخبة المسألة شرح التحفة المرسلة، للشيخ عبد الغني النابلسي - طبع دار الكتب العلمية - بيروت.

فهرس المحتويات

ŠURŪḤ AL-TUḤFA AL-MURSALA FĪ AL-WAḤDA WAT-TAWḤĪD

by

Al-Sheikh Arslan ben Ya'qoub Ad-Dimashqi
(D. 699H.)

Edited by

Al-Sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

